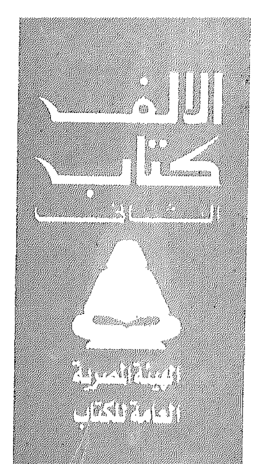


محنة الإسلام الكبرى

أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدى المغول

الأعمال المختارة

تأليف: د. مصطفى طه بدر





الألف كتاب الثانى

نافذة على الثقافة العالمية

الاشراف العام

الدكتور/ سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

مدير التحرير

عزت عبد العزيز

سكرتير التحرير

علياء أبو شادى

المشرف الفنى العام

محسنة عطية

محنة الإسلام الكبرى

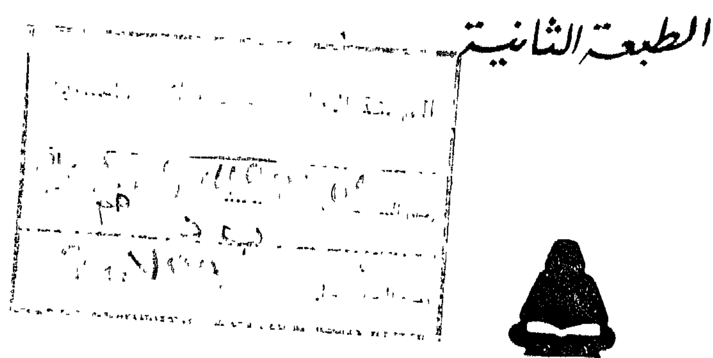
أو

زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدى المغول

تأليف

د. مصطفى طه بدر

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٩



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الباب الثانى

انتشـــار نفــوذ المغــول

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
التنجوت فى كوريا ، حروب مع أسرة كين .	١١٠
(جـ) المرحلة الثالثة : حروب جنكيزخان ضد امبراطورية خوارزم ، القضاء على سلطان محمد خوارزم شاه ، طرد جلال الدين منكبرتى الى الهند . .	١١١
٢ ــ عهد خلفاء جنكيزخان (أجطاى وكيوك)	١١٣
(أ) نشر نفوذ المغول فى الصين : قضاء أجطاى على أسرة كين ، محاربة أجطاى لأسرة سنج فى الصين الجنوبية ، أخضاع أجطاى لكوريا . . .	١١٣
(ب) نشر نفوذ المغول فى أوربا : حملة باتو وأعمالها الحربية فى روسيا وبولونيا وهنغاريا . . .	١١٥
(جـ) نشر نفوذ المغول فى غرب آسيا : قضاء أجطاى على نفوذ جلال الدين منكبرتى ، نشر نفوذ المغول فى أذربيجان وجورجية وأرمينية ، تغلغل النفوذ المغولى فى بلاد الروم السلاجقة وأرمينية الصغرى (قيليقية) وسورية	١١٧
(د) غارات المغول على أملاك الخلافة العباسية : غارات المغول السنوية على العراق ، الخليفة المستنصر والخطر المغولى ، الخطر المغولى فى أوائل عهد الخليفة المستعصم	١٢٠

الباب الثالث

الفتح المغولى للعراق

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : بغداد قبيل الفتح المغولى	١٢٣
١ ــ طبوغرافية بغداد : اشارة الى بغداد كما بناها المنصور اتساعها ، بغداد الشرقية ومحلاتها ، اتساع بغداد الشرقية فى أيام بنى بويه والسلاجقة ، بغداد عند محاصرة هولاكو لها : محلاتها ، قصور الخلفاء وما بقى من ماضيها .	١٢٣
٢ ــ حكم المستعصم ببغداد	١٣٠
(أ) أخلاقه وصفاته	١٣٠

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

تصـــدير

هذا الكتاب يبحث فى تاريخ عصر يعد بحق من أهم العصور الاسلامية ، هــو ذلك العصر الذى ظهرت فيــه دول اسلامية ـ كالدولة السلجوقية والدولة الأيوبيــة ـ كان لها أثر بالغ فى تقدم الحضارة الاسلامية وفى حماية الاسلام من خطر الصليبيين ، وذلك على الرغم من أن هــذا العصر كان عصر انحلال الدولة العباسية الذى انتهى بسقوط بغداد على أيدى التتــار ســنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) وزوال الخــلافة العباسية وانتقالها بعد قليل الى مصر ، حيث حلت القــاهرة محل بغداد ، وقام المماليك ـ كما قام السلاجقة والأيوبيون من قبلهم ـ بالدفاع عن الاسلام ، وأحرزوا نجاحا تاما فى الــوقوف فى وجه التتــار الذين اجتــاحوا الدول وثلــوا العروش فى الشرق والغرب .

وان بعض مظاهر العصر العباسى الثــانى فى الدول الاسلامية عامة وفى العراق خاصة قد نالت ما تستحقه من العناية والاهتمام ؛ بفضل ما بذله الدكتور مصطفى طه بدر من جهود فى اماطة اللثام عن كثير من المســائل التاريخيــة المعقدة ، ولا غرو فقد ألقى على هذه المسائل ضوءا كشف به عن كثير من غوامضها ، وأرجو أن يلقى ظهور هذا الكتــاب الممتع ما يستحقه من اهتمام قراء العربية ولا غرو فانه عمل علمى دقيق ، بذل فيه صاحبه مجهودا علميا موفقا واستطاع أن يحل كثيرا من المسائل التاريخية الغامضــة ، ولا ســيما

موقف ابن العلقمي وموقف طوائف بغداد على اختلاف نحلها ومذاهبها من الفتح المغولى ، وما كان لهذا الفتح من أثر فى العراق بوجه خاص وفى الدول الاسلامية بوجه عام ٠

وأرجو أن تتاح الفرصة قريبا لظهور كتاب آخر قام به المـؤلف تحت اشرافى ونال به درجة الدكتـوراه فى الآداب (التاريخ الاسـلامى) وموضـوعه « ايران فى عهد غازان وعلاقتها بمصر بوجه خاص » فهـذا الكتـاب يتم ما بدأه الدكتور مصطفى طه بدر من دراسة تاريخ الشرق الاسلامى فى العصور الوسطى ، ومحاولة كشف ذلك الدور المهم الذى قامت به مصر فى ذلك العصر دفاعا عن كثـير من البـلاد الشرقية والاسلامية ، وحالت دون وقوعها فى أيدى المغول ، ويبحث هذا الكتاب فترة من أهم فترات التاريخ الاسلامى ٠

وأرجو أن يكون نشر هذين الكتابين باكورة لأبحـاث علمية متصلة يقوم بها الدكتور مصطفى فى سبيل نشر كثير من المؤلفات فى التاريخ الاسلامى والثقافة الاسـلامية وأن يكون ذلك مساهمة منه فيما يقوم به قسم التاريخ فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول فى سبيل احياء تراث الاسلام ؟

١٩٤٧/٦/٢ — د ٠ حسن ابراهيم حسن

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين • أما بعد ، فهذا كتاب جديد في موضوعه يتناول بالتأريخ فترة من فترات التاريخ الاسلامى التى أهملها الناس من زمن بعيد ولا يكاد يعرف عنها الكثيرون الا القليل • فترة يكاد يكون المعروف عنها طيفا غامضا وسرابا خادعا • وهذه الفترة لها أهميتها العظيمة بغير شك وان كانت فترة اضمحلال قد انتهت الى زوال ، وذلك لأن فترات العظمة والقوة ان كانت دراستها تفيد للمثل والقدوة فان فترتنا التى نؤرخها وأمثالها تفيد للعظة والعبرة • اذ لا شك أن التاريخ هو المعلم الأول الذى يحفظ ذكريات الماضى وتجاربه ليعرضها على الناس لتكون لهم هداية ونورا يسلكون بفضله الطريق ويصلون الى بر السلامة • وقد تكون فترات المحن والاضطرابات أفضل من فترات الهدوء والاستقرار فى تبليغ هذه الرسالة العزيزة •

ولن أتكلم هنا كثيرا على الموضوعات التى يتناولها الكتاب والنقط المهمة التى يعالجها ، فحسب القارىء أن يتصفح الفهرس أو يقلب الصفحات ليبدو له الكتاب على حقيقته • ولكن يكفى أن أشير الى أن القارىء لهذا الكتاب

يستطيع أن يكون صورة واضحة للعالم الاسلامى فى أواخر القرن السادس الهجرى وأوائل القرن السابع ويرى كيف اصبح هذا العالم مسرحا لظهور كثير من الدول الصغيرة المتباغضة المتنازعة ، بعد أن كانت تجمعه سلطة واحدة وتظله راية واحدة هى راية الخلافة العباسية ذات المجد التليد والصيت البعيد . وقد أدى هذا الى ضعفه أمام الخطر الأكبر الذى ظهر فى تلك العصور ، وهو خطر المغول وعجزه عن مد يد المساعدة الى الخلافة العباسية حين هددها هذا الخطر بالزوال .

ويستطيع القارىء أيضا أن يكون صورة جلية للخلافة العباسية منذ آخذ الضعف يدب فى آرجائها ويحيلها الى هيكل أجوف قد عدم الحياة والقوة ، ويجعلها ألعوبة فى أيدى الأجانب يفعلون بها ما يشاءون دون آن تملك لنفسها نفعا ولا ضرا . حقا انها آفاقت من غشيتها مدة من الزمن وأخذت تحاول استعادة شىء من عظمتها الذاهبة وقوتها المتداعية ؛ ولكنها على ما يبدو كانت قد نسيت كيف تلعب دورها وفقدت ارادتها فلم تستطع أن تصل الا الى مظاهر جوفاء واحترام شكلى ونفوذ اسمى لم ينفعها عندما تعرضت للخطر المغولى العظيم .

أضف الى ذلك آن هذا الكتاب يقدم لأول مرة فى اللغة العربية وبالأسلوب العلمى الحديث ، صورة كاملة مجسمة للمغول فلا يهمل ذكر البيئة التى نشأوا فيها ولا أثر هذه البيئة فى صفاتهم البدنية والخلقية ، كما يعنى عناية فائقة بتوضيح قوانينهم ونظمهم الحربية ، ويتناول الكلام على نشأتهم الأولى واتمام وحدتهم السياسية فى عهد عاهلهم

العظيم جنكيزخان وتوسعهم فى آسيا وأوربا وتقدمهم تدريجيا نحو العراق العربى فى عهود خلفائه .

وكل هذا الذى مضى لا يعد شيئا مذكورا بجانب ما ورد فى الكتاب عن ذلك الحدث التاريخى المهم ، وهو حملة هولاكو التى قضت على الاسماعيلية ثم على الخلافة العباسية . ولا شك أن القارىء هنا سيشبع عاطفة حب الاستطلاع فيه التى طالما سمعت عن قصاء المغول على الخلافة العباسية أو قرأت القليل دون أن تجد ما يشفى غلتها . اذ سيرى أمام عينيه كيف أعدت حملة هولاكو هذه وكيف سارت فى طريقها وكيف استطاعت أن تقضى على مقاومة الاسماعيلية وتجعلهم أثرا بعد عين ، ثم كيف تبودلت المراسلات بين هولاكو وبين الخليفة العباسى المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ، وكيف سار المغول نحو بغداد وأحاطوا بها وكيف انتهى أمرهم باذلالها واذلال الخليفة وقتله بعد قتل رجال الدولة وأغلبية سكانها ، وكيف كانت هذه النتيجة المؤلمة أثرا من آثار ضعف شخصية الخليفة وضعف مركز الخلافة بوجه عام .

وسيرى أيضا كيف كان موقف كل طائفة من طوائف بغداد المهمة ، وهى أهل السنة والشيعة واليهود والنصارى أمام هذه النازلة . كما سيرى موقف بعض كبار الرجال من أمثال ابن العلقمى والدفتردار الصغير وسليمان شاه وحكم التاريخ عليهم . وفى الختام سيرى وصف الأهوال والفظائع التى حلت بالاسلام والمسلمين فى تلك الظروف القاسية . وما كان لازالة الخلافة العباسية من بغداد من أثر فى حياة المسلمين السياسية والأدبية فى العصور التالية .

وأحب ان يعلم القارىء أن هذا الكتاب ألف منذ سنوات وقدم كرسالة حصلت بها على درجة ماجستير فى التاريخ من

كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول فى يونيه سنة ١٩٣٩ ، وأن أكبر الفضل فيما يبدو فيه من ترتيب وتنظيم يرجع الى أستاذنا الدكتور حسن بك ابراهيم حسن الذى أشرف على الرسالة أثناء وضعها وكان خير مرشد وموجه لنا ٠

وأسأل الله أن يوفقنا جميعا الى ما فيه خير العلم وطالبيه ؟

الجيزة فى ٩/١٢/١٩٤٦ مصطفى بدر

البـــاب الأول

ضعف الخلافة العباسية

الفصـــل الأول

تخلص الخلفاء العباسيين من السلاجقة

يرجع ضعف الخلافة العباسية الى عدة أسباب منها اعتماد العباسيين على الفرس والأتراك ، وسوء معاملة هؤلاء الخلفاء لأعدائهم السياسيين من أمويين وعلويين مما كان ســببا فى انسلاخ كثير من أجزاء دولتهم كما حدث فى الأندلس وشمال افريقية ، ومما كان سببا أيضا فى ظهور الحركات الهدامة ، مثـــل حركة صاحب الزنج (٢٥٥ ــ ٢٧٠) والقرامطة ، وكذلك ولاية العهد لأكثر من واحد ، ونحن لا ننسى ما كان لذلك من أثر فى قيام النزاع بين الأمين والمأمون ، والعصبية فى الجيش العباسى بين اليمنية والمضرية ، وقد كان لها أثر كبير فى ضعف الدولة العباسية فى بلاد المغرب والأندلس . وغزوات البيزنطيين وتنافس الكبراء على الوزارة كانت من عوامل ضعف الخلافة العباسية أيضا ، ولا يمـــكن أن ننسى ما كان من ارتقاء خلفاء ضعاف عرش الخلافة من أمثال المقتدر

(٢٩٥ ــ ٣٢٠ هـ = ٩٠٨ ــ ٩٣٢ م) الذى كان مسرفا فى وقت قل فيه دخل الدولة والذى ترك أمر الدولة للنساء ٠

وقد حاول الخليفة الراضى (٣٢٢ ــ ٣٢٩ = ٩٣٤ ــ ٩٤٠م) أن يخلص الدولة العباسية من الضعف فأنشا منصب أمير الأمراء(١) (٣٢٤ ــ ٣٣٤ هـ) ولــكن محــاولته هذه أتت بعكس ما كان يؤمل ؛ بسبب تنافس الكبراء على هــذا المنصب كما كان من قبلهم يتنافسون على الوزارة ٠

وكان من أثر التنافس على امرة الأمراء بين الــكبراء توجيه نظر الأجانب الى العراق ، فاستولى عليه الحمدانيون فى مستهل شعبان سنة ٣٣٠ هـ ثم جاء بعــدهم معز الدولة بن بويه (٢) (جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ) وأسس دولة ظلت قائمة أكثر من مائة سنة (٣٣٤ ــ ٤٤٧ هـ) تناوب السلطة فيها أحد عشر أميرا كان آخــرهم خسرو فيروز الذى يطلق عليه الملك الرحيم، ولم تنته أيام بنى بويه فىالعراق الا على يد طغرلبك السلجوقى الذى دخل بغداد وقبض عــلى الملك الرحيم وأتباعه فى رمضان سنة ٤٤٧ هـ(٣) وبذلك بدأ عهد النفوذ السلجوقى فى العراق الذى ظل حتى سنة ٥٥١ هـ ٠

١ ــ اضمحلال السلاجقة وأسبابه

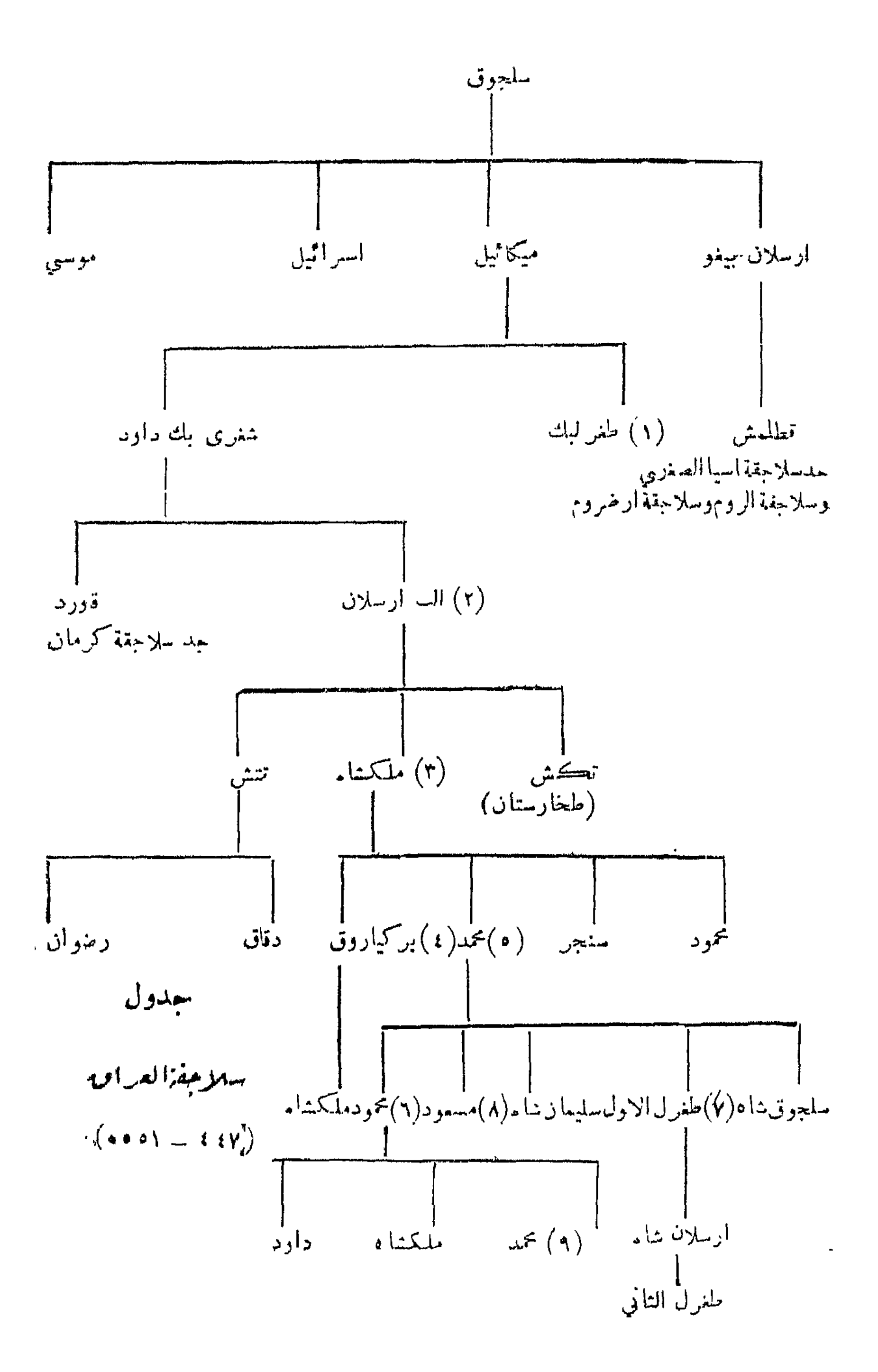
ظل السلاجقة أصحاب الكلمة العليا فى العراق طوال حكم طغرلبك (٤٤٧ ــ ٤٥٥ هـ) وألب أرسلان (٤٥٥ ــ

---

(١) الصولى ــ الأوراق ج ٣ ص ٨٥ ــ ٨٦ ، وتجارب الأمم ص ٣٣٢ ، والفخرى ص ٢٠٩ ٠

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٦ ٠

(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٥٥ ٠



جدول
سلاجقة العراق
(٤٤٧ – ٥٥١).

٤٦٥ هـ) وملكشاه (٤٦٥ ــ ٤٨٥ هـ) وبركياروق بن ملكشاه (٤٨٥ ــ ٤٩٨ هـ) ومحمد بن ملكشاه (٤٩٨ ــ ٥١١ هـ) وهى مدة لا تقل عن ثلاث وستين سنة تمتع العراق فيها بالسلام والطمأنينة وقلت فيها المنازعات بين أهل السنة والشيعة بعد أن كانت لا تكاد تنقطع فى أى عهد من العهود (١) .

على أن الاضمحلال بدأ يدب فى جسم السلطنة السلجوقية فى العراق منذ ارتقى عرشها محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥١١ هـ ثم أخذ يتغلغل تغلغلا عظيما فى عهد خلفائه حتى زال نفوذهم عن العراق فى عهد محمد بن محمود سنة ٥٥١ هـ .

ويمكننا أن نعزو ضعف السلاجقة الى عدة عوامل ، منها ضعف شخصية السلاطين الذين ارتقوا عرش السلطنة منذ أيام محمود بن ملكشاه ، وانعدام روح التضامن بين أفراد البيت السلجوقى فى ذلك العهد ، وظهور دول الأتابكة ، وظهور طائفة الاسماعيلية .

(أ) ضعف شخصية السلاطين

كان محمود بن محمد ضعيفا خاملا ، ولذلك نجد عصبة من الأمراء على رأسها على بار ووزيره أبو القاسم الانساباذى الدركزينى (٢) قد اغتصبت السلطة منه ومن وزيره كمال

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٢٦٤ و ج ١٠ ص ٨٨ و ١٩١ .

(٢) دركزين بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الكاف وزاى مكسورة وياء ونون ... قال أنوشروان بن خالد الوزير ، هى بلدة من اقليم الاعلم ينسب اليها أبى القاسم ناصر بن على الدركزينى وزير السلطان محمود بن السلطان محمد السلجوقى ، ثم وزير أخيه طغرل وهو الذى قتله فى سنة ٥٢١ هـ وأصله من قرية من هذا الاقليم يقال لها انساباذ فنسب نفسه الى دركزين لانها أكبر ترى تلك الناحية ... وقال وأهل هذا الاقليم كلهم مزدكية ملاحدة » . (راجع اللفظ فى معجم البلدان لياقوت) .

الملك السميرمى ثم أخذت تعمل ما فيه مصلحتها غير ناظرة الى ما يسببه عملها من أضرار • فقتلت الشخصيات الكبيرة مثل أنوشتكين شيركير قائد محمد بن ملكشاه ، الذى كان يحارب الاسماعيلية ليخلو لها الجو كما بددت أموال الخزانة السلطانية فى ملذاتها بل انها حرضت الكثيرين مثل دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس الأسدى ومسعود بن محمد أخى السلطان على الخروج على محمود حتى يشتغل بمحاربتهم عنها (١) • وقد كان لأعمال هذه العصبة أثرها السيىء لأنها افقدت الدولة كثيرا من عظماء الرجال كما أفقرتها وبددت أموالها • وقد كان طغرل بن محمد الذى خلف محمودا مسلوب السلطة مع أبى القاسم الدركزينى كما كان سابقه ، وهو وان حاول أن يفك القيد بقتله الدركزينى على أبواب ليستر Lishter (٢) فان القضاء لم يمهله ومات سنة ٥٢٧ هـ بعد غريمه بقليل •

ولم يكن مسعود بن محمد أشد سطوة وأقوى مراسا من سابقيه ولذلك كثر خروج الأمراء عليه، وقد ذكر ابن خلكان وابن الأثير أنه لم يكن له من السلطة غير الاسم (٣) • وأول الخارجين كان قره سنقر صاحب اران الذى أحس بنية الغدر من كمال الدين محمد الخازن وزير السلطان ، ولذلك ذهب الى همذان سنة ٥٣٣ هـ بعشرة آلاف ثم أرسل الى مسعود يطلب منه اعدام وزيره أو تسليمه : « فاما أن تعدمه واما أن تسلمه ، فان دفعته الينا فنحن طائعون ، وان دافعت عنه

(١) البندارى ـ زبدة النصرة ونخبة العصرة ، ص ١٥٥ وابن الأثير ج ١٠ ، ص ٢٨٥ •

(٢) Brown, Account of a Rare Ms. Hist. of the Seljuks, p. 53.

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٢٢ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٣٠ •

فنحن عن أنفسنا مدافعون » • وقد سلم مسعود الوزير لقره سنقر فضرب عنقه كما اتخذ مجد الدين عز الملك البروجردى وزيرا له تبعا لرغبة قره سنقر • وقد خرج بعد ذلك على مسعود عباس صاحب الرى وبوزابه صاحب فارس ولم يخضعا الا بعد ان استعان السلطان بجاولى الجاندار ، الذى كان قد خلف قره سنقر على أذربيجان • هذا الى أن جاولى الجاندار نفسه خرج على السلطان مسعود واتفق مع بوزابه على محاربته ، ولولا موته لما نجا السلطان من خطره (١) •

ويظهر ضعف السلطان مسعود بكل وضوح فيما حدث بعد ذلك سنة ٥٤٠هـ ؛ اذ اتفق بوزابه صاحب فارس والحاجب الكبير فخر الدين عبد الرحمن بن طغايرك وعباس صاحب الرى على اغتصاب السلطة من السلطان مسعود ولم يسعه الا أن « رأى السلامة فى سلمهم وأقسم على رضاهم » (٢) وعزل وزيره وعين تاج الدين ابا الفتح بن دارست الفارسى وزير بوزابه بدلا منه ، يضاف الى ذلك أنه خضع لرأيهم حين قرر الثلاثة أن يكون أحدهم بالنوبة ملازما لخدمته ، وبمعنى آخر حين تناوبوا حراسته والاشراف عليه • كذلك لم يعارضهم حين أبعدوا من رأوا فى وجوده بالقرب منه خطرا عليهم مثل خاصبك بن بلنكرى فانهم أرسلوه مع فخر الدين ابن طغايرك ــ أحد الثلاثة ــ الذى ولى أذربيجان واران سنة ٥٤١ هـ (٣) •

---

(١) البندارى ص ١٨٧ و ٢٠٢ ــ ٢٠٤ وابن الاثير ج ١١ ص ٥٣ •

(٢) البندارى ، ص ٢١٤ •

(٣) البندارى ، ص ٢١٤ وابن الأثير ج ١١ ص ٤٧ •

وذكر ابن الأثير ج ١١ ص ٧٣ أن خاصبك كان صبيا تركمانيا اتصل بالسلطان مسعود ، ثم تقدم على سائر الأمراء •

حقيقة أن مسعودا لم يرضخ للأمر طويلا وحاول ان يسترد سلطته ، واقتنص فرصة قتل خاصبك بن بلنكرى لفخرالدين بن طغايرك غيلة فى أذربيجان ؛ ليقتل هو بدوره فى نفس السنة عباس صاحب الرى الذى كان عليه الدور فى خدمته ويصرف تاج الدين بن دارست عن وزارته • كما أنه حين رأى ثالث الشركاء بوزابه يغتاظ لفقد زميليه ويسير ومعه ابن شريكه عباس صاحب الرى الى همذان لاقاه هو أيضا ومعه خاصبك بن بلنكرى وأسره وقتل ابن عباس • الا أنه بسبب ضعفه لم يستفد من مجهودهالذى بذله وما لبث أن وقع تحت سيطرة خاصبك ، الذى آخذ بدوره يتخلص من منافسيه والذى وجد فى الوزير الأصم شمس الدين أبى النجيب الدركزينى أداة لنشر راية الظلم والارهاب (١) •

ويلاحظ أن السلطان سنجر بن ملكشاه ــ عميد البيت السلجوقى وصاحب الأمر فى خراسان ــ هاله ما حل بالعراق من الفوضى، فى أيام محمود بن محمد وطغرل ومسعود، وحاول اصلاح أموره ولكن محاولاته لم تجد فتيلا • ذلك لأنه حين قصد العراق فى أيام محمود قابله هذا ووقعت بينهما موقعة هزم فيها محمود ، الا أن سنجر عفا عنه وجعله وكيله فى العراق كما زوجه من ابنته ماه ملك خاتون واكتفى باعادة الوزارة الى كمال الملك السميرمى(٢) • وكذلك حين قصد العراق فى أيام مسعود سنة ٥٤٤ هـ وتلاقى مع مسعود فى الرى عاد

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٥٢ ــ ٥٤ و ٦١ و ...
Browne, Account of a Rare Ms. Hist of the Seljuks, pp. 61 - 63.

(٢) البندارى ، ص ١٣٤ و Ibid, pp. 45, 53.

أدراجه وترك الأمر على ما هو عليه (١) فكانت بذلك أعماله قليلة الأهمية ولم يمكنه انقاذ الموقف .

(ب) انعدام روح التضامن بين أفراد البيت السلجوقي

لم يكن افراد البيت السلجوقي متضامنين فيما بينهم ، بل كان الشقاق بينهم متفشيا . وقد كان الأمراء الذين يخرجون على السلاطين يعرفون ما لهذا الشقاق من أثر ، ولذلك تجدهم يحاولون توسيع الهوة وزيادة شقة الخلاف، وكثيرا ما نجدهم يستميلون أحد أفراد البيت السلجوقي الى صفوفهم ويمنونه بالسلطنة فيكون لهم من وراء ذلك كثرة عدد أعوانهم والفت في عضد أعوان السلطان . وقد حدث ذلك عند النزاع بين قره سنقر والسلطان مسعود ، اذ استدعى قره سنقر الملك سلجوق بن محمد ووعده بأن يمضى معه الى فارس ويستخلصها له ، كما أخذ معه داود بن محمود وأتابكه اباز (٢) . كما حدث أيضا عندما قام النزاع بين عباس وبوزابه من جهة وبين السلطان مسعود من جهة أخرى ، فقد استدعيا سليمان بن محمد أخا السلطان وأغرياه ووعداه بالسلطنة ، ولما اتفق بوزابه مع جاولى الجاندار على الخروج على مسعود بعد ذلك تعهد له بأن يأتيه بالملك محمد بن محمود (٣) ، وأخيرا لم ينس بوزابه حين سار للأخذ بثأر شريكيه ابن طغايرك وعباس ، أن يأخذ معه محمد وملكشاه ابني السلطان محمود الى اصبهان حيث توجهما ثم صار الى همذان ليلاقى حتفه (٤) .

---

(١) البندارى ص ١٣٤ وابن الأثير ج ١١ ص ٦٠ و ٦٤ .
و Browne, Acc. of a Rare Ms. Hist. of the Seljuks. p. 47.
ذكر الراوندى أن المقابلة بين سنجار ومسعود فى الرى كانت سنة ٥٤٢ هـ .

(٢) البندارى ، ص ١٨٧ و Browne, Acc. Ms. H. Selj., p. 58.

(٣) البندارى ، ص ٢٠٣ و Ibid, p. 60.

(٤) البندارى ص ٢٠٢ و **Ibid**, p. 63.

(ج) ظهور دول الأتابكة

ذكر ابن خلكان (١) أن « الأتابك هو الذى يربى أولاد الملوك ، وان الأتا بالتركية هو الأب ، وبك هو الأمير ، فأتابك مركب من هذين المعنيين ومعناه اذن أبو الأمير » • كما ذكر ابن الأثير أن السلطان ملكشاه خلع على نظام الملك ولقبه ألقابا من جملتها أتابك ومعناه الأمير الوالد (٢) •

وكان سلاطين السلاجقة يعينون ولادهم وهم صغار على أجزاء من أملاكهم ويرسلون معهم رجالا يكونون لهم بمثابة المربين يديرون الأمور باسمهم ويطلقون عليهم اسم الاتابكة • وكان هذا النظام ممكنا عندما كان رئيس الدولة رجلا قويا مثل ملكشاه له هيبة القلوب ، ولكن عندما ضعف السلاطين وضاعت هيبتهم كان هذا النظام سببا فى اضعاف الدولة السلجوقية ؛ لأن كثيرا من الجهات انفصلت عنها نتيجة لاستقلال الأتابكة بها وعملهم على تثبيت حكم أسراتهم فيها (٣) •

وقد ظهرت بهذه الطريقة الدولة البورية (٤٩٧ ــ ٥٤٩هـ = ١١٠٣ ــ ١١٥٤م) التى أسسها طغطكين الذى عينه تتش آتابكا لابنه دوقاق فى دمشق ولكنه لم يلبث أن اتخذها لنفسه ، والتى ظل حكمها فى أبنائه من بعده حتى سنة ٥٤٩ هـ حين انتزعها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى من الفرنجة الذين كانوا قد أخذوها من مجير الدين أرتق آخر أفراد الدولة البورية فى نفس السنة والتى امتد

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٢ و ٢٤١ •
(٢) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ٣٣ •
(٣) Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 313.

نفوذها في دمشق وحماة ردحا من الزمن · كما ظهرت أيضا **الدولة الأرتقية** (٤٩٥ ـ ٧١٢ هـ = ١١٠١ ـ ١٣١٢م) التى أسسها أرتق بن أكسب ، والتى امتد نفوذها فى حصن كيفا وماردين وآمد وخرتبرت وميافارقين ، بل حلب والقدس زمنا طويلا · وكذلك يجب ألا ننسى دولة دانشمد (٤٩٠ ـ ٦٥٠ هـ = ١٠٩٧ ـ ١١٦٥م) التى أسسها كمشتكين بن الدانشمند في كبادوكيا ، والتى شملت سيواس وقيصرية وملطية ، والتى ظلت حتى ضم أملاكها سلاجقة الروم اليهم · ودولة الأتابك عماد الدين زنكي (٥٢١ ـ ٦٤٨ هـ = ١١٢٧ ـ ١٢٥٠ م) التى بدأت فى الموصل ثم اتسعت حتى شملت جزءا عظيما من الجزيرة الفراتية والشام · ودولة أتابكة أذربيجان (٥٣١ ـ ٦٢٢ هـ = ١١٣٦ ـ ١٢٢٥م) من أفراد أسرة ايلدكز الذى أسسها وحكمها بعد أن كان رجلا عاديا نشأ فى بلاط السلطان مسعود ثم أعطيت له حكومة أذربيجان مع زوجة أخى السلطان الأرملة ، ثم خلفه عليها أولاده وأحفاده · والدولة الغورية التى بدأت فى ولاية الغور بين هراة وغزنة ثم امتدت الى غزنة وظلت قائمة حتى قضى عليها محمد خوارزمشاه · ودولة شاهات خوارزم نفسها التى أسسها أنوشتجين أحد مماليك السلطان ملكشاه بعد أن عينه حاكما عليها ، ودخل فى حوزتها العراق العجمي وفارس وخراسان وما وراء النهر ، والتى ظلت قائمة حتى قضى عليها المغول فى عهد أجطاى بانتصارهم على جلال الدين منكبرتى ابن خوارزمشاه وموت جلال الدين مشردا سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١م) فكانت مدتها حوالى قرنين من الزمان (٤٧٠ ـ ٦٢٨ هـ = ١٠٧٧ ـ ١٢٣١م) · والدولة السلغرية التى

تنسب الى سلغر Salghar رئيس جماعة من التركمان نزحوا الى خراسان ثم انضموا الى طغرلبك الذى جعل سلغر من ضمن حجابه ، وتمكن واحد من نسل سلغر هو سنقر بن مودود من حكم فارس سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) وتأسيس دولة لأسرته فيها ظلت أكثر من قرن (٥٤٣ ـ ٦٨٦ هـ = ١١٤٨ ـ ١٢٨٧م) ، وقد دفع بعض أمرائها الجزية للدولة الخوارزمية كما خضع آخرون للمغول عند ظهورهم (١) ٠

(د) ظهور طائفة الاسماعيلية (الحشيشيه)

أول ما ظهرت دعوة الاسماعيلية فى بلدة ساوه فى أيام السلطان ملكشاه السلجوقى (٢) وقد ساعد على سرعة انتشارها فى طول البلاد وعرضها الغاء ملكشاه لنظام أصحاب الأخبار ثم قيام النزاع بعد موته بين ابنيه بركياروق ومحمود (٣) وقد تمكن الاسماعيلية فى أيام بركياروق من نشر دعوتهم فى اصبهان ثم الاستيلاء عليها وذلك حين كان يرأسهم أحمد بن عطاش ، كما أنهم فى عهد رئاسة تلميذه الحسن بن الصباح استولوا على ألموت وعلى كثير من القلاع الأخرى مثل قهستان وزوزن وتون وغيرها من أمثال خالنجان وآمل وكردكوه (٤) ٠ فلما مات بركياروق وتولى السلطنة أخوه محمد بن ملكشاه رأى فيهم خطرا شديدا على نفوذه ، وسير جيوشه لمحاربتهم وظل يكافحهم مكافحة شديدة ولكنه لم يعش طويلا حتى يقضى عليهم قضاء تاما (٥) ٠

(١) ابن الأثير ح ١٠ ، ص ١٢٤ و ١٤٣ و ١٤٨ وصبح الأعشى ج ٤ ص ١٦٥ ـ ١٧٦ و ٣١٦ و Browne. Acc. Ms. h. Seljuks. p. 8.
و Cam, Med. H., Vol. IV, pp 313-315.
و Lane-Poole, Muh. Dyns., pp. 159-180.

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٣٠ ٠

(٣) البندارى ص ١١٧ وابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٣٠ ٠

(٤) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ وصبح الأعشى ج ١ ص ١٢٠ ـ ١٢١ ٠

(٥) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٨٠ ـ ١٨٢ و ٢٠٢ و ٣٢٢ ٠ Camb. Med. H., Browne, Ace, Ms., pp. 38, 43, Vol. IV, p. 311.

هذا وقد كان ظهور هؤلاء الاسماعيلية سببا فى اضعاف الدولة السلجوقية ليس فقط باستيلائهم على البلاد التى تقدمت الاشارة اليها وسلخها عن أملاك الدولة السلجوقية أو باضطرارهم السلاطين الى تسيير الجيوش اليهم ، بل لأنهم زعزعوا الامن فى جميع أرجاء الامبراطورية السلجوقية كما أدخلوا الرعب فى قلوب الأهلين (١) ٠

أضف الى ذلك أن الاسماعيلية كانوا سندا لمن تسلطوا على البلاد فى أيام سلاطين السلاجقة الضعاف مثل أبى اسحق الدركزينى فى أيام السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ومثل خاصبك بن بلنكرى فى أيام السلطان مسعود ، فعاونوهم فى سياستهم التخريبية كما آزالوا أعداءهم من الوجود ٠ وقد بلغ من اعتماد هؤلاء المستبدين على مساعدة الاسماعيلية لهم فى عدوانهم أن قال أبو اسحق الدركزينى للسلطان طغرل بن محمد الذى خلف محمودا على السلطنة ، والذى وزر له الدركزينى وقتا قصيرا حين سأله عن الجند الذى يلزم للقضاء على ثورة أخيه مسعود : « لا تبال ولا تخطر خطرا بالبال ، فانى قد ندبت جماعة من الحشيشية لقتل أعدائك » (٢) ٠

هذا وليس فى امكان الباحث عن آثر الاسماعيلية فى اضعاف السلاجقة أن ينسى أن هؤلاء الاسماعيلية بقتلهم كثيرا من الشخصيات البارزة فى أيام السلاجقة حرموا الدولة من معاونتهم ، وليس هناك من ينكر ما خسرته الدولة بقتل أمثال نظام الملك وزير ملكشاه ، وجمال الملك السميرمى وزير محمود بن محمد بن ملكشاه ، وفخر الملك بن نظام الملك وزير السلطان سنجر صاحب الأمر فى خراسان (٣) ٠

(١) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٢٠ ٠ Browne, Acc. Mc., pp. 40-42.
(٢) البندارى ، ص ١٦٩ ٠
(٣) ابن الاثير ج ١٠ ، ص ١٤٠ و ٢٥٦ و ١٧٥ ٠

٢ ـ حسن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين وأثرها في زوال النفوذ السلجوقي من العراق

لم تكن حالة الخلفاء العباسيين فى آيام السلاجقة تختلف اختلافا كبيرا عما كانت عليه فى ايام بنى بويه . ذلك لأنه بينما كان آمراء بنى بويه يقيمون فى بغداد ويجمعون فى يدهم كل السلطة ، كان نواب السلاجقة العسكريين يحكمون العراق ويستأثرون بالنفوذ فيه (١) . وقد بلغ من عجز الخلفاء عن تدبير الأمور فى ذلك الوقت وضالة اسهم أن الناس فى بغداد قاموا فى أيام الخليفة القائم سنة ٤٦٥هـ « وأنكروا كثرة المغنيات والخمور ، فقطع بعضهم أوتار عود مغنية كانت عند جندى فثار به الجندى الذى كانت عنده فضربه فاجتمعت العامة ومعهم كثير من الائمة .. واستغاثوا الى الخليفة وطلبوا هدم المواخير والحانات وتبطيلها فوعدهم آن يكاتب السلطان فى ذلك » (٢) ، ولم يجرؤ أن يتخذ قرارا فى هذا الشأن . أضف الى ذلك أن الخلفاء العباسيين ظلوا يعيشون فى أيام السلاجقة من اقطاعات مقررة يديرها لهم عمال من بينهم الوزير وكاتب الانشاء على ما كان عليه الأمر فى أيام بنى بويه (٣) ولم يكن لهم من الأمر سوى ذكر اسمهم فى الخطبة ، كما كانوا يقضون أوقاتهم فى بناء القصور وترميمها (٤) .

(١) Riohard Coke, Baghdad The city of Peace, p. 114.

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ٣٨ .

(٣) البندارى ، ص ١٩٤ .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ، ص ١٦٣ . و Le Strange, Baghdad During the Abbassid Caliphate, p. 327.

على أن هذا يجب ألا يحجب عن أنظارنا تلك الحقيقة الواضحة وهى أن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين كانت أفضل بكثير من معاملة بنى بويه لهم(١) ، فقد وصف لنا ابن الأثير الاجتماع الذى حدث بين السلطان طغرلبك ــ عندما عاد الى بغداد سنة ٤٤٩ هـ على أثر اخضاعه الموصل وقضائه على مناوأة دبيس بن مزيد وقريش بن بدران ــ وبين الخليفة القائم فقال (٢) : « وجلس الخليفة يوم السبت لخمس بقين من ذى القعدة جلوسا عاما وحضر وجوه عسكر السلطان وأعيان بغداد وحضر السلطان فى الماء وأصحابه حوله فى السميريات ، فلما خرج من السميرية أركب فرسا من مراكب الخليفة ، فحضر عند الخليفة ، والخليفة على سرير عال من الأرض نحو سبع أذرع وعليه بردة النبى وبيده القضيب الخيزران ، فقبل السلطان الأرض وقبل يده وأجلس على كرسى ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : قل له ان أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس بقربك وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده ورد عليك مراعاة عباده ، فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك فى ذلك واجتهد فى نشر العدل وكف الظلم واصلاح الرعية . فقبل الأرض ، وأمر الخليفة بافاضة الخلع عليه ، فقام الى موضع لبسها فيه وعاد وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه ، وخاطبه الخليفة بملك مشرق ومغرب وأعطى العهد وخرج ، وأرسل الى الخليفة خدمة كثيرة منها خمسون ألف دينار وخمسون مملوكا أتراكا من أجود ما يكون ومعهم خيولهم وسلاحهم الى غير ذلك من الثياب وغيرها » .

---

(١) Cambridge Medieval history, vol. IV, p. 277.

(٢) ابن الأثير ج ٩ ، ص ٢٦٤ ــ ٢٦٥ .

ولا شك أن هذا الوصف يبين ما كان يحمله طغرلبك للخليفة من الود والاحترام الحقيقى ، كما يوضح أن ما حدث فى هذا الاجتماع كان طبيعيا لا تكلف فيه بعكس ما حدث عند اجتماع الخليفة الطائع وعضد الدولة بن بويه ، ذلك الاجتماع الذى لم يدع اليه سوى رغبة عضد الدولة فى اظهار أبهته ونفوذه أمام رسول الخليفة الفاطمى العزيز ، الذى كانت تغلب عليه الكلفة والتصنع .

والأمثلة على احترام السلاجقة للخلفاء العباسيين وحسن معاملتهم لهم كثيرة ، منها أن طغرلبك عندما عاد الى بغداد مرة أخرى سنة ٤٥٥ هـ قادما من أرمينية وعلم أن الخليفة القائم يريد أن يستقبله بنفسه ، أعفاه من ذلك واكتفى بأن يستقبله وزيره ابن جهير . ومنها أن السلطان ملكشاه عندما وفد عليه الشيخ أبو اسحق الشيرازى سنة ٤٧٥ هـ يحمل رسالة من قبل الخليفة المقتدى تتضمن شكواه من العميد أبى الفتح بن الليث عميد العراق ، أكرمه وأجابه الى جميع ما التمسه ، فأهين العميد ورفعت يده عن جميع ما يتعلق بحواشى الخليفة . ومنها أن السلطان ملكشاه أيضا عندما ذهب الى بغداد سنة ٤٧٩ هـ فى أيام الخليفة المقتدى ، طلب أن يقبل يد الخليفة ولكن هذا لم يجبه الى ذلك ، فسأل أن يقبل خاتمه ، ولما أعطاه اياه قبله ثم وضعه على عينيه ، كما أنه أمر أن يزاد فى اقطاع وكلاء الخليفة نهر برزى من طريق خراسان وعشرة آلاف دينار من معاملة بغداد (١) .

وان أقوى العلاقات بين الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة لتتجلى فيما كانوا يتبادلونه من الخلع والتفويض

---

(١) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٩ و ٥١ و ٦٤ ـ ٦٥ .

فقد كان الخليفة عند ارتقائه عرش الخلافة يرسل الى السلطان السلجوقى لأخذ البيعة وحمل الخلع السلطانيه والهدايا ، كما كان السلطان السلجوقى بعد أن يتولى السلطنة يلتمس التفويض من الخليفة العباسى (١) . كما تظهر تلك العلاقات أيضا فيما كان بين البيتين السلجوقى والعباسى من الارتباط بأواصر الزواج ، وان المؤرخين ليذكرون لنا أمثلة كثيرة لذلك ، فهذا طغرلبك قد تزوج سنة ٤٥٤ هـ ابنة الخليفة القائم ، وذاك الخليفة القائم نفسه قد زوج ابنه المقتدى من ابنة السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٤ هـ ، كما أن الخليفة المستظهر ابن المقتدى تزوج من ابنة السلطان ملكشاه سنة ٥٠٢هـ ، وتزوج الخليفة المقتفى فاطمة بنت محمد بن ملكشاه وأخت السلطان مسعود (٢) .

ولا شك أن السبب فيما كان هناك من علاقات طيبة بين السلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين يرجع الى أن السلاجقة كانوا يعتنقون المذهب السنى الذى كان الخليفة العباسى رئيسه الأعلى ، وقد ذكر فى ذلك السير توماس أرنولد : « أن السلاجقة كانوا يحترمون الخليفة العباسى لا لمركزه السياسى ، بل لأنه خليفة الله (٣) » .

وان ما ذكره وان كان يدل دلالة واضحة على ما كان بين السلاجقة والخلفاء العباسيين من طيب العلاقات وحسن التفاهم وتبادل الاحترام ، الا أنه فى الوقت نفسه لا يحول دون ذكر ما حدث من سوء تفاهم بين الطرفين فى بعض الأحيان

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ٤٠ و ٦٤ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ، ص ٦٢ و ٦٣ وابن الأثير ج ١٠ و ص ٨ و ٢٩ و ١٩٩ .

(٣) Arnold, the Caliphate, p. 80.

وتعدى السلاطين على الخلفاء ، ومن أمثلة ذلك ما حدث عندما غضب السلطان ملكشاه على الخليفة المقتدى وأمره بالخروج من بغداد والذهاب الى البصرة بسبب تدخله فى شئون الحكم على ما ذكره سير وليام ميور(١) ، أو بسبب رغبة ملكشاه فى اسناد الخلافة الى جعفر بن الخليفة المقتدى من اخته على ما ذكره ابن خلكان (٢) . كما أنه لم يمنع اعتداء السلاجقة على الخلفاء فى بعض الأوقات، وقد ذكر فى ذلك السير توماس أرنولد أن السلاجقة اتخذوا لأنفسهم لقب ظل الله الذى كان يحتفظ به الخلفاء العباسيون لأنفسهم فى الماضى وأنهم اخذوا من الخليفة المسترشد بردة الرسول التى كان الخلفاء يلبسونها عند توليتهم الخلافة أو عند حضورهم الحفلات الدينية(٣) . غير أن مثل هذه الأعمال لم تصدر من السلاجقة الا نادرا بل ان الأمثلة المذكورة قد تكون كل ما ذكر فى هذه الناحية .

ولم يكن احترام الخلفاء العباسيين فى ذلك الوقت مقصورا على السلاجقة ، بل ان غيرهم من الأمراء الذين كونوا اماراتهم بقوة السيف كانوا لا يزالون ينظرون الى الخليفة العباسى كواسطة لتثبيت عروشهم واكساب حكمهم صبغة شرعية . وقد ذكر سير توماس أرنولد (٤) أن يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين فى اسبانيا أرسل الى الخليفة المقتفى يلتمس منه تثبيته فى حكم أملاكه ، فكان فى قوله

---

(١) Muir, The Caliphate, its rise, decline & fall, p. 577.

(٢) ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٦٤ .

(٣) Arnold, The Caliphate, p. 80.

جاء فى مجموعة كمبردج للقرون الوسطى أن ملكشاه لقب أمير المؤمنين وهذا اللقب لم يطلق قبل ذلك الا على الخلفاء .

(٤) Arnold, the Caliphate, p. 38.

هذا دليل على أن الخلفـاء مازالوا فى ذلك العهـد يتمتعون بسلطة ادبية فى داخل بغداد وخارجها ٠

على أن اهم ما يجب ملاحظته هو أن معـاملة السلاجقة للعباسيين بالحسنى أعادت الى انفسهم الأمل وجعلتهم يفكرون فى اعادة مجد الخلافة العباسية السـالف (١) ٠ وقد ذكـر سـير وليام ميور (٢) ان الخليفة المقتدى تدخـل فى شئون الحكم فى أيام السلطان ملكشاه ، وأن هذا السلطان حين آحس بتدخله طلب منه عدم التدخل وآصدر آمرا بتوجهه الى البصرة حتى يكون بعيدا عن مركز الحكومة ، ولولا موت السـلطان لأصبح أمر انتقاله الى البصرة فى حيز الوجود ٠ كما ذكر ابن خلكان (٣) آن ملكشاه لما دخل بغداد فى آخر مرة « وكان للخليفة ولدان احدهما المستظهر بالله والآخر آبو الفضـل جعفر ابن بنت السلطان ٠٠ وكان الخليفة قد بايع لولده المستظهر بولاية العهد من بعده لأنه كان الأكبر، ألزم السلطان الخليفة أن يخلعه ويجعل ابن بنته جعفرا ولى العهد ويسـلم بغداد اليه ويخرج الخليفة الى البصرة ٠ فشق ذلك على الخليفة وبالغ فى استنزال السلطان عن هذا الرآى فلم يفعل ؛ وطلب المهلة عشرة أيام ليتجهز فأمهله ، فقيل ان الخليفة فى تلك الأيام جعل يصوم ويطوى واذا آفطر جلس على الرماد للافطار وهو يدعو الله سبحانه وتعالى على السلطان ، فمرض السلطان فى تلك الأيام ومات وكفى الخليفة أمره » ٠

واذا كان المقتدى قد فعل ذلك فى آيام ملكشاه العظيم وحين كان نفوذ السـلاجقة فى العراق لا يزال كبيرا ، فان

---

(١) Arnold, the Caliphate, p. 80, Coke, Baghdad, p. 114. Cambridge Med. Hist, vol. IV, p. 277.

(٢) Muir, the Caliphate, p. 577.

(٣) ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٦٤ ٠

خلفاءه ساروا على شاكلته وشجعهم ما أصاب السلاجقة من الضعف فى ذلك الوقت • والخليفة المسترشد أول من سار بخطى جدية فى هذا السبيل ، وأول ما نعلمه من خطواته هذه ما ذكره ابن خلكان (١) من أنه عندما ولى السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى دبيس على الموصل وكان الخليفة لا يوده عمل ما فى وسعه حتى أقنع السلطان بتولية زنكى وعطل أمر دبيس • وقد خرج الخليفة المسترشد بعد ذلك سنة ٥٢٠ هـ على السلطان محمود بن محمد وهزم قواته وكاد يستقل بالأمر لولا مساعدة زنكى حاكم البصرة فى ذلك الوقت للسلطان • كما أنه عند موت هذا السلطان أخذ المسترشد يحرض بعض أفراد البيت السلجوقى على الخروج على السلطان الجديد، ولما أراد زنكى أن يضع حدا لعمله حاربه وشتت قواته وتبعه حتى الموصل وحاصره بها ثلاثة شهور وكان ذلك سنة ٥٢٧ هـ (٢) • ولم يكتف بذلك بل سار بجيشه ومعه سلجوق أحد أمراء البيت السلجوقى وهاجم قوات مسعود قرب همذان ؛ فكان بذلك مثلا أعلى لمن أتى بعده من الخلفاء (٣) •

واذا كان المسترشد لم ينجح فى تنفيذ أغراضه وهزمه جند السلطان مسعود وأسروه ووضعوه فى خيمة حيث قتله نفر من الحشيشية ، فان ابنه الراشد الذى ارتقى بعده عرش

---

(١) ابن خلكان • وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٢٤١ •

(٢) وفيات الأعيان ، ج ، ٢ ص ١٦٤ وابن الأثير ج ١٠ ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ و ٢٨٩ و ج ١١ ص ٢ •

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٢ و Arnold, the Caliphate, pp. 80-81 C. و Acount of Ms., p. 57. و Muir, The Caliphate, p. 580

الخلافة سار على شاكلته وأدى به حب الثأر لأبيه الى اهانة رسول السلطان مسعود ودعوة العامة الى تدمير قصره ، كما انه أخذ يستعد لامتشاق الحسام بعد أن انضم اليه زنكى بسبب قتل السلطان لصديقه دبيس بن صدقة ، متهما اياه بقتل الخليفة . وقد كانت خاتمة الراشد كخاتمة أبيه لأن السلطان مسعود لم ينتظر حتى يهاجمه الخليفة ، بل سار حتى وصل الى بغداد وحاصرها وضيق عليها الخناق واضطر الخليفة الى الفرار منها الى الموصل حيث صديقه زنكى ثم قتله بعض الحشيشية بعد ذلك عندما ذهب الى اصبهان(١) .

ولما صار المقتفى لأمر الله خليفة بعد موت الراشد ، عمل جهده لتنفيذ رغبة أسلافه واتمام ما بدءوه . ويعتبر الدور الذى قام به فى هذا السبيل من أهم هذه الأدوار لأنه توج مجهودات من سبقه بالنصر المبين . وقد بدأت مجهودات المقتفى فى آخر عهد السلطان مسعود ، ولم تكن ضد السلطان مباشرة بل كانت ضد بعض الأمراء السلاجقة . فان السلطان مسعودا بعد أن قتل بوزابة استدعى محمد ابن أخيه محمود الذى كان يرافق بوزابة وعطف عليه وزوجه من ابنته ، كما ملكه خوزستان وبذلك أصلح حاله وجمع له بعض أسباب النفوذ ، ولكن بعد ذلك تسلط جماعة من الأمراء على هذا الأمير ورغبوه فى الخروج على السلطان وأقنعوه بالسير معهم لحصار بغداد فسار معهم هو وأخوه ملكشاه بن محمود وحاصر الجميع بغداد سنة ٥٤٣ هـ وقتلوا من أهلها زهاء خمسمائة

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ، ص ١١ ــ ٢٨ .

Muir, The Caliphate, p. 580.

Account of a rare Manuscript History of the Seljuks, p. 58.

نفس ، وأبوا أن يرفعوا الحصار الا بعد أن يدفع لهم الخليفة ثلاثين ألف دينار • وقد وقف الخليفة المقتفى أمام هذا الخطر موقف البطولة اذ استشار رجاله فوافقوا على دفع المبلغ للأمراء ، ثم آخذ رأى يحيى بن محمد بن هبيرة وكان يومئذ صاحب الديوان فنصحه بأن يستخدم هذا المبلغ فى اعداد جيش لدفع خطرهم ، وفضل الخليفة رأى ابن هبيرة ونجح فى دفع هذا الخطر، وكان فى عمله هذا ارضاءالسلطان مسعود كما كان فيه فرصة حسنة ساعدت على جمع جيش قوى كان سند الخليفة فى مراحل جهاده المقبلة (١) •

وقد حدث بعد ذلك أن مات السلطان مسعود سنة ٥٤٦ هـ وولى السلطنة ملكشاه بن محمود الذى اشتغل باللهو والخمر وترك الأمر لخاصبك بن بلنكرى ، ثم تبع هذا خلع خاصبك لملكشاه واستدعاؤه لأخيه محمد بن محمود وجعله سلطانه (٢)، فبدأت بذلك المرحلة الثانية من مراحل النزاع بين الخليفةالمقتفى والسلاجقة ، ولم يكن محمد بن محمود فى هذه المرة هو المعتدى ، بل ان الخليفة ووزيره ابن هبيرة طردا نائبه من بغداد وآخذا يبسطان نفوذ الخلافة فى العراق ويقطعان آجزاءه لعمال الخلافة ، كما أنهما بعد ذلك حين لجأ اليهما سليمان بن محمد بن ملكشاه آمناه وأرسلا معه جيشا تقابل مع جيش السلطان محمد بن محمود ولم يعد الى بغداد الا بعد أن تقاعس سليمان عن السير • وقد كان ذلك

(١) ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٦٠ و ٦٦ •
والبندارى ـ زبدة النصرة ونخبة العصرة ، ص ١٢٣ •
(٢) ابن الأثير ج ١١ ، ص ٧٢ ـ ٧٣ •

سببا فى نجاح الأمراء فى اقناع السلطان محمد بن محمــود بمهاجمة بغداد ، فسار لهذا الغرض سنة ٥٥١هـ وحاصرها وانتهى أمره بالفشل والعودة من حيث أتى ، وكان فى ذلك نهاية عهد النفوذ السلجوقي في العراق (١) .

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ .
وابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ ـ ٩٦ .
وأبو الفدا ، ج ٣ ، ص ٣٢ .
Muir, The Caliphate, its Rise, Decline & Fall, p. 580. و
Account of a rare Manuscript History of the Seljuks. p. 67.

الفصــل الثــانى

أيام العباسيين الأخيرة فى العراق

١ ــ الحــالة الداخليــة

بعد آن تمكن المقتفى لأمر الله من صد السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى عن بغداد سنة ٥٥١هـ، حكم مستقلا فى العراق حتى سنة ٥٥٥ هـ • وبعــد مــوته ارتقى عرش الخــلافة المســتنجد (٥٥٥ ــ ٥٦٦ هـ) ثــم المستضىء (٥٦٦ ــ ٥٧٥ هـ) ثم الناصر (٥٧٥ ــ ٦٢٢ هـ) ثم الظاهر (٦٢٢ ــ ٦٢٣هـ) ثم المستنصر (٦٢٣ ــ ٦٤١هـ)، وقد تمكنوا جميعا من الاحتفاظ باستقلال العراق أكثر من مائة سنة ، ولكن أيامهم لم تكن أيام يسر وطمأنينــة للعراق بل كانت على العكس أيام فقر واضطراب ، كما أن الخلل والضعف لم يكن مقصورا على ناحية واحدة من نواحى الحياة بل شملها جميعا (١) •

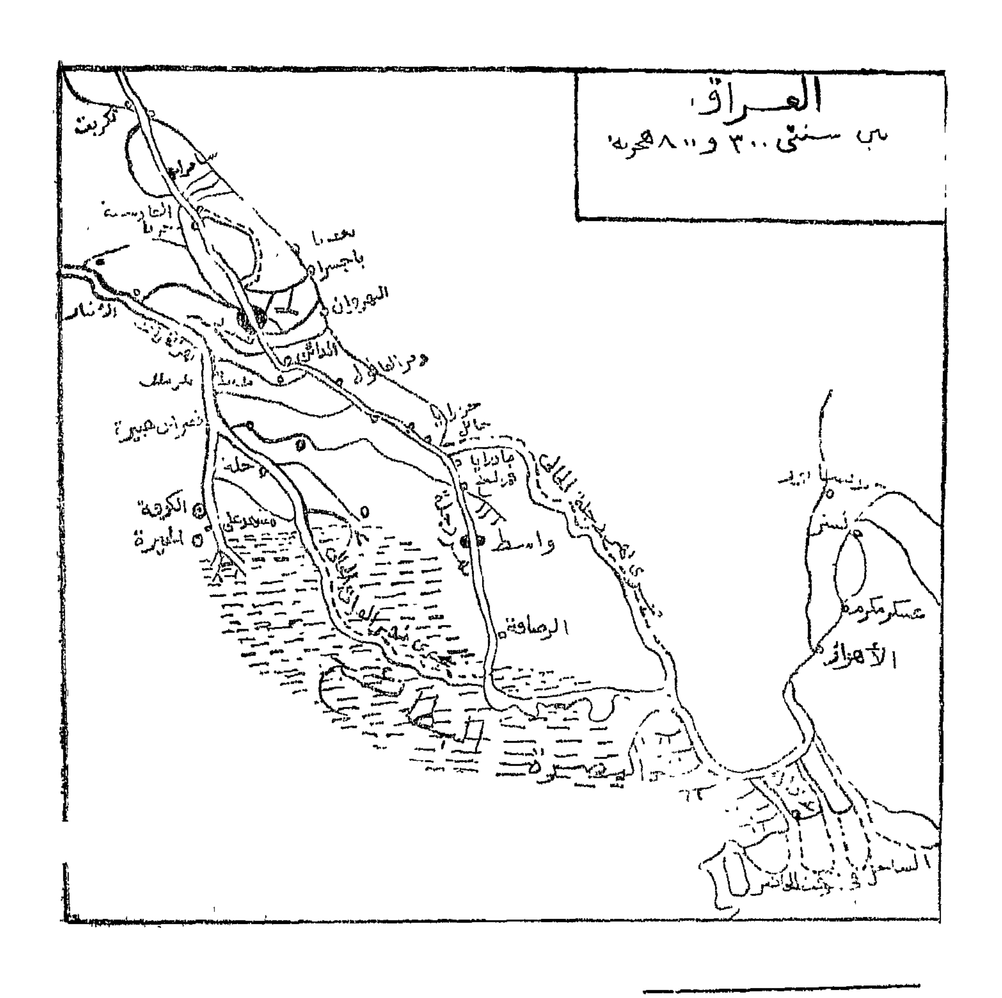
(أ) الناحيــة السياســية

كان معظم خلفاء هذه الفترة ضــعاف الشــخصية ليس لديهم دراية بشئون الحــكم • وقد مدح مؤرخــو العرب أكثر

---

(١) جاء فى مجموعة كمبردج للقرون الوسطى ج ٤ ص ٢٧٨ ان أمــلاك الخــلافة العباسية فى أيام الخليفة الناصر أعظم خلفاء هذه الفترة كانت تمتد من تكريت حتى رأس الخليج الفارسى • (انظر الخريطة المقابلة)

من واحد من بينهم ؛ ولكنهم لم يزيدوا عن القول بتقواهم وورعهم ولم يذكروا أعمالا لهم تستحق الذكر . كما أن مستر لبرخت في الفصل الذى كتبه تذييلا للجزء الثانى من ترجمة آشر لرحلة بنيامين التطيلى(١) شبه الخليفة العباسى فى الفترة التى أعقبت حكم الراضى وامتدت حتى المستعصم بالمنتخب الأعظم Great Elector فى مشروع سييس الذى وضعه فى سنة



(١) Asher (Trans.) Itinerary of Rabbi Benjamin if Tudela, Vol. II, p. 347.

١٧٩٩ (١) احدى سنى الثورة الفرنسية ولم ينفذ • فقد كان هـذا المنتخب طبقا لهـذا المشروع يشترك مع قنصلين هما المسئولان عن أعمال الحكومة ، بينما هـو يقيم فى القصر (الملكى) فى فرساى تحت حراسة ثلاثة آلاف من الرجال ويتقاضى ستة ملايين من الفرنكات كل عام • وقد ذكر مستر لبرخت أيضا أن كثيرين من هؤلاء الخلفاء لم يزد الواحد منهم عن أن يكون مثل هذا الشبح الأجوف •

أما بنيامين التطيلى ، فقد امدنا بوصف شامل لحيـاة الخليفة العباسى وأفراد أسرته وذلك عندما زار بغداد فى ايام المستنجد ونقله عنه أسبورن فى كتابه «الاسلام فى عهد خلفاء بغداد» وها نحن نسوقه فى هذا المقام(٢) : «يبلغ اتساع قصر الخليفة فى بغداد ثلاثة اميال • وتوجد فى هذا القصر حديقة واسعة بها كل أنواع الشجر سواء منـه النـافع أو المستعمل للزينة وكل أنواع الوحوش ، كما توجد به أيضا بركة يمتد اليها الماء من نهر دجلة • وفى أى وقت يحس الخليفة برغبته فى المتعة والتريض تجهز له الطيور والوحوش والأسماك • وهذا العباسى العظيم يعطف على اليهود ويتخذ من بينهم كثيرا من عماله، كما يفهم كل اللغات ويعلم القانون الموسوى علما تاما ويقرأ اللغة العبرية ويكتبها ، ولا يطيب له الا ما يحصل عليه بكد يده ؛ ولذلك يصنع الأغطية ويسمها بخاتمه ثم يبيعها عماله فى السوق العامة للأغنياء ويقتنى بثمنها الأشياء التى

(١) جاء فى كتاب A General History of Europe, By Thatcher & Schwill, Vol. II, pp. 470-573.
ان نابليون بعد أن عاد من مصر فى اكتوبر سنة ١٧٩٩ قضى على حكومة الادارة ثم وضع هو واخوانه دستور القنصلية وكان هذا الدستور من وضع سييس (Sieyes) .

(٢) Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, pp. 305-312.

تلزمه • والخليفة رجل فاضل موثوق به طيب القلب لا يضمر شرا لأحد ، ولكنه يحتجب عادة عن المسلمين ، ويحب الحجاج الذين يفدون من الاقطار البعيدة عند مرورهم ببغداد فى طريقهم الى مكة أن يحظوا برؤيته فينادونه : سيدنا يا نور المسلمين ومجد الدين أرنا نور وجهك ، ولكنه لا يعير كلماتهم اهتماما • وبعد أن يتقدم عماله ويقولون له أيها السيد اشمل هؤلاء الناس بسلامك لأنهم أتوا من بلاد بعيدة ويحبون ان يأووا الى ظل عظمتك ، يقوم ويضع أطراف ردائه خارج الشباك فيلثمها الحجاج بشغف ثم يقول لهم أحد الكبراء انصرفوا سالمين فسيدنا نور المسلمين مغتبط كل الاغتباط ويبارككم • ولما كانوا يعتبرون هذا الأمير ممثلا نبيهم ، فانهم يسيرون فى طريقهم يملؤهم الفرح لتلك الكلمات التى وجهها اليهم هذا الكبير ناقلا رسالة السلام • ومن عادة كل اخوة الخليفة وأفراد أسرته أن يلثموا ملابسه ، كما أن كل واحد منهم يملك قصرا داخل قصر الخليفة ؛ ولكنهم جميعا مقيدون بسلاسل من حديد ويقوم ضابط على كل مسكن ليحول دون ثورتهم ضد الرئيس الأعظم • وقد اتخذ الخليفة هذه الاحتياطات بعد أن ثار اخوته عليه واختاروا واحدا من بينهم بدلا منه ، فلكى يمنع حدوث مثل هذا فى المستقبل قرر أن يقيد كل أعضاء أسرته بالسلاسل حتى يكبت ميولهم الثورية • ومع ذلك ، فان كل واحد منهم يقيم فى قصره معززا كما أنهم يملكون القرى والمدن ويجمع مديرو شئونهم ايجارها كما يأكلون ويشربون ويعيشون حياة كلها لهو • ويحوى قصر الخليفة مبانى وأعمدة من الذهب والفضة وكنوزا من الأحجار الكريمة • ويترك الخليفة قصره مرة كل سنة وذلك فى وقت العيد المسمى رمضان (كذا) ؛ فيجتمع زوار كثيرون من الجهات البعيدة

ليحظوا برؤية وجهه ، بينما يعلو صهوة بغلة مرتديا الملابس الرسمية المصنوعة من نسيج الذهب والفضة وواضعا عمامة مزينة بأحجار كريمة لا تقوم بمال فوقها قناع اسود كأنه رمز التواضع(كذا)، فكأنه يقول انظروا الى هذه العظمة الدنيوية ستصير الى الظلام يوم الممات ، وتحف به حاشية كبيرة العدد من الأشراف يلبسون الملابس الفخمة ويركبون الخيول والأمراء الذين جاءوا من بلاد العرب وميديا وفارس بل ومن بلاد التبت التى تبعد ثلاثة شهور عن بلاد العرب • ويتقدم هذا الموكب من القصر الى المسجد الواقع عند باب البصرة وهو المسجد الجامع وهؤلاء جميعا الذين يسيرون فى موكب الخليفة ، سواء اكانوا من الرجال أم النساء يلبسون الحرير • أما فى الطرق والميادين فيكون الغناء والطرب وترقص الجماعات أمام الأمير العظيم الذى يسمى خليفة ، وتحييه يقولها : « باركك الله يا سيدنا ومليكنا » ، بينما هو يرد تحيتها بلثم رداثه ولمسه بيده • ثم يسير الموكب الى ساحة المسجد ويعتلى الخليفة منبرا خشبيا ويشرح للناس قوانينهم • وينهض العلماء المسلمون ويصلون من أجله (كذا) ، ويطرون عطفه العظيم ورحمته ويجيبهم المجتمعون بقولهم : آمين • وبعد ذلك يباركهم الخليفة ويذبح جملا معدا لهذا الغرض وهو بمثابة قربان يوزع على الأشراف الذين يرسلون اجزاء منه الى أصدقائهم الذين يشتهون أن يذوقوا اللحم الذى ذبحه أميرهم المقدس •• ثم يترك المسجد ويعود وحده الى قصره على شواطىء دجلة يصحبه الأشراف فى قوارب حتى يدخله • ولا يعود الخليفة من الطريق الذى أتى منه أبدا ، كما أن السبيل الذى سلكه على شاطىء النهر يوضع تحت الحراسة الدقيقة طول العام حتى

لا يسلكه غيره · ولا يترك الخليفة قصره مرة أخرى طول العام » ·

ولا شك أن هذا الوصف على الرغم مما تخلله من الأخطاء بسبب جهل بنيامين التطيلي بتعاليم الدين الاسلامى يرينا كيف كان الخلفاء العباسيون فى ذلك الوقت يقضون حياتهم فى اللهو واللعب ، كما يرينا تمسكهم بأهداب الرفعة وميلهم الى الظهور أمام الناس بمظهر القدسية ، وأنهم كانوا يقضون حياتهم خائفين على مراكزهم أن ينتزعها منهم أحد أفراد أسرتهم فيصبحون بعيدين عن الناس وعن ادارة شئون الدولة ·

والواقع أن هؤلاء الخلفاء جميعا كانوا ضعافا ولم يستفد العراق من حكمهم كثيرا أو قليلا ، بل ان حكمهم جر عليه الويل · واذا كان الناصر قد شذ عنهم بشخصيته القوية ومطامعه الكبيرة ونشاطه الجم وميله الى العمل ، فانه لم يكن لأعماله من الأثر ما يختلف عما كان لأعمال الآخرين من آثار ، بل ان أيامه لتعد من أسوأ الأيام فى العراق وذلك لأن قوته كان يشوبها الظلم والتجبر فكان يثقل كاهل الناس بالضرائب والمكوس (١) كما كان يشوبها الغرور وليس أدل على ذلك من العلم بأنه أراد أن يحيط نفسه بهالة من السمو فابتعد عن الناس كما ادعى العلم بالغيب · وان المؤرخين ليذكرون لنا كثيرا من أخبار ادعاءاته ، فمن ذلك ما ذكره السيوطى (٢) « من أن رسول صاحب مازندران دخل بغداد وكانت تأتيه ورقة كل صباح بما عمل فى الليل ··· فخرج من بغداد وهو لا يشك أن الخليفة يعلم الغيب » ، وكذلك

(١) السيوطى ــ تاريخ الخلفاء ، ص ١٨١ ·

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٠ ·

ما ذكره من آن « رسول خوارزمشاه اتى بغداد برسالة مخفية (يقصد سرية) وكتاب مختوم ، فقيل له : ارجع فقد عرفنا ما جئت به» ، وايضا من ذكره من ان «رجلا اتى بببغاء تقرأ قل هو الله أحد تحفة للخليفة من الهند فاصبحت ميته ، واصبح حيران (كذا) فجاءه فراش يطلب منه الببغاء فبكى وقال : الليلة ماتت ، فقال : قد عرفنا هاتها ميتة • وقال : كم كان ظنك أن يعطيك الخليفة ؟ قال : خمسمائة دينار • قال : هذه خمسمائة دينار خذها فقد أرسلها اليك الخليفة فانه أعلم بحالك منذ خرجت من الهند » •

ونحن لا نكاد نجد لأى واحد من خلفاء هذه الفترة يدا فى ادارة شئون البلاد ؛ لأنهم كانوا يعيشون فى قصورهم الواسعة ولا يظهرون للناس الا نادرا • وقد كانت الحكومة فى زمنهم فى أيدى غلمان القصر وعلى رأسهم استاذ دار الخليفة يحركها كيف يشاء • وتمتاز هذه الفترة على وجه العموم وبغير استثناء بازدياد سلطة أساتذة الدار • ففى أولها تمكن عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء أستاذ دار المستنجد من تدبير مؤامرة ذهب الخليفة ضحيتها وذلك حين خاف بطشه ، هذا الى أنه بعد ذلك أحضر ابن الخليفة المقتول ووضعه على عرش الخلافة ولقبه المستضيء وذلك بعد أن اشترط عليه شروطا قبلها(١)، فكأنه تمكن من التخلص من خليفة ووضع آخر مكانه ثم وضع لمن أجلسه على العرش السياسة التى يسير عليها ، وليس بعد هذه السلطة آمل لمؤمل •

وفى أيام الناصر كان نفوذ أستاذ الدار لا يزال كبيرا أيضا؛ بدليل ماذكره ابن جبير فى كتابه(٢) بعد زيارته لبغداد

(١) الفخرى ، ص ٢٣٣ •

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٥ •

سنة ٥٨٠ هـ ، حيث قال ان أستاذ الدار قيم على جميع الديار العباسية وأمين على كافة الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلاقية ، وكان يدعى له اثر الدعاء للخليفة • وقد بلغ من ازدياد سلطة أساتذة الدار أن طغوا على الوزراء فلم نعد نسمع عنهم شيئا • ونحن لا نكاد نرى بعد ابن هبيرة وزير المقتفى والمستنجد وزيرا واسع السلطان مسموع الكلمة • وقد ذكر ابن جبير فى رحلته (١) آنه وجد فى بغداد نائب وزارة ولم يقل انه وجد وزيرا ، وفى هذا ما يكفى للدلالة على أن الوزير وان كان موجودا الا انه كان لا يكاد يحس بوجوده انسان •

وكان من آثر ضعف الخلفاء فى هذه الفترة وتقلص سلطة الوزراء آمام تيار غلمان القصر وأساتذة الدار الجارف ، ان اعتلت الادارة فى العراق وبدآ العامة يحسون بضعف الحكومة وعجزها عن تسيير دفة البلاد ، ولذلك نجدهم يستهترون بها فتعم الفتن وتكثر الاضطرابات فيما بينهم • واننا لنعجب حين يذكر لنا ابن الأثير (٢) عند كلامه على سنة ٦٠١ هـ آن ثلاث فتن وقعت فى بغداد فيما لا يتجاوز الشهر بين آهالى المحلات المختلفة ، ثم لا يلبث عجبنا أن ينقلب الى دهشة حين يذكر لنا آن السبب فى وقوع اثنتين منها هو أن أهل محلة من المحلات قتلوا سبعا وأرادوا أن يمروا فى المحلة الآخرى فاشتبك بهم أهلها ، وأن الفتنة الثالثة كان السبب فيها أن رجلين من محلتين مختلفتين اختصما وتوعد كل منهما صاحبه فاجتمع أهل المحلتين واقتتلوا • والأدهى من ذلك وأمر هو ما ذكره من آن حكومة الخلفاء كانت تتدخل

(١) المصدر نفسه •
(٢) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ٩٤ •

فى كل هذه الفتن ، فأحيانا تطفئها بعد أن يناوئها الأهلون وأحيانا تتركها حتى تسكن من تلقاء نفسها ٠

(ب) الناحية الحربية

لم تكن الناحية الحربية خيرا من الناحية السياسية ، فقد اخذ جيش الخلفاء العباسيين يفقد شهرته منذ تسرب الضعف الى جسم الدولة العباسية ، وكانت أيام بنى بويه والسلاجقة فى بغداد أيام انحطاط ان لم تكن أيام زوال لهذا الجيش ، لأنه لم يكن من مصلحة هؤلاء الأجانب بقاء جيش يناوئهم النفوذ وقد يطردهم فى يوم من الأيام حين يجد فى نفسه القدرة على التغلب عليهم ٠

وعلى الرغم من أن هذا الجيش بدأ يزداد عددا وعدة منذ أيام الخليفة المقتضى لأمر الله (١) ؛ فانه لم يبلغ الدرجة التى كان عليها فى أيام العباسيين الأول، ولم يزد عن أن يكون قوة ثانوية ليس فى إمكانها أن تلعب دورا مهما فى الحوادث الجسام ٠ حقيقة أن خلفاء تلك الفترة استعملوا هذا الجيش فى أمور عدة ، فالمقتفى لأمر الله تمكن بوساطته من صد محمد ابن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى عن بغداد سنة ٥٥١ هـ (٢) وحقق بذلك استقلال العراق وخلص الخلافة العباسية من سيطرة الأجانب بعد أن ظلت خاضعة لهم نحو أربعة قرون ، وان المستنجد تمكن بوساطته من القضاء على بنى أسد أصحاب الحلة المزيدية حين رآهم يعيثون فى بلاده فسادا(٣) ٠ الا أن هذه الأعمال كانت ثانوية أيضا ، فقد كان

---

(١) ابن الاثير ج ١١ ص ٧٢ وما يليها

(٢) ابن الاثير ج ١١ ص ٩٥ ــ ٩٦ ٠

(٣) أبو الفدا ــ المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٤٣

Ritchard Coke, Baghdad the City of Peace, p. 429.

السلاجقة حين صدهم المقتفي لأمر الله قد وصلوا الى أشد درجات الضعف ، هذا ونحن نعلم أن جيوش السلاجقة هزمت جيوش الخلافة بعد ذلك في أيام الخليفة الناصر ، اذ ان هذا الخليفة عندما رأى ازدياد نفوذ طغرل بن أرسلانشاه بن طغرل جهز عسكرا كثيفا سنة ٤٨٥ هـ وجعل المقدم عليهم وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس ثم سيرهم لمحاربته ولكنه هزمهم قرب همذان(١)، كما أن بني أسد الذين انتصر عليهم الجيش العباسي في أيام المستنجد لم يزد أمرهم عن أن يكونوا قبائل بدوية لا يربطها نظام ولا يجمعها حكم .

ويثبت لدينا أن هذا الجيش كان قوة ثانوية لا أكثر ولا أقل حين نراه في أيام الخليفة الناصر يظهر العجز والقصور أمام جيوش محمد خوارزمشاه ، فقد ارسله بقيادة وزيره ابن القصاب الى خوزستان فاستولى عليها ثم استولى على بعض مدن في فارس ، ولكنه حين وصلت جيوش محمد خوارزمشاه انسحب منها وولى الادبار (٢) ؛ ولذلك كان الناصر يتحاشى ملاقاة جيوش محمد خوارزمشاه بعد ذلك . ويضاف الى ذلك أن الخليفة المستنصر كان يلجأ الى الأمراء المسلمين بطلب معونتهم حين تهاجم حدود بلاده جيوش التتار . واننا لنعلم أن الأيوبيين كانوا يرسلون اليه فرقا من جيوشهم ، كما كانوا يستخدمون له جندا مرتزقة (٣) ولا يمكن أن يحدث ذلك الا لأن الخليفة كان يؤمن بضعف جيشه أمام تلك الغارات القوية من تلك الجيوش العظيمة .

---

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ١٢ وأبو الفدا ، ج ٣ ، ص ٨٠ .
(٢) أبو الفدا ، ج ٣ ، ص ٩٥ .
(٣) المقريزي ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .

(ج) الناحية الطائفية

كان خلفاء تلك الفترة كغيرهم من الخلفاء العباسيين يعتنقون المذهب السنى ؛ وبذلك نجدهم يتخذون الوزراء والقضاة وكبار رجال الدولة من طائفة اهل السنة . هذا الى أنهم كانوا ينشئون لهم المدارس والربط والمارستانات والمساجد ، وقد ذكروا ان مدارسهم فى بغداد بلغت الثلاثين فى ايام الناصر (١) . ولم يقتصر الامر على هذا بل ان الخلفاء كانوا يحضرون مجالس الوعظ التى جرى هؤلاء على اقامتها فى ذلك الوقت ، ويذكر ابن جبير (٢) أن الخليفة الناصر جعل الشيخ جمال الدين أبا الفضائل ابن على الجوزى ، أحد علمائهم ، يقيم مجلسه فى ساحة قصر الخليفة ومناظره مشرفة عليه حتى يسمعه ، وكان يفرش هذا المكان بالحصر ليحضره العامة .

اما الشيعة فانهم وان لم يكونوا فى ذلك الوقت موضع استبداد أو ظلم من الخلفاء ؛ الا أنهم كانوا فى مكانة أدنى من مكانة أهل السنة ، ولم يكن الخلفاء يتخذون منهم وزراء أو أعوانا، وقد حدث أن الخليفة الناصر ـ وكان يتشيع (٣) ـ اتخذ رجلا من الشيعة هو نصير الدين العلوى سنة ٦٠٤ هـ بعد ابن القصاب وزيرا له فغضب أهل السنة وكثرت أقوالهم فيه حتى اضطر الى عزله ، ومن أقوالهم هذه الأبيات (٤) :

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠١ .

(٣) أبو الفدا ، ج ٤ ، ص ١١٩ .

(٤) ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٢٩ .

ألا مبلــغ عنى الخليفة أحمدا
توق وقيت السوء ما أنت صانع

وزيرك هــذا بين أمــرين فيهما
فعــالك يا خير البرية ضــائع

فان كان حقا من سلالة أحمــد
فهذا وزير فى الخــلافة طامــع

وان كان فيما يدعى غير صــادق
فأضــيع ما كانت لديه الصــــنائع

وقد كان لسياسة الخلفاء هــذه ازاء الطائفتين اثرها السيىء ، لأن الشيعة أصبحوا يكرهون أهل السنة ويحقدون عليهم تمتعهم بالمراكز العليا دونهم وقربهم من الخلفاء ، ولذلك كانت المعارك كثيرا ما تقــوم بين الفريقين فيقــوض النظام ويضطرب الأمن ·

وكان للمسيحيين فى بغداد مركز ثابت ، كما كان الخلفاء العباسيون يعاملونهم معــاملة حسنة · وقد سمحوا لبطريق النسطوريين منهم بالاقامة فى بغداد ، كما سمحوا لهم جميعا باقامة الكنائس والاديرة ومزاولة طقوسهم الدينية · وكان للمسيحيين فى بغداد الغربية أديرة كثيرة ، منها دير العذارى فى حى الكرخ ودير درتا وهو يحاذى باب الشماسية راكبــا على دجلة ودير القباب شمال حى الزبيــدية ودير أشــمونى وهو بقطربل شمال المدينة المســتديرة ودير مديان أو دير سرجيوس على قناة الكرخ ودير الثعالب بقرب قبر معــروف الكرخى ودير الجاثليق بقرب دير الثعالب · وكانت توجــد

فى بغداد الشرقية كنيستان احداهما للنسطوريين والأخرى لليعقوبيين . وكان للنسطوريين أيضا دير الروم ويحيط به حى النصارى الذى كان يقع الى الشمال من قناة المهدى عندما تسير غربا لتلتقى بقناة السور فى حى الشماسية ، كما أن لهم ديرين خارج باب الشماسية ، هما دير درمالس ودير سمالو وشمالها دير سابر ودير مارجرجس . أما فى بغدادالجديدة ، فكان لهم دير الرندورد بقرب باب الازج . وعندما كتب ياقوت كتابه البلدان ، كان كثير من هذه الأديرة قد تهدم وأصبح أماكن نزهة يذهب اليها أهل بغداد لقضاء أعيادهم . على أن المسيحيين مع ذلك كانوا لا يزالون يحتفظون بمركزهم القديم فى بغداد ، واذا كانت بعض مبانيهم قد تهدمت فى أثناء المنازعات التى كانت تقوم بين أهل السنة والشيعة فقد تهدم أيضا من جراء هذه المنازعات كثير من مساجد المسلمين . ولا شك أن المسيحيين لم يلاقوا من الخلفاء العباسيين الا كل عطف (١) .

ولم تكن حالة اليهود فى تلك الفترة من حياة الخلافة العباسية تختلف عن حالة المسيحيين من حيث الحرية والطمأنينة ، فقد كان عددهم فى بغداد يبلغ الألف نفس عندما زارها بنيامين التطيلى فى أيام المستنجد ، كما كانوا يتمتعون بسلام وراحة وجاه عظيم ، وكانت لهم مدارس لدراسة القانون الموسوى بلغت العشرة ، وكان لهم رئيس يسمونه أمير الأسر ويسميه المسلمون حفيد داود النبيل تحت سلطته كل الجمعيات اليهودية ويتمتع بدخل واسع ، وكان الخلفاء العباسيون يقربون اليهود ويأمرون الناس ، سواء منهم

---

(١) ياقوت ــ معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١١٩ ــ ١٨٥ .
Le Strange Baghdad During the Abbassid Caliphate, pp. 208-212.

المسلمون أو المسيحيون باحترام رئيسهم والقيام فى حضرته · وكان لليهود ثمانية وعشرون معبدا بعضها فى بغداد الشرقية والبعض الآخر فى الكرخ · وكانت هذه المعابد فخمة بها أعمدة الرخام ونقوش الذهب ؛ وذلك لأن اليهود فى بغداد كانوا أغنياء يملكون البساتين والعقارات ويشتغلون بالتجارة (١) ·

(د) الناحية العمرانية

العراق قطر زراعى والعمل الأساسى الذى يقوم به أهله هو الزراعة وأهم ما تحتاج اليه الزراعة هو الاهتمام بمشروعات الرى اهتماما يكفل للزراع الحصول على الماء حين يحتاجون اليه · ولما كان الخلفاء العباسيون بعد أن استقلوا بشئون العراق ساروا على شاكلة السلاجقة وأهملوا مشروعات الرى اهمالا جعل الحصول على الماء اللازم للزراعة فى حينه متعذرا ، كما جعل المزروعات عرضة لفيضانات الأنهار فى كثير من الأحيان ــ فقد صار أهل العراق فى هذه الفترة فى أسوأ حال (٢) ·

وزاد من سوء حال أهل العراق فى ذلك الوقت ما اشتهر به الخلفاء من حب للمال وعملهم على جمعه · فانهم لم ينسوا أن يثقلوا كاهل الناس بالمكوس والضرائب ، وقد ذكروا أن المستنجد (٥٥٥ ــ ٥٦٦ هـ) حل المقاطعات وأعادها الى الخراج(٣) ، كما ذكروا أن الناصر (٥٧٥ ــ ٦٢٢هـ) كان سيىء السيرة خربت فى أيامه العراق مما أحدثه من الرسوم

---

(١) Asher (trans.) Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, pp. 100-104.

(٢) Coke, Baghdad the City of Peace, p. 125.

(٣) الفخرى ، ص ٢٣٢ ·

وما اغتصبه من الأموال والأملاك (١) ، وأن الخراج فى أيامه أصبح كبيرا جدا لدرجة ان يعقوبا (٢) التى كان يحصل منها قبل زمنه عشرة آلاف دينار ، أصبح يؤخذ منها فى أيامه ثمانين ألفا (٣) .

وكما أن الخلفاء اهملوا الزراعة والرى فقد اهملوا التجارة وكان جشعهم سببا فى كسادها ، وليس أدل على ذلك مما ذكره السيوطى حين قال ان فقيها خرج من سمرقند فى أيام الخليفة الناصر يقصد الحج على فرس جميلة فقال له أهله لو تركتها عندنا لئلا تؤخذ منك فى بغداد (٤) ، فان جشع الخليفة الذى صار مضرب الامثال وأصبح الناس يتقونه لدرجة أنهم يخافون على فرس يركبها رجل يقصد الحج ، لابد أخاف التجار وأزعجهم وجعلهم لا يقدمون الى العراق .

ولم يعن الخلفاء باقامة المبانى وتشييد القصور كما كان من سبقهم فى أيام السلاجقة ؛ وذلك لأن ظهور الدولة الخوارزمية أولا ثم ظهور الخطر المغولى بعد ذلك استغرق معظم جهودهم ، ولذلك فاننا لا نكاد نعثر فى هذه الفترة على مبان تستحق الذكر اللهم الا المدرسة المستنصرية التى أسسها الخليفة المستنصر (٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ = ١٢٢٦ ـ ١٢٤٢ م) وعلى العموم ، فقد كانت هذه الفترة فترة تأخر للزراعة وكساد للتجارة وتأخر لفن العمارة .

---

(١) السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ، ص ١٨١ .

(٢) بعقوبا بالفتح ثم السكون وضم القاف وسكون الواو والباء موحدة ويقال لها باعقوبا أيضا قرية كبيرة كالمدينة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من أعمال طريق خراسان ، راجع اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٤ خ ص ٣١١ .

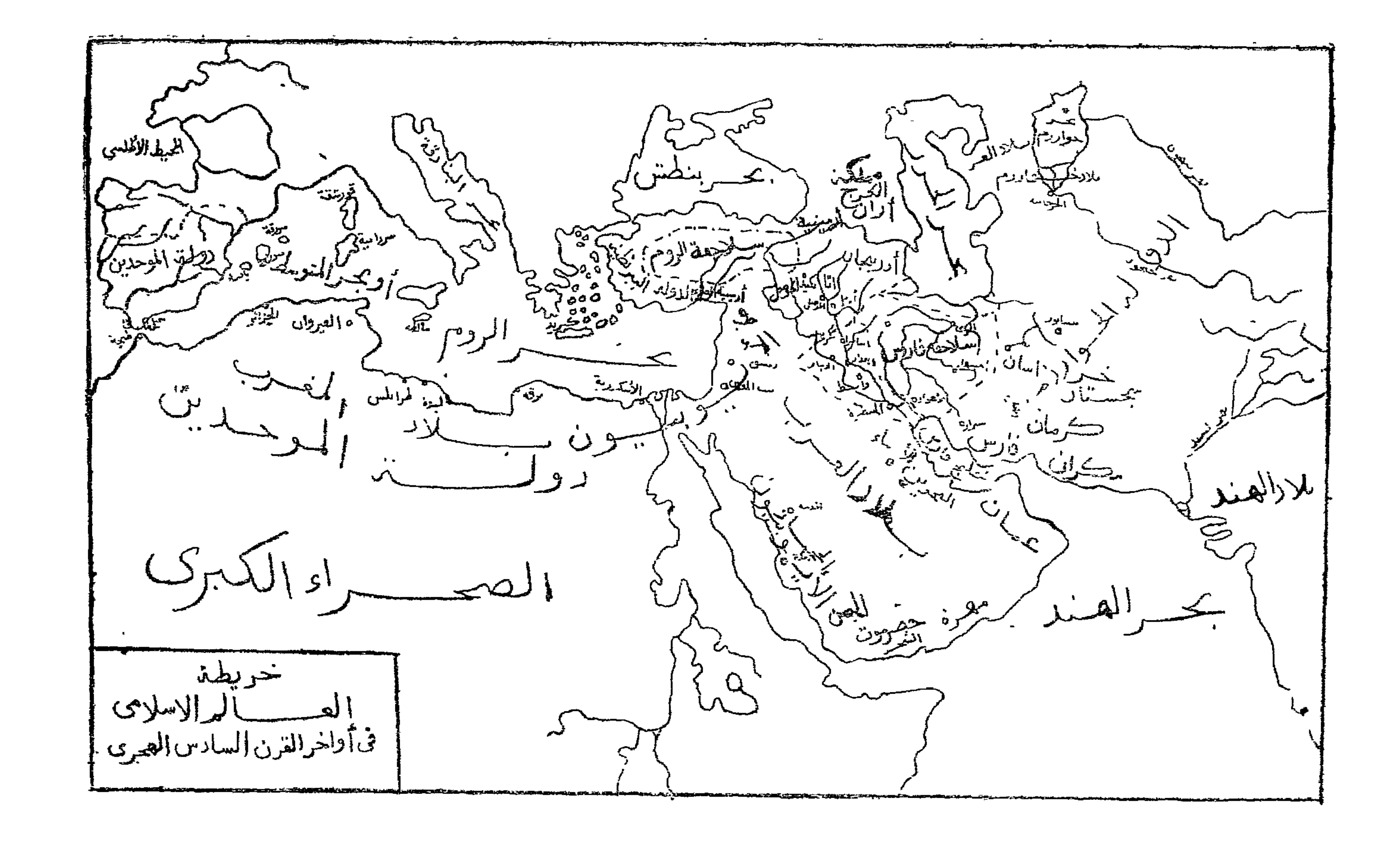
(٤) السيوطى ـ تاريخ الخلفاء . ص ١٨٠ .

٢ ـ الحالة الخارجيـة

كانت حالة الخلافة العباسيه الخارجية فى هذه الفترة على العكس مما قد يتوقعه البعض ـ أحسن من حالتها الداخلية ٠ فقد كانت الخلافة لا يزال لها فى العـالم الاسـلامى مركز ممتاز وكان الخلفاء لا يزالون يتمتعون باحترام عظيم من المسلمين ، وليس أدل على ذلك مما ذكره الذهبى فى مخطوطه عند كلامه على سنة ٦٢٢هـ فقد قال ان الملك المعظم (يقصد الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل الذى حكم فى دمشق من سنة ٦١٥ الى سنة ٦٢٤ هـ) حين دعاه جـلال الدين خوارزمشاه لمحاربة الخليفة الناصر كتب اليه يقول : « انا معك على كل حال الا على الخليفة فانه امام المسلمين » ٠ هذا الى أن معظم خلفاء هذه الفترة كانـوا يسـيرون الخلع والتقاليد الى الأيوبيين فى مصر والشام ومكة وأحيـانا الى فارس وخراسان وخوارزم وما وراء النهر ٠ عـلى أنه يجب علينا اذا أردنا أن نستوفى الكلام على الحالة الخارجية أن نتكلم على الدول الاسلامية فى ذلك الوقت ثم على علاقة هذه الدول بالخلافة العباسية ٠

(أ) العالم الاسلامى فى عهد استقلال الخلفاء (٥٥١ ـ ٦٤٠هـ)

١ ـ الدولة السلجوقية فى فارس : بعد أن تضعضعت الأسرة السلجوقية وفقدت نفوذها فى العراق سنة ٥٥١هـ على أثر فشل السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه فى التغلب على جيوش الخليفة العبـاسى المقتفى لأمر الله التى قامت بالدفاع عن بغداد ، لم يبق لها الا فارس ٠ وقد تمكن



خريطة
العالم الإسلامي
في أواخر القرن السادس الهجري
الصحراء الكبرى
دولة الموحدين
بلاد المغرب
بحر الروم
بحر بنطش
بحر الهند
بلاد الهند
سلاجقة الروم
أرمينية
أذربيجان
كرمان
فارس
عمان
اليمن
حضرموت
مهرة
المحيط الأطلسي
الأيوبيون

سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه عم محمد بن محمود المذكور من أن يصبح سنة ٥٥٤ هـ صاحب الأمر فيها واستقر فى همذان وذلك بعد أن تغلب على ملكشاه ابن أخيه محمود وعلى آرسلان شاه بن أخيه طغرل الأول وحكمها سنتين ؛ وخلفه على العرش أرسلان شاه ابن أخيه طغرل وظل فى الحكم الى أن مات سنة ٥٧٣هـ ، فخلفه ابنه طغرل الثانى الذى حكم سبع عشرة سنة فقد بعدها حياته وملكه ، حين هزمه تكش خوارزمشاه وقتله وضم أملاكه الى أملاك الدولة الخوارزمية سنة ٥٩٠ هـ (١) .

٢ ــ الدولة الخوارزمية : أما الدولة الخوارزمية ، فقد أسسها أحد مماليك السلطان ملكشاه السلجوقى واسمه أنشتجين Anusnügin حين جعله هذا السلطان العظيم حاكما على ولاية خوارزم سنة ٤٧٠ هـ . فقد خلفه ابنه قطب الدين محمد سنة ٤٩٠ هـ ثم حفيده أطسز Atsiz سنة ٥٢١ هـ الذى كان أول من أظهر استقلاله عن الدولة السلجوقية العظمى سنة ٥٣٣ هـ فى أيام السلطان سنجر الذى مد نفوذه حتى مدينة جند الواقعة على نهر سيحون ــ وكان من المصادفات أن مات أطسز فى سنة ٥٥١ هـ ــ ١١٥٦ م التى بدأ فيها عهد استقلال الخلفاء العباسيين وتخلصهم من نير السلاجقة ــ ثم تولى بعده أبناؤه وأحفاده حتى وصل الأمر الى تكش بن ايل أرسلان فضم الى أملاكه خراسان والرى واصبهان فيما بين سنتى ٥٨٩ و ٥٩٠ هـ (١١٩٣ و ١١٩٤م) . وبعد

(١) البندارى ، ص ٢٩٤ وابن الاثير ج ١٢ ، ص ٥٠١ وأبو الفدا ج ٣ ، ص ٩٤ .

و Muir, The Caliphate, p. 583.

و Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p. 154.

موته سنة ٥٩٦ ـ ١١٩٩ م تولى ابنه علاء الدين محمد فسار في الطريق الذى سلكه أبوه واستولى على كرمان ومكران وبلاد الجبل وفارس (١) . كما أخضع لنفوذه بخارى وسمرقند وغزا أملاك الخطا واستولى على عاصمتهم اترار . وفى سنة ٦١١ هـ ـ ١٢١٤م قضى على الدولة الغورية واستولى على غزنة . ولم يكن هذا هو كل ما فعله محمد خوارزمشاه ، بل انه فى سنة ٦٢٤ هـ ـ ١٢١٧ م اعتنق المبادىء الشيعية وعول على السير الى بغداد ولم ينقذها منه الا غضب الطبيعة على جيشه ونزول الثلج على جنوده . وقد تبع ذلك ظهور المغول فى شرق أملاك الدولة الخوارزمية ثم مهاجمتهم لها وفرار محمد خوارزمشاه أمامهم وموته حزنا على ضياع ممتلكاته سنة ٦١٧ هـ ثم قيام ابنه جلال الدين منكبرتى بعده بمحاربة المغول وانتهاء أمره بالهزيمة ثم الفرار والموت سنة ٦٢٨ هـ وزوال الدولة الخوارزمية من الوجود (٢) .

٣ ـ الاسماعيلية (الحشيشية) : أما الاسماعيلية فانهم كانوا من قوى العالم الاسلامى التى لا يستهان بها فى ذلك الوقت . وأول ظهورهم كان فى اصبهان على يد أحمد ابن عبد الملك بن عطاش ، وفى أيام تلميذه الحسن بن الصباح اتسع نفوذهم فاستولوا على الموت سنة ٤٨٣ هـ ـ ١٠٩٠م ثم نشروا نفوذهم على قلاع أخرى كثيرة فى بلاد

(١) مكران بالضم ثم السكون وراء وآخره نون أعجمية ، وهى ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى بين كرمان من غربيها وسجستان شماليها والبحر جنوبيها والهند فى شرقيها . راجع لفظ مكران فى معجم البلدان لياقوت .

(٢) أبو الفدا ـ ج ٣ ، ص ١٢٤ والكامل لابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ١٧٠ و ٢٣١ . و Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, pp. 176-177.

فارس من بينها زوزن وكردكوه . وظهر لهم بعد ذلك أتباع في الشام في عدة مراكز من بينها حلب في أيام أميرها رضوان ابن تتش ودمشق في أيام تاجي الملوك بوري . وقد ظهر رجل منهم يسمى بهرام قوى نفوذه وتمكن من الاستيلاء على بانياس وعلى سبع قلاع أخرى بين حماه وحمص وكاد يستولى على دمشق نفسها لولا أن أحس بوري بخطره . ثم تنقلت رئاسة الاسماعيلية بعد ذلك من واحد لآخر ؛ حتى صارت في أيام صلاح الدين الأيوبي الى أبي الحسن راشد الدين سنان المصري . واشترك الاسماعيلية في الشام في كثير من الحروب الصليبية ، كما أنهم حاولوا قتل صلاح الدين الأيوبي فحاصر قلاعهم سنة ٥٧٢ هـ ثم عفا عنهم . وقد مات رئيسهم سنان سنة ٥٨٨ هـ ولم يأتوا بعد ذلك بأمر ذي بال .

وقامت حكومة الاسماعيلية في ألموت بزعامة الحسن بن الصباح ، فلما مات سنة ٥١٨ هـ تناوب الزعامة سبعة سموا مشايخ الجبل في مدى قرنين من الزمان بسطت فيهما نفوذها على كثير من بلاد قوهستان وتمكنت من مقاومة السلاجقة ثم الخوارزميين . وقد كان هؤلاء الرؤساء جميعا بعيدين عن العمل بالشريعة الاسلامية ، فلما تولى الرئاسة جلال الدين بن حسن الكيا الصباحي أظهر التوبة في سنة ٥٥٧ هـ وبقي على ذلك الى سنة ٦٠٨ هـ فأظهر شعائر الاسلام وكتب الى جميع قلاع الاسماعيلية ببلاد العجم والشام فأقيمت فيها ، وبقي على ذلك حتى توفى سنة ٦١٨ هـ فقام من بعده ابنه علاء الدين محمد الذي عاد الى ما كان عليه أسلافه من

الالحاد ، ثم ولى بعده ابنه ركن الدين خورشاه بعد أن حرض حسن المازندرانى على قتل أبيه سنة ٥٦١٣ هـ (١) .

٤ ـ الدول الأيوبية : ومن أهم الدول الاسلامية فى تلك الفترة الدول الايوبية فى مصر والشام والجزيرة وبلاد العرب . فقد ذهب صلاح الدين الى مصر موفدا مع عمه أسد الدين شيركوه من قبل نور الدين ، ثم ما لبث بعد موت عمه أن صار حاكم مصر الحقيقى وذلك سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩م) على الرغم من أن الخليفة الفاطمى العاضد لم يمت الا بعد ذلك بثلاث سنين . وقد عمل بعد ذلك على نشر نفوذه فصار صاحب السلطان فى مكة والمدينة بل وفى اليمن حين أرسل آخاه توران شاه اليها سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م) فأسس بها حكومة أيوبية ظل يتولاها أفراد من بنى أيوب حتى سنة ٦٢٥ ـ ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) ، حين حلت محلهم أسرة بنى رسول . هذا الى أن صلاح الدين نشر نفوذه فى سورية على أثر موت نور الدين سنة ٥٦٩هـ (١١٧٢م) ، وأخضع الموصل وجعل أمراء بلاد الجزيرة أقياله (٥٨١ هـ = ١١٨٥ ـ ١١٨٦ م) وبذلك أصبح السيد المطلق فى الأراضى الممتدة بين الفرات والنيل اللهم الا معاقل الصليبيين ، ومع ذلك فقد قوضت موقعة حطين (يوليه سنة ١١٨٧ ـ ٥٨٣هـ) أركان مملكة بيت المقدس الصليبية (٢) .

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١١٦ و ١٢٠ ـ ١٢٢ والقلقشندى ـ صبح الأعشى ج ١ ، ص ١٢٠ ـ ١٢٢ .

و Browne, Account M. H., pp. 40-42.

و Browne, Lit. Hist. of persia, II, p. 453.

و Osborn, Islam under the caliphs, pp. 336-366.

و D'Ohsson. Hist. des Mongoles, III, pp. 164-187.

(٢) المقريزى ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ص ٤٣ ـ ٥٥ و ٧٧ ـ ١١٠ .

Lane-poole, The Muh. Dyn, pp. 74-75.

وبعد موت صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ انقسمت أملاكه بين اخوته وأولاده ، فكانت اليمن في يد أخيه طغطكين سيف الاسلام (٥٧٧ ــ ٥٩٣هـ) ، وآلت البلاد الجزرية الى أخيه العادل سيف الدين أبى بكر الصفدى ، وكانت حلب فى يد الظاهر غازى بن صلاح الدين ، ودمشق في يد صلاح الدين، ابن صلاح الدين، ومصر في يد العزيز عثمان بن صلاح الدين، بينما كانت حمص فى يد مجاهد شيركوه الثانى ، حفيد أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ، وكانت حماه فى يد منصور الأول محمد بن مظفر الأول تقى الدين عمر بن نور الدين شاهنشاه أخى صلاح الدين ، وكانت بعلبك فى يد بهرام شاه بن فروخ شاه داود بن نور الدين شاهنشاه المذكور (١) .

غير أن الأمور ما لبثت أن تغيرت ولم تجر فى طريقها العادى ، فاستولى العادل على دمشق من الأفضل سنة ٥٩٢ هـ ثم على مصر من منصور محمد بن العزيز سنة ٥٩٦ هـ وظل يحكم تلك الجهات حتى مات سنة ٥٦١ هـ ، وبعد موته ترك أولاده فحكموا فى مصر ودمشق وبلاد الجزيرة وأسسوا لهم بيوتا حاكمة فيها (٢) ، بينما لم ينجح من أبناء صلاح الدين سوى واحد فقط هو الظاهر غياث الدين غازى (٥٨٢ ــ

---

(١) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ص ٤٣ ــ ٥٥ و ٧٧ ــ ١١٠ و Lane-pool, The Muh. Dyn, p. 76.

(٢) حكم فى مصر الكامل (٦١٥ ــ ٦٣٥ هـ) ثم ابنه العادل الثانى سيف الدين أبو بكر (٦٣٥ ــ ٦٣٧ هـ) ثم ابنه الثانى نجم الدين أيوب (٦٣٧ ــ ٦٤٧ هـ) وحكم فى دمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى (٦١٥ ــ ٦٢٤ هـ) ثم ابنه الناصر صلاح الدين داود (٦٢٤ ــ ٦٢٦ هـ) ثم الصالح اسماعيل أخو الملك المعظم شرف الدين عيسى مرتين (٦٣٥ و ٦٣٧ ــ ٦٤٣ هـ) وحكم فى البلاد الجزرية عوض نجم الدين أيوب (٥٩٧ ــ ٦٠٧ هـ) ثم أخوه الأشرف مظفر الدين موسى (٦٠٧ ــ ٦٢٨ هـ) ثم أخوه الثانى المظفر غازى (٦٢٨ ــ ٦٤٣ هـ) .

٦١٣ هـ) الذى أسس دولة له فى حلب (١) . أما بيت طغطكين سيف الاسلام فى اليمن فقد ظل الأمر فيه يسير فى مجراه الطبيعى ، وكذلك كان الحال فيما يختص بالبيت الشيركوهى فى حمص والبيت الشاهنشاهى فى حماه ، الذى من نسله أبو الفدا مؤلف كتاب المختصر فى أخبار البشر . ويجب ألا ننسى أن الفرع الثانى من البيت الشاهنشاهى كان يحكم فى بعلبك منذ موت صلاح الدين وزال سنة ٦٢٧ هـ بموت بهرام شاه (٢) .

ولو أنعمنا النظر فى تاريخ الدول الأيوبية لوجدنا أن حروبا كثيرة كانت تقوم بين أفراد البيت الأيوبى ، وكان من نتائج هذه الحروب أن بعض أفراد هذه البيوت الحاكمة كان يمد نفوذه أحيانا على أملاك البعض الآخر ، ومثل ذلك ما حدث حين استولى الأشرف مظفر الدين موسى صاحب البلاد الجزرية على دمشق سنة ٦٢٦ هـ ، ومثل ما حدث بعد ذلك حين مد الكامل صاحب مصر سلطانه على دمشق سنة ٦٣٥ هـ وتبعه فى ذلك العادل الثانى فى نفس السنة ثم الصالح أيوب سنة ٦٣٧ هـ وسنة ٦٤٣ هـ بعد أن كان الصالح اسماعيل صاحبها قد استرد نفوذه فيها (٦٣٧ ــ ٦٤٣ هـ) . أضف الى ذلك ما كان يتعرض له الأيوبيون من هجمات الصليبيين التى يمكن أن نذكر من أهمها غزوهم دمياط فى أيام الكامل سنة

---

(١) بعد موت الظاهر حكم فى حلب ابنه العزيز غياث الدين محمد (٦١٣ ــ ٦٣٤ هـ) ثم حفيده الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد (٦٣٤ ــ ٦٥٨ هـ) .

(٢) ابن العبرى ، ص ٣٩١ ــ ٤٥٤ .

و Lane-Poole, The Muh. Dyn, pp. 76-79.

٦١٦ هـ وغزوهم دمياط والمنصورة سنة ٦٤٧ هـ فى أيام الصـالح نجم الدين أيوب (١) ٠

٥ ـ الروم السـلاجقة : كانت دولة الروم السـلاجقة من ضمن الدول الاسلامية المعاصرة لفترة استقلال الخلفاء العباسيين الأخيرة (٥٥١ ـ ٦٤٠ هـ) آسسها سليمان بن قطلمش Kutlumish ابن أرسـلان بيغو بن سلجوق سـنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) وتولى عـلى عرشها من بعـده أولاده وأحفاده(٢) حتى وصل الأمر الى غياث الدين كيخسرو الثانى ابن علاء الدين كيقباد الأول (٦٣٤ ـ ٦٤٣ هـ) (١٢٣٦ ـ ١١٤٥م) ٠ وأهم ما يمكننا ملاحظته أن هذه الدولة وقعت منذ سنة ٦٤٠ هـ تحت نفوذ المغـول ، على أثر ما كان من انهزام غياث الدين كيخسرو أمام جيوشـهم عنـد أرزنجان ـ احدى بلاد أرمينية ـ ودخول هذه الجيوش وتغلغلهـا فى بلاده ، وفتحها سيواس وقيصرية عنوة ثم طلب غياث الدين الصلح واجابته اليه على أن يدفع جزية سنوية قدرها أربعمائة ألف دينـار ويقـدم عددا من العبيـد والخيـل والأشـياء الثمينة (٣) ٠

---

(١) ابن العبرى ، ص ٤٥٢ ـ ٤٥٤ ٠

والمقريزى ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ١٩٤ ـ ٢٠٩ و ٣٣٣ ـ ٣٦٣ ٠

(٢) حكم فى فترة استقلال الخلفاء سبعة من السلاطين هم ـ عز الدين قليج أرسلان الثانى (٥٥١ ـ ٥٨٤ هـ = ١١٥٦ ـ ١١٨٨م) وابنه قطب الدين ملكشـاه الثـانى (٥٨٤ ـ ٥٨٨ هـ = ١١٨٨ ـ ١١٩٢ م) وابنه الثانى غياث الدين كيخسرو الأول (٥٨٨ ـ ٥٩٧ هـ = ١١٩٢ ـ ١٢٠٠ م) وابنه الثالث ركن الدين سليمان الثـانى (٥٩٧ ـ ٦٠٠ هـ = ١٢٠٠ ـ ١٢٠٣ م) وقليج أرسلان الثالث بن سليمان الثانى (٦٠٠ ـ ٦٠١ هـ = ١٢٠٣ ـ ١٢٠٤ م) وكيخسرو الأول مرة ثانية (٦٠١ ـ ٦٠٧ هـ = ١٢٠٤ ـ ١٢١٠ م) وعز الدين كيكاوس الأول (٦٠٧ ـ ٦١٦ هـ = ١٢١٠ ـ ١٢١٩ م) وأخيرا علاء الدين كيقباد الأول (٦١٦ ـ ٦٣٤ هـ = ١٢١٩ ـ ١٢٣٦ م) ٠

(٣) ابن العبرى ، ص ٤٤٠ ـ ٤٤٢ ٠

و

Lane-Poole, The Muh. Dyn p. 155.
Howorth, Hist of the Mongols. p. 166

٦ ـ أتابكية الموصل : هـذا ويجب ألا ننسى أن الدولة التى اسسها عماد الدين زنكى فى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧م) ظلت قائمة فى هذه الفترة وان كانت قد ضعفت وضـاقت رقعتها ، وبعد أن كانت تشمل فى أيام نور الدين محمـود واخيه سيف الدين غازى الشـام وبلاد الجـزيرة ، اصبحت لا تتعدى الموصل ، وانتهى بها الامر بعد وفاة ملكها القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شـاه بن مسـعود بن مودود بن زنكى سنة ٦١٥هـ أن صارت تحت وصـاية بدر الدين لؤلؤ الذى عينه الملك القاهر قبل وفاته وصيا على ولده نور الدين أرسلان شاه لصغر سنه ، وصار بعد وفاة نورالدين هذا سنة ٦١٦هـ وصيا على أخيه ناصر الدين محمود الذى كان له من العمر ثلاث سنوات . وبعد وفاة هذا الاخير سنة ٦٣١هـ أصبح بدر الدين لؤلؤ صاحب الأمر فى الموصل واستتب له الامر فيها بل انه آخذ يضيف اليها فملك جزيرة ابن عمر (١) فى سنة ٦٤٨ هـ وأسر صاحبها الملك مسعود ابن الملك المعظم من بيت أتابك زنكى ، ثم قتله وظل يحكم حتى سنة ٦٦٠هـ(٢) .

(ب) علاقة الخلافة العباسية بالدول الاسلامية

اذا استعرضنا العلاقات الخارجية بين الخلفاء العباسيين والدول الاسلامية فى ذلك الوقت ، وجـدناها تسـير طبقا لسياسة مرسـومة ترمى الى غرضين اثنين : أحـدهما تأمين العراق من الأخطار الخارجية ، وثانيهما نشر نفوذ الخـلافة العباسية فى العالم الاسلامى .

---

(١) وهى بلدة كانت تقع على دجلة شـمالى الموصل .

(٢) ابن العبرى ، ص ٣٩١ ـ ٤٥٦ .

و Lane-Poole, The Muh. Dyn., pp. 162, 163.

١ ـ تأمين العراق من الأخطار الخارجية : تمكن الخليفة العباسى المقتفى لأمر الله من صد غارة السلطان محمد بن محمود السلجوقى عن بغداد سنة ٥٥١ هـ وأعاد بذلك الى الخلافة العباسية نفوذها بعد أن كانت ألعوبة فى أيدى الأجانب أكثر من قرنين (٣٣٤ ـ ٥٥١ هـ) كما اعاد الى العراق استقلاله • وبعد موته سنة ٥٥٥ هـ اعتلى عرش الخلافة المستنجد فعمل هو ووزيره ابن هبيرة على تأمين العراق من الأخطار • وحدث فى ذلك الوقت أن أصبح الأمر فى فارس للسلطان سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه بعد تغلبه على ملكشاه ابن اخيه محمود وعلى أرسلان شاه ابن أخيه طغرل، وأرسل الأمير عبد الرحمن بن طغايرك لينوب عنه فى بغداد كما أرسل رسولا ليخطب له فى العراق ، فلم يرض المستنجد ووزيره بشىء من ذلك ولم يحققا أمله ومات الرسول وانتشرت الأراجيف بعد موته كما عاد ابن طغايرك أدراجه (١) •

أما الخليفة الناصر فانه حين رأى طغرل بن أرسلان شاه قد قوى نفوذه بعد موت أبيه وامتلك كثيرا من البلاد وأصبح يهدد العراق، أرسل قوة على رأسها وزيره جلال الدين عبيد الله ابن يونس لمحاربته (٢) والقضاء عليه ، فلما انتهى أمرها بالهزيمة ورأى أن قوته لن تنفع فى صد تيار طغرل اتجه الى الدولة الخوارزمية الناشئة واستعان بها عليه فوصل الى غرضه ، اذ حاربه تكش خوارزمشاه وهزمه وقتله وأرسل رأسه الى الخليفة ليعرضها أمام قصره فى بغداد (٣) •

---

(١) البندارى ـ زبدة النصرة ونخبة العصرة ، ص ٢٩٤ •

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ، ص ١٢ وابو الفدا ج ٣ ، ص ٨٠ •

(٣) ابن الاثير ، ج ١٢ ، ص ٥٠ و Muir, The Caliphate, p. 583.

وكما أن تأمين العراق كان سببا فى بدء العلاقات الودية بين الخليفة الناصر والدولة الخوارزمية ، فقد كان أيضا السبب فى سوء هذه العلاقات وما أتت به من نتائج سيئة ، وذلك أن الناصر حين استعان بتكش كان يأمل من وراء القضاء على السلاجقة تأمين العراق بالحصول على جزء كبير من أملاكهم فى فارس، ولهذا السبب نجده بعد أن يقضى تكش على طغرل يبادر الى الاعتراف بسلطته فى خوارزم وخراسان وفارس (١) ثم يرسل اليه سنة ٥٩٠ هـ وزيره مؤيد الدين ابن القصاب ومعه خلع ثمينة وهدايا فاخرة . ولكنه حين يجد أن تكش لم يقابل رسوله بالترحاب بل وأرسل قوة لرده قبل وصوله الى همذان (٢) ، يعلم أنه يريد ابقاء ممتلكات السلاجقة لنفسه ويرى أن فى هذا أكبر الخطر على العراق لأن الدولة الخوارزمية أقوى من السلاجقة فى فارس ومطامعها أوسع ، ولذلك عزم على مناوأة تكش وقد أرسل لهذا الغرض وزيره ابن القصاب على رأس قوة الى خوزستان فى السنة نفسها ، كما أرسل فى السنة التى تليها قوة على رأسها مملوك اسمه سيف الدين طغريل ، نجحت كل منها واستولت على عدة بلاد بسبب غياب تكش فى الجهات الشرقية من ممتلكاته ، ولكن نجاحها كان مؤقتا ولم يلبث تكش عند عودته أن طرد كلا منها وأعاد الأمور الى ما كانت عليه . ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل ان تكش فى سنة ٥٩٢ هـ أرسل الى الخليفة يطلب السلطنة واعادة دار السلطنة الى ما كانت عليه وأن يجىء الى بغداد ويكون الخليفة من تحت يده كما كانت الملوك

(١) ابن الأثير ج ١٢ ، ص ٥٠ .
و Muir, The Caliphate, p: 583.
(٢) Sayed Ameer Ali, A short Hist of the Saracens, p. 386.
و Ravesty (trans.), Tabakat-i-Nasiri, note, 6, p. 242.

السلجوقية (١) ، كما أنه عند موته واعتلاء ابنه محمد خوارزمشاه على عرش السلطنة تبودلت الرسائل بينه وبين الخليفة الناصر في هذا الموضوع ولكنه لم يفز بطائل وكان ذلك سببا في غضبه على الخليفة وعزمه على اذلاله ، وبخاصة بعد أن وقعت في يده مراسلات عندما فتح غزنة كان الناصر قد أرسلها الى شهاب الدين الغورى وآخيه يدعوهما فيها الى محاربة تكش (٢) وبعد أن ثبت لديه أنه يحرض الثائرين عليه في فارس (٣) . وقد سنحت له الفرصة عندما حرض الناصر نفرا من الحشيشية فقتلوا أغلمش الأتابكي الذى كان ينوب عنه في العراق وذلك عندما ركب يلتقي الحجاج عند انصرافهم من حج بيت الله الحرام . وقد سار محمد خوارزمشاه الى العراق العجمي وجمع مجلسا من العلماء أفتى بأن الناصر لا يستحق الخلافة ، وعين علويا من ترمذ اسمه علاء الملك اماما بدلا منه (٤) ، ولم يكتف بذلك بل سار يقصد بغداد ولم يحل دون ذهابه اليها الا نزول الثلج على جيشه بعد أن بعد عن همذان بيومين أو ثلاثة وعلا عقبة سغداباد ، ومهاجمة بني ترجم الأتراك وبنى هكار الأكراد لمن بقي من الجند ثم تهديد المغول لبلاده . ومع ذلك ، فانه أخذ يقطع الخطبة للناصر في البلاد التى يمر بها في عودته (٥) . وبعد موت محمد خوارزمشاه واستيلاء ابنه جلال الدين على عرش الدولة الخوارزمية ظلت العلاقات مع الناصر سيئة ، على

(١) السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٢ .

(٢) Howrth, History of the Mongols, p. 74.

(٣) Encyc. of Islam, art. Nasir.

(٤) Ibid.

Ravesty (trans.), Tabakat-i-Nasiri, p. 265, nota 4. و

(٥) ابن الاثير ج ١٢ ، ص ١٤٦ ، وأبو الفدا ج ٣ ، ص ١٢٤ ، ومحمد النسوى ، سيرة جلال الدين ، ص ٢٠ .

الرغم من محاولة جلال الدين تحسينها (١) ، فلما مات الناصر وحلت أيام المستنصر تحسنت العلاقات ولكن لم يكن لذلك فائدة تذكر ؛ لأن الدولة الخوارزمية سرعان مازالت امام ضربات المغول •

ومما تجدر ملاحظته في هذا المقام أن سياسة تأمين العراق من الأخطار الخارجية كانت سببا فى نشوء العلاقات بين الخلافة العباسية والمغول ، أو بمعنى آخر كانت سببا فى مجىء المغول الى الغرب وقضائهم على الخوارزمية كما كانت من قبل سببا فى قضاء الخوارزمية على دولة السلاجقة فى فارس ، فقد ذكروا أن الخليفة الناصر حين اشتد النزاع بينه وبين محمد خوارزمشاه وخاف خطره استدعى المغول (٢) ، الذين كانوا قد نشروا نفوذهم فى الصين واتجهوا غربا فلبوا دعوته وتدفقوا الى ما وراء النهر بقيادة جنكيز خان وتمكنوا بعد حروب طويلة من القضاء على الدولة الخوارزمية التى كانت تضايق الخلافة العباسية وتهددها وذلك فى عهد اجطاى بن جنكيزخان ، على أن الناصر وقد أدت به رغبته فى تأمين العراق الى استدعاء المغول ما لبث أن رأى أكبر الخطر مجسما فيهم ولذلك أخذ يقاومهم فى آخر أيامه ، وكذلك حاربهم خلفه المستنصر وصدهم عدة مرات عن العراق ولكن الخطر المغولى كان عظيما جارفا ولذلك كان سببا فى فشل سياسة تأمين العراق ، بل انه اكتسح العراق نفسه وقضى على الخلافة العباسية • ومن ذلك نرى أن سياسة تأمين العراق كانت السبب فى نشوء العلاقات بين الخلفاء العباسيين وسلاجقة فارس ثم بينهم وبين الدولة الخوارزمية ثم آخيرا بينهم وبين المغول •

---

(١) محمد النسوى ــ سيرة جلال الدين ، ص ١٠٩ •

(٢) ابن الاثير ج ١٢ ، ص ٢٠٢ وأبو الفدا ج ٣ ، ص ١٤٢ •

٢ ـ نشر نفوذ الخلافة العباسية فى العالم الاسلامى :

كانت أول محاولة لنشر نفوذ الخلافة العباسية فى العالم الاسلامى للخليفة المقتفى لأمر الله حين أراد أن يستفيد من حسن علاقاته مع نور الدين محمود بن زنكى لنشر نفوذه فى مصر • فقد ذكروا (١) أنه عندما علم بمقتل الظافر بالله الفاطمى واقامة ابنه الفائز عيسى مكانه وكان صبيا صغيرا كتب عهدا الى نور الدين وولاه مصر وأمره بالمسير اليها • هذا واذا لم تكن رغبته قد نفذت فى حياته فان نور الدين فى السنة التى اعقبت موت المقتفى وفى عهد المستضىء عندما بلغه أن صلاح الدين تمكن من مصر سنة ٥٦٧ هـ وحكم على القصر ، أرسل اليه يأمره بقطع الخطبة العلوية واقامة الخطبة العباسية مكانها (٢) ، وكان له ما أراد وتمت أول خطوة لنشر نفوذ الخلافة العباسية فى أيام الخليفة المستضىء (٣) •

أما الناصر فسار شوطا بعيدا فى سبيل نشر نفوذ الخلافة فى العالم الاسلامى ، وكذلك فعل من جاء بعده من الخلفاء مثل الظاهر والمستنصر • ودليل ذلك أنهم جميعا اتبعوا سياسة مصادقة الأيوبيين ، فكانوا يرسلون اليهم الخلع والتقاليد كما كان هؤلاء يحترمونهم فيرجعون اليهم لفض مشاكلهم ولا يتأخرون عن تقديم المساعدة التى فى مقدورهم تقديمها ، وبهذه الطريقة ظل نفوذ الخلافة العباسية قويا فى بلاد الأيوبيين • وان التاريخ ليقدم لنا كثيرا من الأمثلة التى توضح صدق ما قلنا ، فالسيوطى (٤)

---

(١) السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ، ١٧٦ •
و Sayed Ameer Ali, A short Hist of the saracens p. 345.
(٢) أبو الفدا ج ٣ ، ص ٥٣ •
(٣) ابن شاكر ـ فوات الوفيات ج ١ ، ص ١٣٨ •
(٤) السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ، ص ١٨١ •

يذكر أن الناصر عندما تولى الخلافة بعث الى السلطان صلاح الدين بالخلع والتقليد كما كتب اليه السلطان كتابا يقول فيه : « والخادم ولله الحمد يعدد سوابق في الاسلام والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي مسلم لأنه والى ثم وارى ، ولا أخرية طغرلبك لأنه نصر ثم حجر ، والخادم خلع من كان ينازع الخلافة رداءها وأساغ الغصة التي أذخر الله للاساغة في سيفه ماءها فرجل الأسماء الكاذبة الراكبة على المنابر وأعز بتأييد ابراهيمي فكسر الأصنام الباطنة بسيفه الظاهر » . كما يذكر أبو الفدا ما يوضح أن الناصر بعد موت صلاح الدين ظل يسير على سياسته الأولى حيال الأيوبيين فأرسل سنة ٦٠٤ هـ الى الملك العادل وابنيه : الملك الأشرف والملك المعظم خلعا صحبة الشيخ شهاب الدين السهروردي وكذلك أرسل الى الملك الكامل (١) ، وأن الملك الأفضل بن صلاح الدين كتب اليه من صرخد يشكو عمه الملك العادل أبا بكر وأخاه الملك العزيز عثمان لاغتصابهما دمشق منه ويقول (٢) :

مولاي ان أبا بكر وصاحبه
عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
فانظر الى حظ هذا الاسم كيف لقي
من الأواخر ما لاقى من الأول

فكتب اليه الخليفة الناصر جوابه يقول :

وافى كتابك يا ابن يوسف معلنا
بالصدق يخبر أن أصلك طاهر

(١) أبو الفدا ج ٣ ، ص ١١٤ .

(٢) أبو الفدا – المختصر في أخبار البشر ج ٣ ، ص ٩٧ ، وابن العبري ، ص ٣٨٩ و ٣٩١ و ٤١٤ .

غصبوا عليا حقه اذ لم يكن
بعد النبى له بيثرب ناصر
فاصبر فان غدا عليه حسابهم
وأبشر فناصرك الامام الناصر

ويذكر المقريزى ما يبين أن الخليفة المستنصر سار على طريقة الناصر وكانت العلاقات بينه وبين الأيوبيين على ما يرام ، ويقول انه أرسل فى سنة ٦٢٨ هـ للملك الكامل الخلع والتقليد وميزه بزيادات كثيرة لم تفعل فى حق غيره من السلجوقية وغيرهم كما أرسل خلعا للملك الأشرف أيضا (١) • ومما ذكره المقريزى أن الملك الكامل عندما أرسل اليه الخليفة المستنصر سنة ٦٣٥ هـ مائة ألف دينار ليستخدم له بها عساكر لصد المغول ، أعاد تلك الأموال دون أن يمسها وأخرج من بيت ماله الخاص مائتى ألف دينار استخدم له بها عساكر ثم جرد من عساكر مصر والشام عشرة آلاف نجدة للخليفة (٢) ، هذا الى أنه وقد كان حاقدا على الناصر داود صاحب الكرك لطلاقه ابنته لم يسعه حين شفع لديه فيه الخليفة المستنصر وأرسله اليه الا أن يقبل الشفاعة بل ويضعه على رأس العساكر التى جمعها للمستنصر (٣) •

ويجب أن نلاحظ أن الخليفة الناصر حسن علاقاته مع الاسماعيلية وأنه كان يرمى من وراء ذلك الى ضمهم تحت لواء الخلافة العباسية تمشيا مع مبدأ ضم المسلمين جميعا

---

(١) المقريزى ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٢٤٢ •
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥٧ •
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٥١ •

تحت راية الخلافة العباسية (١) ، وان مما سهل عليه العمل لهذه الغاية ما كان جاريا عند الاسماعيلية أنفسهم فى ذلك الوقت • فان جلال الدين حفيد حسن الصباح ورئيسهم فى ذلك الوقت أمر فى سنة ٦٠٨ هـ باقامة الصلوات وشرائع الاسلام ببلاد الاسماعيلية فى خراسان والشام ، وأرسل رسلا الى الناصر وغيره من أمراء الاسلام يخبرهم بما فعله (٢) بل انه ترك مطالبه فى الامامة واعترف بالخليفة العباسى (٣) •

يتضح من كل ما تقدم أن الخلفاء العباسيين فى هـذه الفترة الأخيرة من حكمهم فى العراق نجحوا فى تنفيذ سياستهم الخارجية ، فقد أمنوا العراق من الأخطار التى تعرض لها سواء من سلاجقة فارس أو من سلاطين الدولة الخوارزميـة بالقضاء عليهم جميعا ، كما تمكنوا من ضم مصر والشام وكل بلاد الأيوبيين وكذلك بلاد الاسماعيلية وقتا ما الى دائرة نفوذهم الدينى ، الا أنه برغم ذلك فان نجاحهم كان ينطوى على أسباب فشلهم ، فقد كلفتهم سياسة تأمين العراق كثيرا من المجهودات كما أنهم حين أزالوا الدولة الخوارزمية كان ذلك بفضل المغول ، ولا يخفى أن المغول وقد تغلبوا عـلى الدولة الخوارزمية تطلعوا الى أبعـد من ذلك وكان لابد لهـم أن يتابعوا السير وسيرهم الى الغرب لابد أن يقضى على الخـلافة العباسية التى استظلت بهم زمنا • ومع ذلك ، فان خطرهم وضح فى آخر أيام الناصر نفسه كما أن المستنصر من بعده بذل مجهودا لا بأس به للوقوف أمامهم • أما نشر نفوذ هؤلاء الخلفاء على الأيوبيين وعلى الاسماعيلية وقتا ما ، فانه وان

(١) Encyclopedia of Islam, Art. Nasir.

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ، ص ١٣٨ •

(٣) Encyc. of Islam, Art. Nasir.

أكسبهم احتراما لدى هؤلاء الأمراء وزاد من نفوذهم المعنوى بينهم بل وان عاد عليهم ببعض الفوائد المادية كما حدث حين أرسل الكامل للخليفة المستنصر سنة ٦٣٥ هـ عشرة آلاف رجل بجانب ما جمعه له من العساكر بمائتى ألف دينار؛ فانه بعد كل ذلك لم ينفعهم حين اشتد خطر المغول ومن هنا كان ضئيل الأثر • وسنرى أن المستعصم على الرغم من احتفاظه باحترام العالم الاسلامى ، سيتلقى الضربة القاضية وحده دون أن يأخذ بيده انسان ممن يخطبون له على منابرهم •

البـاب الثـانى

انتشـار نفوذ المغـول

الفصل الأول

البيئة المغولية وأثرها فى تكوين المغول

١ ـ بيئة المغـول الأصلية

قبل ميلاد المسيح بعدة قرون كانت تقيم فى وسط آسيا جماعات من البدو تنتشر من غربها الى شرقها • أما فى الغرب فكانت تقيم القبائل التركية وفى الوسط القبائل المغوليـة وفى الشرق قبائل التنجـو Tongus (١) • ولـو أردنا أن نحدد اقليما جغرافيا كموطن أصلى للمغول ، لاستقر رأينا على منغوليا التى تمتد فى أواسط آسيا جنوب سيبيريا وشـمال التبت وغرب منشوريا وشرق تركستان بين جبال التاى غربا وجبال خنجان شرقا •

ويمـكن تقسيم منغوليا الى قسـمين : قسم شمالى غربى مرتفع به جبال سيان Sayans وتنـولا Tennuola وخنجـاى Khangai واكتاج Ektag ، وبين هـذه الجبـال هضـاب

(١) Howorl, Hist of the Mongols, IV, pp. 4, 6.
و D'Ohsson, Hist. des Mongoles, Tome I, p. 1.

ووديان تغطيها الحصباء ، وقسم جنوبى شرقى منخفض يشمل صحراء جوبى أو شامو التى ليست الا سهلا متسعا مسطحا أو متموجا تغطيه طبقة من الحصباء شديدة الصلابة التى جردتها الرياح من المواد الدقيقة من الطين والرمل ، ومن تحتها تظهر فى بعض الجهات مساحات من الصخور كالجزائر فى البحار (١) • وتنساب من بين جبال المنطقة الشمالية الغربية الفروع العليا لأنهار أوبى وينسى ولينا بينما المنطقة الجنوبية لا توجد بها أنهار ، فان وجدت كان ذلك على الحافات مثل أنهار أنون Onon ،وكرولن Kerulon وخلاجل Khalagol وتسير من جنجان Khingan بعض نهيرات لا تلبث أن تجف حين تصل الى جوبى • وفوق ذلك يوجد بمنغوليا قليل من البحيرات الملحة والعذبة كما تتفجر بعض الينابيع ، ولكن المسافر رغم ذلك لا يعدم الماء لأنه اذا حفر وجده قريبا من سطح الأرض (٢) •

أما مناخ منغوليا فقاس وقسوته فى سرعة تغيره وفى بلوغه النهايات القصوى فى الحرارة والبرودة وفى جفافه الشديد وفى قوة الرياح التى لا حد لها • أما البرودة فهى الغالبة فى معظم أيام السنة بسبب طول فصل الشتاء اذ يتجمد الماء فى المنخفضات حتى شهر مايو ، والجليد يمكن أن يرى على أوانى الشرب فى شهر أغسطس ، كما أن الصيف لا يكاد يبدأ حتى ينتهى ، وتبلغ درجة الحرارة فى الشتاء فى بعض الجهات ٥٨ تحت الصفر • لكننا مع هذا يجب أن نلاحظ أن

---

(١) Howorth, Vol. IV, p. 10.
و Encyc. Brittannica, Art. Monglia.

(٢) Howorth, Vol. IV, pp. 11, 13.
و Encyc. Brit. Art, Mongolia

درجة الحرارة فى فصل الصيف القصير المدى تبلغ أحيانا ٦٠ درجة . ومما يزيد من قسوة مناخ منغوليا أن الرياح التى تهب فى معظم أيام السنة شديدة ؛ حتى انها تحمل الحصى وترسله الى مسافات بعيدة وتكون بذلك مواجهتها مستحيلة (١) . ويشهد بقسوة المناخ فى منغوليا من زاروها منذ أقدم العصور ، فهذا القس وليام Friar William يقول ان البرد قتل عددا كبيرا من الحيوانات، وذاك وليام الكربينى Carpini يذكر عند زيارته لمنغوليا الشمالية ، ان المناخ بها ليس كثير الثبات على حالة واحدة فى أواسط الصيف وأن الرعد والبرق الذى يودى بحياة كثير من الناس لا يكاد ينقطع وأن الثلج يسقط بكميات كبيرة وأن أعاصير باردة الريح لدرجة يصعب معها بقاء الرجل فى سرجه تهب هبوبا شديدا (٢) .

وقسوة مناخ منغوليا هى السبب فى فقر الحياة النباتية بها ، أما فى المنطقة الشمالية الغربية المرتفعة فتنمو الغابات السيبيرية على سفوح الجبال وتقل كلما سرنا من الشمال الى الجنوب ، وحيث لا تنمو الغابات ينمو العشب وتصبح المنطقة لها صفات المراعى الألبية . وفى أواسط جوبى لا تنمو الا حشائش جافة قليلة وبعض النباتات الملحية . وأكثر هذه النباتات ذيوعا السكسول saxaul والدريس Derisun والأول عبارة عن أشجار صغيرة لا ورق لها تستعمل لاعطاء قليل من الظل والوقود وكغذاء للجمال ، والثانى يقدم للماشية أو يتخذ الفقراء من حبوبه غذاء (٣) .

(١) Howorth, Vol. IV, pp. 14, 15.
و D'Ohsseon, Tome I, p. 10.
(٢) Howorth, vol. IV, p. 16.
(٣) Ibid., pp. 10, 16-17.
و Encyc. Brit., art. Mongolia.

ولا توجد فى بلاد المغول الا الحيوانات التى تسكن الصحارى عادة ، مثل الجمل المتوحش ذى السنامين والحصان المتوحش والحمار الوحشى والغزال وأنواع من الفيران ذات الفراء الثمين والذئاب والنمور (١) ٠

٢ ـ معيشة المغول

كان المغول القدماء كغيرهم من البدو رعاة ، لكل قبيلة من قبائلهم العديدة منطقة معينة يتنقل أفرادها بين ربوعها بحيواناتهم باحثين عن منابت العشب تبعا لفصول السنة المختلفة ، فيذهبون فى الربيع نحو الجبال ويرجعون قرب الشتاء الى السهول ٠ كانت كل قبيلة من قبائلهم لها رئيس يحمل لقب نوين Noyan أو تيشى Taischi تطيعه وتأتمر بأمره ، بل ان كل قبيلة من قبائلهم كانت تنقسم الى جماعات لكل جماعة رئيسها وكل جماعة يحتويها مكان واحد ٠ وكان أفراد القبيلة يدفعون الى النوين عددا معينا من الحيوانات كل عام جزاء محافظته على أرواحهم وأملاكهم (٢) ٠ وفضلا عن ذلك فقد كان المغول القدماء كالعرب فى الجاهلية والهنود الحمر الآن يقضون معظم أوقاتهم فى المنازعات القبلية(٣)٠ ولذلك فقد كانت حياتهم بسيطة فطرية لا يتسرب اليها التعقيد ، ولو أننا حاولنا أن نلم بها لما كلفنا ذلك أكثر من البحث عن مأكل المغولى وملبسه ومسكنه وقوانين مجتمعه البسيطة ودينه البدائى ، وكلها مسائل تدور حول تكوين أسرته وتنظيم جماعته وحمايتها من غضب الطبيعة التى يرهبها ويخشاها ٠

---

(١) D'Ohsson, Hist, des Mongols, Tome I, pp. 13-14, 19.

(٢) Howorth, vol, IV, pp. 20-27.

(٣) Howorth, Vol. IV, p. 30.

(أ) المآكل

كان ماكل المغول بسـيطا مع بداوتهـم وفقر بلادهم ، فهـم فى الشـتاء يأكلون اللحـوم • ويجب ألا يتسرب الى الذهن آنهم كانوا يكتفون بأنواع خاصة منها ، اذ الحقيقة أنهم كانوا يأكلون لحوم الحيوانات على اختلافها ، ويدخل فى ذلك الكلاب والذئاب والثعالب والفيران والخيل ، كمـا قال كربينى ، وأنهم كانوا يأكلون لحوم الحيوانات الميتة كما قال القس وليام (١) والأنكى من ذلك أنهم كانـوا يأكلون اللحوم البشرية ، وقد ذكر هيتون Haithon فى هذا الصدد أن مسلما اتهم بالخيانة ضد اباقاخان Abakakhan أخذ وقطع نصفين وصدرت الأوامر بأن يوضع جزء من لحمه ضمن كل وجبة من وجبات الخاقان ، كما ذكر أن اباقاخان أكل من لحمه وجعل جميع أمرائه يأكلون ، وأضاف الى ذلك أن هذا العمل يتفق مع عادة المغول • وعندما ذكر القس ريكولد rier Ricold هـذه القصـة قال ان السـيدات المغوليات طلبن آن يسلم لهن الخائن ولما سلم اليهن غلينه حيا وقطعن جسـمه وقدمنه الى جميع أفراد الجيش ليأكلوه • أما فنسنت أف بوفيه Vincent of Beauvais ، فقد ذكر أن المغـول كان من عادتهم أكل لحوم أعدائهم وشرب دمائهم • ويقول كربينى ، ان المغول فى احدى غزواتهم فى الصين عنـدما نفد طعامهم ضـحوا بواحد من كل عشرة رجال فى الجيش ليكون طعاما للباقين منهم (٢) • وفى الصيف لا يأكل المغول اللحوم الا قليلا ، فاذا هم أكلوها ، كان ذلك بعد أن يجففوها بطريقة عجيبة ، فكانوا اذا مات عندهم ثور أو حصان قطعوا اللحم الى شرائح رقيقة

---

(١) Ibid., p. 55.

و D'Ohsson, Tome I, p. 13.

(٢) Howorth, Vol. IV, p. 53.

وعلقوها في الشمس والهواء لتجف دون أن تعتريها عفونة (١) . هذا بينما كان جل اعتمادهم فى هذا الفصل على الألبان وما يستخرج منها . والألبان التى كانت تتوافر عندهم هى ألبان البقر والغنم وكانوا يستخرجون منها الزبد والجبن وألبان الأفراس ويستخرجون منها ما يعرف باسم كومس Kumis أو خمير اللبن ، ويذكر القس وليام طريقة صنعه فيقول ان المغول كانوا يضعون لبن الفرس فى قربة ثم يقلبونه بشدة بقطعة من الخشب ، وبعد أن يأخذوا منه الزبد بهذه الطريقة يتركونه حتى يصبح حامضا ثم يشربونه فيكون لهم منه غذاء لا بأس به (٢) .

(ب) الملبس

كان المغول يتخذون ملابسهم الحقيرة من أصواف الغنم ووبر الجمال ، كما كانت ملابس الرجال تكاد تشابه ملابس النساء كما كانوا يصنعونها من جلود الحيوانات أحيانا . واذا كان القس وليام وكربينى قد ذكرا أنهما رأيا المغول يلبسون الحرير والفراء الثمين فقد كان ذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى بعد أن صارت لهم امبراطورية واسعة الأرجاء وبعد أن صاروا يستوردون الحرير من الصين وفارس والفراء الثمين من روسيا وغيرها من جهات أوروبا التى كانت تدين لهم بالطاعة (٣) . ويجب ألا يصرفنا ذلك عن الحقيقة الواقعة التى هى بساطة ملابس المغول وحقارة صنفها وقذارتها ، ويرجع ذلك الى أن المغول كانوا يغيرون

---

(١) Howorth, Vol. IV, p. 55
و D'Ohsson, Tome I. p 13.

(٢) Howorth, Vol. IV, p. 59.

(٣) Howorth, Vol. IV, p. 37.

ملابسهم فى الصيف مرة كل شهر وفى الشتاء لا يغيرونها أبدا (١) • وقد ذكر القلقشندى (٢) هذا الأمر ، فقال : « ويقال انهم كانوا لا يرون غسل ثيابهم ولا يميزون بين طاهر ونجس » •

(ج) المسكن

لم تكن بيوت المغول أحسن حالا من بيوت غيرهم من البدو ؛ اذ كانت تقام من الصوف وكانت طريقة انشائها مختلفة كل الاختلاف ، وبينما كانت بيوت غيرهم من البدو مدببة من أعلاها كانت أعالى بيوت المغول على شكل نصف كرة لا تجرها الريح ولا تنقلب بسهولة ولو كانت العواصف شديدة ، وكانت بسبب ذلك دافئة شتاء معتدلة صيفا ، كما كانت تشبه اناء منقلبا قائما على حوائط دائرية من الصوف المثبت على هيكل من الألواح الخشبية المتصلة بعضها ببعض بقطع من جلود الحيوانات (٣) • وقد ذكر وليام الروبريكى أن المغول كانوا يعملون ما يشبه الصناديق من النسيج المتين المغطى بالصوف ليضعوا فيها ما يخافون عليه العطب وأنهم كانوا يدهنونها بشحم الحيوانات أو بلبن البقر ؛ حتى لا تتأثر بالماء اذا عبروا بها الأنهار أو نزل عليها المطر ، وأضاف الى ذلك أن بعض بيوت المغول كانت كبيرة تجرها عند نقلها عربات يعلق فى الواحدة اثنان وعشرون ثورا وبعضها الآخر صغير يكفى لنقلها ثور واحد أو على قول كربينى تنقل على ظهور الجمال • وكانت أبواب بيوت المغول تتجه عادة الى الجنوب تجنبا لريح الشمال والغرب القاسية ، كما كانت النار تظل على الدوام مشتغلة فى وسط البيت المغولى • أما

(١) Ibid., p. 45.

(٢) صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٣١٢ •

(٣) Howorth, Vol. IV, p. 55.

ترتيب هذه البيوت من الداخل فكان بسيطا ، فالحوائط تستعمل لتعليق الأسلحة والأوانى الجلدية التى كانوا يضعون فيها الألبان ومستخرجاتها ، وكانوا يضعون فى الجزء الداخلى المواجه للباب فراش رب البيت ويخصصون الجانب الغربى من البيت للرجال والجانب الشرقى للنساء (١) ٠

(د) القوانين

كانت حياة المغول بسيطة فطرية وكان لها من القوانين ما يناسبها فى البساطة ٠ ولو أننا تناولنا القوانين التى كانت تنظم حياتهم الزوجية بالبحث ، لظهر لنا بكل وضوح أنها كانت بدائية ، لا أثر فيها لاعمال الفكر الناضج ، فلا هى بالتى كانت تقدر الزواج حق قدره ولا هى بالتى كانت تقدم للزوجة من الحقوق ما يكفل لها السعادة ، اذ كانت تعتبر الزواج عملية تجارية ٠ وقد قال فى ذلك وليام الروبريكى : « يجب أن تعلم أنه لا يوجد رجل بينهم (أى المغول) له امرأة الا اذا كان قد اشتراها ، ويحدث دائما أن تجتاز بناتهم سن الزواج دون أن يتزوجن لأن آباءهن يحتفظون بهن حتى يستطيعوا بيعهن » ٠ كما كانت تسلب الزوجة حقوقها التى تقررها لها الشرائع الأخرى والا فما معنى ما يقوله فنسنت أف بوفيه « لا يعتبر المغولى المرأة زوجته الحقيقية حتى يصبح لها طفل أو حتى تصبح فى حكم من لها طفل ، واذا كانت عاقرا أمكنه طردها ، ولا يقدم الزوج مهر الزوجة حتى يصبح لها طفل» ٠ الحق أن فيما ذكره كربينى حيث قال : «ان الرجل المغولى يمكنه أن يحوز زوجات على قدر ما يستطيع وللبعض منهم ما يبلغ المائة ، ويسمح لهم

(١) Howarth, Vol. IV, pp. 48-50.

بالزواج من آية امرأة من الأقارب اللهم الا أمهاتهم أو بناتهم أو اخواتهم من نفس الام • أما زواجهم من أخواتهم اللاتى لسن من أمهاتهم فقانونى » ، وفيما ذكره وليام الروبريكى حيث قال : « ان الابن فى بعض الأحيان يأخذ زوجات أبيه ما عدا أمه ؛ وذلك لأن منزل الأب والأم يئول الى أصغر الأبناء ومن واجبه أن يشرف على أرامل أبيه واذا أراد أن يعاملهن معاملة زوجاته • ومما يجر عليه اللوم أن يدعهن يذهبن الى منازل آبائهن بعد موت زوجهن • ولم يكن هناك فارق بين الأبناء الشرعيين والأبناء الذين يستولدون من السرارى فى الميراث والحقوق الاخرى » (١) — فى ذلك كله ما يظهر أن قوانين المغول لم تحترم شرعية الزواج ولم تنظم أحكامه تنظيما صحيحا ، بل على العكس كانت تعتبر الزوجة من سقط المتاع تورث كما يورث وتشجع على العشق والزنا باعترافها بحقوق الأبناء من السرارى • على أنه يجب أن نلاحظ أن المغول كانوا فى ذلك كغيرهم من البدو وقد ذكر القلقشندى(٢) ان العربى فى الجاهلية كان يتزوج امرأة أبيه • وفى هذا ما يثبت وجود تشابه بين المغولى القديم والعربى فى الجاهلية فى هذه الناحية الاجتماعية ، ويسمى القلقشندى هذا الزواج نكاح المقت •

ولم تكن القوانين التى وضعها المغول لردع المعتدين وحفظ الأمن فى مجتمعهم بأعلى درجة أو أكثر قبولا من تلك التى كانت تنظم حياتهم الزوجية ، بل انها كانت أشد اظهارا لقسوتهم وأقوى تجسيما لحياتهم الفطرية • فقد كانت تقضى بالاعدام على من يرتكب الزنا أو قطع الطريق أو السرقة أو

(١) Howorth, Vol. IV, pp. 194-195.
و D'Ohson, Tome I, p. 14.

(٢) صبح الاعشى ج ١ ، ص ٤٠٣ •

التجسس أو السحر، كما كانت تقضى بضرب من يرتكب سرقة صغيرة ضربا مبرحا وذلك طبقا لما ذكره كربيني ووليام الروبريكي • أما ماركوبولو فقد زاد الأمر وضوحا فيما يختص بمسألة السرقة وقال ان المغول من أجل السرقة الصغيرة كانوا يضربون ضربة واحدة أو سبع ضربات أو ١٧ أو ٢٧ أو ٣٧ أو ٤٧ ضربة من ضربات العصا وقد تصل الضربات أحيانا الى ١٠٧ تبعا لنوع الجريمة بشرط أن يكون العدد فرديا ، وأن هذا الضرب كان يودى بحياة المضروب فى بعض الأحيان ، أما اذا كانت الجريمة سرقة حصان أو شيء كبير فكانوا يقطعون المجرم نصفين بالسيف اللهم الا اذا كان قادرا على افتداء نفسه بدفع تسعة أمثال قيمة الشيء المسروق (١) •

(هـ) الدين

كان المغول كغيرهم من الأقوام الأقدمين وثنيين وكانت ديانتهم الوثنية تعرف بالشامانية Shamanism وقد ظلت فيهم حتى حلت محلها الديانة اللامية أو البوذية بشكلها الذى اكتسبته من التبت وذلك فى القرن السادس عشر الميلادى • وقد كان المغول ــ طبقا لعقائد الشامانية ــ يعبدون كل شيء يسمو على مداركهم ويدق على أفهامهم وكل ما يرهبهم ويدخل الخوف الى أفئدتهم • لهم آلهة فى النهر والجبل والشجرة الكبيرة ، ولهم آلهة فى الشمس والقمر ، ولهم آلهة فى البرق الخاطف والرعد القاصف ، بل ولهم آلهة الى أيامنهم وشمائلهم وأمامهم وخلفهم وفوقهم وتحت أرجلهم، اذا تقربوا الى الجهة الجنوبية دل ذلك على احترامهم للنار، واذا تقربوا الى الشرق كان فى ذلك احترامهم للهواء ،

(١) Howorth, Vol IV, p. 79.

أما تقربهم الى الغرب فكان فيه احترامهم للماء ، وفى تقربهم الى الشمال كان احترامهم للأموات • ومما يجب ملاحظته هنا أن المغول كانوا لا يتقربون الى هذه الآلهة الا لخوفهم منها ولرغبتهم فى ابعاد غضبها وجلب رضاها يرجون منها الصحة فى أجسامهم وعقولهم ، كما يرجون منها حماية أبنائهم وحيواناتهم •

وبينما نجد العرب فى الجاهلية يتخذون معابد لهم يتقربون فيها الى آلهتهم ويجمعون فيها تماثيل لهذه الآلهة وبينما نجد قدماء المصريين يعملون مثل ذلك فينشئون المعابد الفخمة والهياكل العظيمة ، لا نجد المغول يفعلون ذلك أو شبهه فلم تكن عندهم معابد ولم تكن عندهم أديرة • وكل ما كان يعثر عليه عندهم ما كانوا يسمونه أوبو Obo وهى أكوام من الحجارة والخرق البالية وشعر الحيوانات وجلودها تقام بجوار الأنهار أو على التلال أو تحت الأشجار الكبيرة وتقدم عليها القرابين المختلفة للاله المفروض أنه يسكن فى الجبل أو النهر أو الشجرة الكبيرة أو المفروض أنه القسم الحى المقابل لها أو أنه روحها • كما أن المغول كانوا يصنعون من الصوف أشكالا آدمية يضعونها فى بيوتهم أو أمامها ويعتقدون أنهم بذلك يبعدون الشر عنها ويزيدون الحيوانات فيها ويدرون ألبانها ، ومما يذكرونه فى هذا السبيل أن كل مغولى كانت عنده فى بيته دميات من القماش تمثله وزوجته وأولاده فاذا أكل هو وأهل بيته أتى بتلك الدميات ولوث فمها بالدهن الذى يستخرجه من اللحم ، ثم أخذ شيئا من الحساء ورشه أمام البيت وبذلك يعتقد أن الاله وزوجته وأولاده شاركوه فى غذائه •

أما رجال الدين عند المغول فكانوا كالكهنة عند المصريين القدماء من طبقة متنورة تعلم الفلك وتحدد وقوع الكسوف والخسوف في أوقاتها وتعين الأيام الصالحة للعمل وغير الصالحة له ، وان كان نفوذ أفرادها لا يصل الى نفوذ الكهنة عند قدماء المصريين • وكان المغول ينظرون اليهم كما كان الاغريق ينظرون الى عرافة معبد دلفي وكما كان العرب ينظرون الى كهانهم الذين كان أشهرهم في اليمن(١)، فكانوا يأخذون رأيهم قبل أن يقدموا على الأعمال المهمة وكانوا لا يجمعون جيشا و لايدخلون حربا الا بعد موافقتهم • وقد كان هؤلاء يعتمدون فيما يدلون به من آراء على شكل الخطوط والشقوق التي تظهر على عظام أكتاف الحيوانات المحروقة ويعتبرون أصلح الحيوانات لهذا الغرض الغنم والآرام والوعول وبخاصة اذا كانت قرابين (٢) •

٣ ــ صفات المغول

نشأ المغول في بلاد فقيرة قاسية المناخ فأمدهم الله بصفات بدنية تناسب البيئة التي نشأوا فيها كل المناسبة • واننا حين نقرأ ما ذكره الرحالة عن مميزات المغول البدنية من الرأس الكبير والوجه العريض النحيل وعظام الخد البارزة والعيون الصغيرة ذات الجفون المسترخية والأنف المسطح والشفاه العريضة والأسنان القوية والرقبة القصيرة والصدر الكبير والساقين القصيرتين المعوجتين والقامة القصيرة والبشرة الصفراء السميكة (٣) ــ لا نعجب أقل العجب ، اذ لابد أن

---

(١) صبح الأعشى ج ١ ، ص ٣٩٨ •

(٢) Howorth, vol. IV, pp. 90-104.

و D'Ohsson, Tome 1, p. 16.

(٣) Howorth, vol. IV, pp. 31-32.

و D'Ohsson, Tome, I, p. 11.

فقر البلاد وقلة الغذاء فيها كان سببا فى قصر القامة ونحالة الوجه وبروز عظم الخد من زمن بعيد ، كما أن الجفون المتدلية لابد أنها من نعم الله على المغول لوقايتهم من الرياح الشديدة التى يتعرضون لها فى بلادهم فى معظم أيام السنة ، وكذلك الحال فى البشرة السميكة · أما اعوجاج السيقان فسببه قضاء المغول معظم الوقت على صهوة الخيل بركاب قصير الحوامل ·

ولم تكن صفات المغول البدنية هى وحدها التى تناسب بيئتهم التى درجوا عليها ، بل ان صفاتهم الأخلاقية من مستلزمات هذه البيئة ، فانهم وقد كانوا رعاة كان لابد لهم أن يصطدموا بغيرهم حين يعملون على توفير المراعى لحيواناتهم فى فصول السنة المختلفة ، ولذلك كانت تقوم بينهم المعارك وتشتد الأهوال وكانت حياتهم حياة حربية قوية وكانت أخلاقهم مزيجا من صفات المحاربين · أضف الى ذلك أن الطبيعة كانت فى بلادهم قاسية شديدة الوطأة ولذلك كانت حياتهم حربا مستمرة مع الطبيعة ، وقد أمدتهم بيئتهم بما عودتهم من الصبر والجلد بأعظم سلاح يشهرونه فى وجهها وبذلك قوت فيهم صفات المحاربين ·

من الصفات التى تلازم المحاربين دائما الجرأة فى الحق وابداء الرأى دون مواربة ولا مداراة ، وقد كان المغولى كغيره من أهل البادية صريحا لا يهاب جريئا لا يخشى حرا فى ابداء آرائه لا يتردد ولا يلين ، وقد عمل مجتمعه على تنمية هذه النزعة فيه بما فرضه من العادات ، فقد ذكروا أن المغول

القدماء كانوا طبقا للسياسة الكبرى (١) Yassak أو الشريعة التى سنها لهم جنكيزخان يجتمعون كل سنة فى العيد الكبير The Hai أمامهم أمراؤهم ليسألوهم عما فعلوا ، وقد ريظهر كانوا يوبخونهم بل ويعزلونهم اذا اقتضى الحال • ويظهر أن نزعة الصراحة هذه ظلت ملازمة للمغول وقتا ما بعد أن كونوا امبراطوريتهم الواسعة فقد ذكروا أن وزيرا من وزراء جنكيزخان تجاسر على أن يقول لسيده ان المملكة يمكن فتحها على ظهر الحصان ولكن لا يمكن حكمها على ظهر الحصان ، مشيرا بذلك الى أن الممالك تحتاج لاستقرار الأمر فيها الى اداريين بعد أن يكون الحربيون قد وسعوا أركانها (٢) •

وعلى الرغم من هذه الصراحة وهاتيك الحرية ، فقد كان المغول القدماء متعاونين وكان للطاعة التى تعتبر من أهم صفات المحاربين أكبر نصيب بينهم وكانوا مطيعين لرؤسائهم لا يعصون لهم أمرا ، حتى ان أكبر القواد كان اذا غضب عليه الامبراطور يقبل التقريع من أصغر رسول يرسله أمام

---

(١) ذكرها التلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٣١٠ ــ ٣١١ فقال « ثم الذى كان عليه جنكيز خان فى التدين وجرى عليه أعقابه بعده الجرى على منهاج ياسه التى قررها وهى قوانين خمنها من عقله وقررها من ذهنه رتب فيها أحكاما وحدد فيها حدودا ربما وافق القليل منها الشريعة المحمدية وأكثرها مخالف لذلك سماها الياسة الكبرى وقد اكتتبها وأمر أن تجعل فى خزانته تتوارث عنه فى أعقابه وأن يتعلمها صغار أهل بيته منها أن من زنى قتل ومن أعان أحد خصمين على الآخر قتل ومن بال فى الماء قتل ومن أعطى بضاعة فخسر ثم أعطى ثانية فخسر ثم أعطى ثالثا فخسر قتل ومن وقع حمله أو قوسه فمر عليه غيره ولم ينزل لمساعدته قتل ومن وجد أسيرا أو هاربا أو عبدا ولم يرده قتل ومن أطعم أسير قوم أو سقاه أو كساه بغير اذنهم قتل الى غير ذلك من الامور التى رتبها مما هم دائنون به الى الآن وربما دان به من تحلى بحلية الاسلام من ملوكهم » •

وقد ذكرها ابن العبرى أيضا فى كتابه ص ٣٩٥ فقال الياسة أى الناموس والقضاء •

(٢) Howorth, Vol. IV, p. 77.

جنوده ، وقد ذكر القلقشندى (١) هـذا الأمر فقال : « وأما حالهم فى طاعة ملكهم، فانهم من أعظم الأمم طاعة لسلاطينهم لا لمال ولا لجـاه بل ذلك دأب لهم حتى انه اذا كان أمير فى غاية من القوة والعظمة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب متى آذنب ذنبا يوجب عقوبته وبعث السلطان اليه من أخس أصحابه من يأخذه بما يجب عليه ، ألقى نفسه بين يدى الرسول ذليلا ليأخذه بموجب ذنبه ولو كان فيه القتل» . كما أن الجندى اذا عصى كان لا يقتل وحده بل ومعه أفراد أسرته ، أضف الى ذلك أن الأمراء والقـواد كانوا يضربون بالهراوة عندما يقعون فى الخطأ ولا يعتبرون فى ذلك اهانة لهم ولا يظهرون اشمئزازا (٢) .

وللفروسية عند المغول مركز ممتاز . وقد كانوا عـلى اختلاف أعمارهم يقضون حياتهم على ظهرالحصان ولا يكادون ينقلون قدما على الأرض ، ولذلك كان من لا يرافقه الحصان اما فقيرا أو عديم الأصدقاء ، ذلك لأن المغولى لا يتـأخر عن تقديم حصان لآخر يطلبه ، كما نقدم عود ثقاب لمن يطلبه لاشعال سيجارة(٣) . ولم يكن الرجال هم الذين يختصون بهذا الأمر من دون النساء بل ان النساء كن يركبن الخيل كالرجال وكن يستعملن الأقواس والسهام ويقدرن على البقاء على ظهر الحصان زمنا طويلا ويذهبن مع الرجال الى القتال (٤) .

---

(١) صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٣١١ .

(٢) Howorth, Vol. IV, p. 80

Browne, Literary History of Persia, vol. II, p. 433.

و Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, p. 376.

(٣) Howorth, vol. IV, p. 62.

(٤) Howorth, vol. IV, p. 44.

و D'Ohsson, Tome I, p. 15.

وحدث ولا حرج عن صبر المغول فقد كان الطفل منهم يصبر على الجوع يومين دون أن يظهر ضعفا بل يحاول ما أمكن أن يتظاهر بالمرح كأنه لا يعانى شيئا • والرجل منهم على الرغم من قوة شهيته الى حد يجعله يأكل خمسة كيلوجرامات من اللحم فى الوليمة وربع شاه فى اليوم، نجده فى الحرب يصبر على الجوع عشرة أيام مكتفيا بما يمتصه من دماء الخيول ــ وكان يفتح شريانا من شرايينها ثم يشرب دمها المتدفق ــ كما أنه كان يكتفى بما يتناوله من الكومس أو اللبن الحامض الذى يحمله فى قربته ، وكان نصف رطل من اللبن المجفف الممزوج بقليل من الماء يكفيه اليوم كله • وقد كانت خيول المغول تشاركهم فى صبرهم وكانت لا تحتاج الى شعير أو فول بل تحفر فى الأرض بأرجلها وتأكل ما يظهر لها من جذور النباتات • ولم يقتصر صبر المغول على تحملهم ألم الجوع ، بل انهم كانوا يتحملون البرد الشديد والحر اللافح بعزيمة قوية (١) •

وشجاعة المغولى مضرب الأمثال وقد شهد بشجاعتهم أعداؤهم أنفسهم، فقد ذكروا أن جواسيس محمد خوارزمشاه عند عودتهم من زيارة المغول قالوا عنهم : « انهم لا يعطون أنفسهم راحة وان الفرار أو التقهقر ليس معروفا لهم وانهم لا يبارون فى الشجاعة والطاعة والصبر » (٢) وقد ذكر ابن الأثير عنهم مثل ذلك فقال (٣) : « سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قدم رسولا أنه قال: من حدثكم أن التتر انهزموا

---

(١) Howorth, vol. IV, pp. 56, 61, 81-82.

و Browne, Let. Hist of Persie, II, p. 434.

و Osborn, Islam under the Caliphs of Baghdad, p. 377.

(٢) Howorth, vol. IV, p. 81.

(٣) ابن الأثير ج ١٢ ، ص ١٧٧ •

وأسروا فلا تصدقوه ، واذا حدثتم أنهم قتلوا فصدقوا ، فان القوم لا يفرون أبدا ، ولقد أخذنا أسيرا منهم فألقى نفسه من الدابة وضرب رأسة بالحجر الى أن مات ولم يسلم نفسه للأسر » •

٤ ـ جيوش المغول

رأينا فيما سبق ان المغول حازوا كل صفات المحاربين الأقوياء وقد كان من أثر ذلك ان فاقوا غيرهم فى تنظيم الجيوش وترتيبها وامدادها بكل ما يلزمها ، كما اتبعوا فى حروبهم طرائق كانت تضمن لهم النصر • وان ما لدينا من المعلومات يبين لنا انهم قسموا الجيوش تقسيما لا يختلف كثيرا عما يتبع فى الجيوش الحديثة • فقد كانت عندهم فرق مكونة من مائة ألف جندى يسمونها التوك a Tuk وأخرى مكونة من عشرة آلاف يسمونها التومان a Toman وثالثة مكونة من الف يسمونها منجان a Mingan ورابعة مكونة من مائة يسمونها دن Don وخامسة مكونة من عشرة يسمونها اربان Arban . كما أن جيوشهم كانت غنية بالأسلحة وان ما ذكره الكثيرون من أمثال كربينى والقس وليام وفنسنت أف بوفيه وماركو بولو وماتيو بارس Mathew Paris فى هذا الصدد من الأقوال الكثيرة التى يكمل بعضها بعضا لتجعلنا قادرين على أن نصف محاربيهم وصفا دقيقا • فالمحاربون العاديون كانوا يلبسون ملابس من الفراء على أجسادهم، كما كانوا يضعون على رؤوسهم خوذات من الحديد، ويحملون من الأسلحة الأقواس والسهام والمبارد لشحذ السهام والحراب التى تنتهى بخطاف والتى تستعمل لجذب الأعداء من فوق سروجهم والبلط والحبال • بينما الرؤساء من الجند والضباط والقواد كانوا يلبسون اللامات الحربية

ويحملون من الأسلحة مثل ما يحمل السابقون . ولما كان المغول رماة نابهين ، فقد كانوا يعنون عناية فائقة بالأقواس التى كانت متينة الى أبعد حدود المتانة والتى كان الواحد منها يتطلب رجلين لثنيه . وكانت سهامهم تبلغ فى طولها قدمين وراحة يد واصبعين، كما كانت ذات أسنان مدببة جدا، وبعضها كانت ذات رءوس فضية ملأى بالثقوب حتى اذا رميت أخرجت صوتا كالصفير . وكانت اللامة الحربية عندهم تصنع من الجلد ومنها ما يصنع من السلاسل ومنها ما يصنع من ألواح الحديد (١) .

أضف الى ذلك أن مهارة المغول كانت تظهر بكل وضوح فى تسييرهم الجيوش للحرب. فقد كانوا يرسلون ألفين من الرجال فى المقدمة للاستكشاف ، ويضعون مثلهم فى المؤخرة وعلى كل جانب من جانبى الجيش ، كما كانوا يلحقون بالجيش الزاحف عربات المؤونة تجرها الثيران وكذلك الأبقار والأفراس ، وكان كل فرد من أفراد الجيش يأخذ معه مؤونة صغيرة من الجبن واللحم وغيرها . وعندما تكون الجيوش كبيرة العدد وبخاصة فى الشتاء كانوا يأخذون معهم خيام المعسكر تحملها الجمال لتكون لهم مأوى . وكان طول هذه الخيام من أربعين الى خمسين قدما وكان هيكلها يصنع من عصى مدببة طول الواحدة منها سبع أقدام أو ثمان ، تتصل بعضها ببعض بواسطة قطع من الجلد وتتجمع فى القمة مكونة سطحا مخروطيا . كما كانوا يأخذون معهم خياما أصغر ليجمعوا فيها من يقع فى أيديهم من الأسرى . وكان الجيش المغولى اذا خرج للقتال لا يعوقه شىء عن مقصدة ، فاذا

(١) Howorth vol. IV, pp. 81-82.
و Osborn, p. 378.

وصل الى نهر كبير حزم أفراده حوائجهم وشدوها الى خيولهم وعلوا فوقهـا أو أتوا بقرب أو أكياس من الجلد وملؤوها بالملابس وربطوها جيدا ثم وصلوها بذيل الحصان وجلسوا فوقها بينما يجر رجل منهم هذا الحصان ، وقد يستعملون مجذافين فى دفعها بدل الحصان (١) ٠

وعندما كانت جيوش المغول تلاقى الأعداء على ما ذكره ماركوبولو كانت لا تدخل فى حرب نظامية بل كان المحاربون يدورون راكبين ويرمون سهامهم على أعدائهم ٠ ولما كانوا لا يعتبرون فى الفرار من المعركة أية نقيصة ، فقـد كانوا فى بعض الأحيـان يتظاهـرون بالفـرار ثم يدورون عـلى سروجهم ويرمون اعداءهم بكل شدة وهـكذا ينزلون بهـم الخسائر الكبيرة ٠ وكانت خيولهم متمرنة أحسن تمرين حتى انها كانت تجرى هنا وهناك كالكلاب ٠ وعندما كان المغول يرون أنهم قتلوا كثيرا من الخيول والرجال كانـوا يدورون على أعقابهم ويبدءون بمناجزة القوم ، وهم فى أحسن نظام مخرجين من أفواههم أصواتا مزعجة تصـم الآذان وتدخـل الرعب فى القلوب ٠ وقد أيد مار كوبولو فى هـذا القـول هيتون حيث ذكر أن المغول « قد يفرون ولكنهم دائما يحفظون جماعاتهم بعضها مع بعض ، ومن أكبر الخطر متابعتهم لأنهم حين فرارهم يرمون الى الخلف من فوق رؤوسـهم ويؤثرون تأثيرا كبيرا على متتبعيهم وتكون صفوفهم دائمـا متقـاربة حتى انك قد تظنهم أقل من نصف حقيقة عددهم(٢) ٠ وفى هذا ما يثبت أن المغول اتبعوا طرائق حربيـة ، تدل عـلى نضجهم الحربى ورسوخ قدمهم فى فنون الحرب ٠

---

(١) Howorth, Vol. IV, pp. 67, 81-2, 85.

(٢) Howorth , Vol. IV, pp. 82-85.

و Osborn, p. 378.

٥ ـ المغول في نظر المؤرخين

يكاد المؤرخون يجمعون على أن المغول كانوا قساة القلوب وحشيي الطباع وأنهم كانوا كالهيار المدمر لم يسلم انسان ولا حيوان ولا زرع من ضرهم وأذاهم • لا يختلف في ذلك مؤرخو الشرق عن مؤرخي الغرب ولا مؤرخو العصور الوسطى عن اخوانهم في العصور الحديثة •

أما ما ذكره مؤرخو الشرق في العصور الوسطى عن المغول فيمكن آن نتخذ له مثلا ما ذكره ابن الأثير فقد قال يصف مجيء التتر الى بلاد الاسلام (١) : « الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين • فلو قال قائل ان العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتل بمثلها ، لكان صادقا ؛ فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها وما يدانيها • ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني اسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس ، وما انبيت المقدس بالنسبة الى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها آضعاف البيت المقدس ، وما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من اسرائيل • ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا يأجوج ومأجوج ، وأما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم لهذه

(١) ابن الأثير ج ١٢ ، ص ١٦٥ •

الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح » ، ثم ذكر فتوحاتهم فى ما وراء النهر وخراسان وروسيا وقال : « هذا ما لم يطرق الأسماع مثله ، فان الاسكندر الذى اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة انما ملكها فى نحو عشر سنين ، ولم يقتل أحدا انما رضى من الناس بالطاعة ، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الأرض أخلاقا وسيرة فى سنة » .

وقد ذكر ياقوت يصف الأقاليم التى اكتسحتها جيوش المغول فى احدى رسائله فقال (١) : « وأمست تلك الأوطان مأوى للأصداء والغربان يتجاوب فى نواحيها البوم ويتناوح فى آراجيها الريح السموم ، يستوحش فيها الأنيس ويرثى لمصابها ابليس .

كأن لم يكن فيها أوانس كالدمى
وأقيال ملك فى بسالتهم أسد

فمن حاتم فى جوده وابن مامة
ومن أحنف ان عد حلم ومن سعد

تداعى بهم صرف الزمان فأصبحوا
لنا عبرة تدمى الحشا ولمن بعد

وذكر مؤرخ ثالث وان لم يكن من العرب فمن الفرس وهو الجوينى ، أن البلاد الاسلامية التى اكتسحها المغول لم يبق بها واحد من ألف من سكانها الأصليين ، كما قال انه لو زاد السكان باضطراد دون أن يحول دون ذلك حائل من

(١) ابن خلكان ج ٢ ، ص ٢١٣ .

الحوائل وذلك فى خراسان والعراق العجمى حتى يوم القيامة لما بلغ سكانها عشر ما كانوا عليه قبل الغزو المغولى (١) ٠

ولم تختلف نظرة مؤرخى أوروبا فى العصور الوسطى عن نظرة مؤرخى الشرق السابقين فهذا روجر بيكون Roger Bacon اعتبرهم جنود المسيح الدجال Antichrist ، وذلك القس جون الكربينى Frair John of Piano Carpine يعتبرهم بقايا القبائل العشر التى حاول الاسكندر الأكبر عزلها فى الجبال التى بقرب بحر قزوين (٢) ، أى ان كلا منهما نظر اليهم نظرته الى عوامل الفساد فى الأرض ٠

أما المؤرخون المحدثون فلا يختلفون عن السابقين فى هذه الناحية ، وقد جاء فى مجموعة كمبردج التاريخية (٣) أن المغول لم يكونوا ممن يهمهم انماء بذور الحضارة بالتعاون مع الآخرين وأن جل همهم كان التوسع والغزو، كما أن العالم عرفهم محاربين أشداء خربوا البلاد وقتلوا العباد، وأنهم وان كانت لهم آثار أخرى غير آثارهم الحربية فهى قليلة لا يعتد بها ، وهم وان أمنوا الطرق وفتحوها ما بين غربى آسيا وشرقيها لم يفيدوا التجارة بشىء لأن البلاد التى اكتسحوها وخربوها لم يبق بها شىء يتبادله الناس، كما أنهم وان أعطوا الحرية الدينية لرعاياهم ولم يميزوا بين علماء المسلمين وبطارقة المسيحيين ورؤساء البوذيين لم يكن ذلك لاعتناقهم مبدأ حرية التدين ، بل لأنهم لم يعتقدوا بأى دين من الأديان ولم يجدوا حرجا فى أن يعتنق أى امرىء الدين الذى يميل اليه ٠

(١) D'ohsson, Tome I, pp. 350-351

(٢) Cambridge Medieval History, Vol. IV, Ch, xx, pp. 628, 630.

(٣) Ibid, p. 634.

أضف الى ذلك أن دوسون المعجب بهم لم يجد بدا من الاقرار بالحقيقة فذكر أنهم ، أى المغول : «فاقوا فى قسوتهم أشد الناس فكانوا يقتلون فى الأقاليم التى يفتحونها الرجال والنساء والأطفال ويحرقون المدن والقرى ويحولون الأرض العامرة الى صحار ، ومع ذلك فلم يكن يحركهم كره أو رغبة فى الانتقام لأنهم لم يعرفوا أسماء الناس الذين قضوا عليهم ، وقد كان ممكنا أن نفرض أن التاريخ جسم مظالمهم لو لم يكن المؤرخون فى جميع الأقطار قد اتفقوا على هذه المسألة ، وقد كان الناس بعد الفتح يرون المغول يعاملون البقايا الضعيفة فى الأمم المفتوحة كعبيد لهم وأنهم أثقلوا على الذين نجوا من سيفهم بظلمهم المخيف ، وأن حكومتهم كانت تحتقر كل شريف كريم بينما يلقى أحط الناس ممن دخلوا فى خدمة هؤلاء السادة الغلاظ الغنى والاكرام والقدرة على الاستبداد باخوانهم ثمنا لخيانتهم » (١) .

٦ ـ رأينا الخاص فى المغول

لقد ذكرنا فيما سبق ما يدل على أن المغول جمعوا كل صفات المحاربين الأقوياء وزودوا جيوشهم بالسلاح واتبعوا فى حروبهم طرائق لا جدال فى أنها من أحسن ما وجد فى أيامهم، ولكننا فى نفس الوقت لا نعدم الدليل على أنهم كانوا محاربين من النوع القاسى الذى لا يلين له قلب ، كما أنهم كانوا مكرة مخادعين لا ينفذون وعدا ولا يرعون ذمة ولا عهدا . ولذلك فقد كانت أعمالهم أقرب الى أعمال المخربين منها الى أعمال المحاربين النظاميين .

---

(١) D. Ohsson, Histoire des Mongols, Tome el, Expos, pp. VI-VII,

وتظهر قسوة المغول فيما كانوا يعاملون به أعداءهم . فقد كانوا حين ينتصرون لا يتركون فى قيد الحياة عظيما ولا حقيرا ولا كبيرا ولا صغيرا ولا امرأة ولا طفلا رضيعا ، كما أنهم كانوا اذا أرادوا أن يحتفظوا بالأسرى ربطوهم من أرجلهم تحت بطون الخيل (١) . ولم تكن تلك القسوة عرضية بل كانت متأصلة فى نفوس المغول تظهر فى طريقتهم فى ذبح الحيوانات ؛ اذ كانوا يفتحون بطنها ويقبضون على قلبها ويجرونه ليقتلوها (٢) وقد ذكر ذلك القلقشندى (٣) فقال : «ومن معتقدهم فى ذبح الحيوان أن تلف قوائمه ويشق جوفه ويدخل أحدهم يده الى قلبه فيمرسه بيده حتى يموت أو يخرج قلبه ، ومن ذبح ذبحة المسلمين ذبح» . كما تظهر قسوتهم أيضا فى تضحيتهم بالرجال فى جنائز العظماء وفى قتلهم عددا من جمال المتوفى وخيوله ودفنها (٤) ، وفى معاملتهم للمرضى منهم فقد كانوا يتخلون عنهم بل ويعملون على اماتتهم ، ويقول وليام الروبريكى فى ذلك أنه « عندما يمرض أحد من المغول يوضع فى مرقده وتوضع علامة على مسكنه تشير الى وجود مريض فى الداخل والى عدم دخول أحد عليه . ولا يزور المريض أحد أبدا الا من يتولى خدمته» ، كما يذكر كربينى أنه « عندما يمرض شخص توضع حربة خارج خيمته كما يلفون حولها قطعة من الصوف الأسود وبذلك لا يجرؤ غريب على دخولها . وعندما يشتد بالمريض مرضه يتركه الجميع ؛ لأنه ليس مصرحا لمن يشاهد موته أن يدخل مسكن أى عظيم أو قصر الامبراطور حتى يبزغ القمر

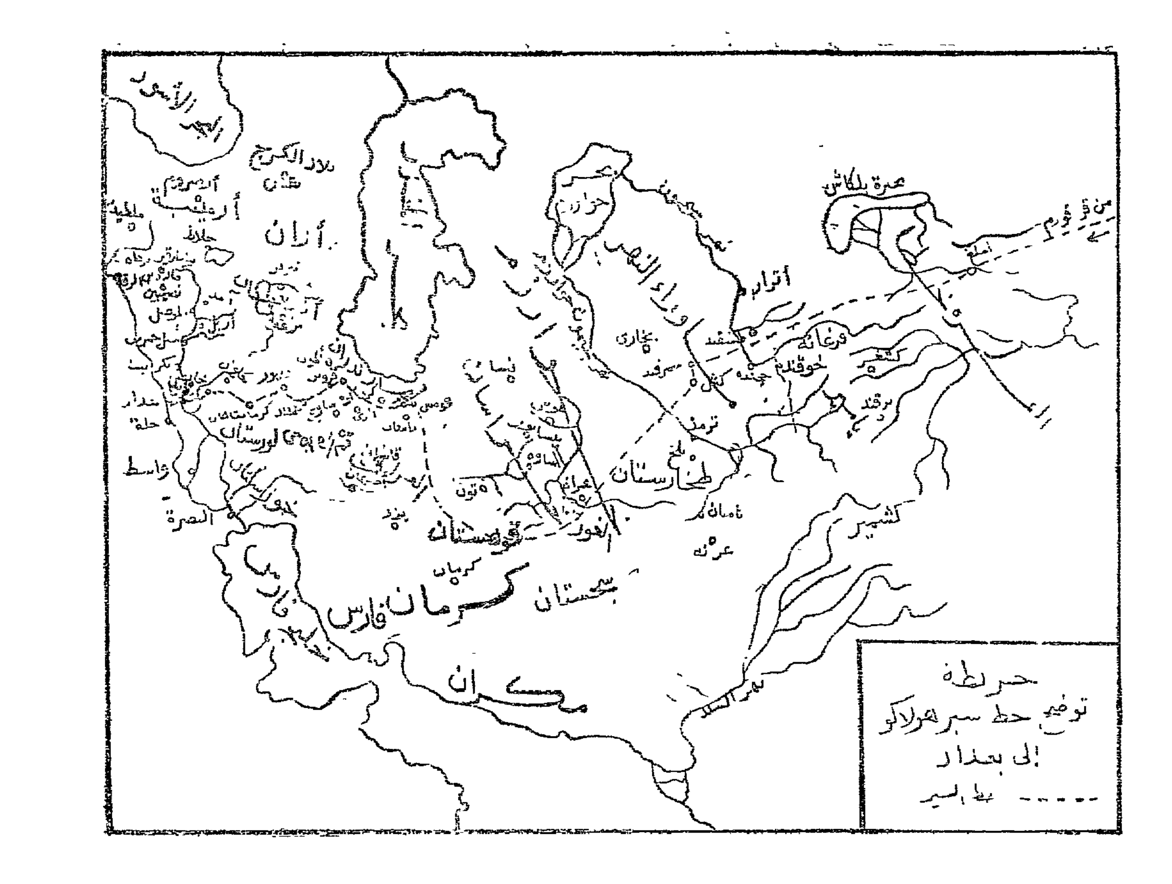
---

(١) Howorth, Vol. IV. pp. 81, 85.

(٢) Browne, Literary History of persia, Vol. II, p. 440.

(٣) صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣١١ .

(٤) Howorth, Vol. IV, p. 142.



خريطة
توضح خط سير هولاكو
إلى بغداد
خط السير
البحر الأسود
بلاد الكرج
أران
خوارزم
ما وراء النهر
أترار
بحيرة بلكاش
فرغانة
كاشغر
بخارى
سمرقند
ترمذ
بلخ
طخارستان
خراسان
قوهستان
كشمير
يزد
كرمان
فارس
سجستان
مكران
البصرة
واسط

الجديد» فكأنهم ينظرون الى المريض نظرتهم الى ملوث نجس. وليت الأمر وقف عند هذا الحد من القسوة بل ان فنسنت أف بوفيه حين يقول ان بين التتار من اذا هرم أبوه أعطاه مادة دهنية ـ مثل ذيل شاة ـ ليأكلها فتضغط عليه وتخنقه ، وانهم كانوا عندما يموتون يحرقون أجسادهم ويجمعون بقاياها ليرشوا من مسحوقها على طعامهم عندما يتناولون الطعام كل يوم (١) ـ نعم ؛ انه بذلك يقدم لنا أكبر دليل على قسوتهم وتحجر قلوبهم .

أما غدر المغول ومكرهم وعدم مراعاتهم للعهود فيتجلى فى سلوكهم فى حروبهم فى فارس والصين ، فكثيرا ما وعدوا أهل المدن بالنجاة ان هم سلموا مدنهم ولم يلبثوا أن أنزلوا عليهم من العذاب ألوانا وقتلوهم حين أصبحوا فى أيديهم(٢) . هذا بالنسبة لأعدائهم وقد يجد فيه بعض الناس عذرا لهم ، انما غدرهم الذى لا يمكن الدفاع عنه فيظهر فى معاملتهم لحلفائهم ، وقد جاء فى كتاب هورث (٣) : « ان دأبهم حين ينتصرون على أعدائهم أن يستولوا على الغنيمة دون تردد أما اذا هزموا فانهم يتبعون حلفاءهم وينزلونهم عن خيولهم ويحملون ما معهم من الأسلاب » .

---

(١) Ibid., p. 203.
(٢) Osborn, p. 376.
(٣) Howorth, History of the Mongols, Vol. IV, p. 33.

الفصل الثانى

توحيد المغول

١ ـ أصل المغول

تاريخ المغول القدماء تاريخ غامض يتخلله كثير من الأساطير وذلك لأنه كتاريخ العرب فى الجاهلية يعتمد على الرواية والتلقين بدل اعتماده على الكتابة والتدوين (١) ولا يخفى ما يعتور الرواية من زيادة أو نقص وما يتخللها من عثرات الذاكرة وشوائب النسيان وان ما تناقله المغول عن أصلهم ليحقق هذا القول • فقد كانوا يعتقدون أن أجدادهم وقد كانوا يعيشون فى منغوليا من عصور سحيقة تعرضوا لأذى جماعات من سكان تلك البلاد قتلتهم عن آخرهم، ولم تترك فى قيد الحياة منهم الا رجلين وامرأتين تمكنوا من الفرار الى منطقة خصبة اسمها ارجينى كون Erguene-Coun تقع بين جبلين ثم توالدوا فيها حتى نشأت من نسلهم قبائل عديدة • وقد ضاقت تلك البقعة بتلك القبائل حين كثر عددها ؛ ولذلك فانها اخترقت أحد هذين الجبلين ووصلت الى ضفاف أنهار آونون وكيرولان وتوجولا وتولا وآقامت عليها وكان ذلك حول منتصف القرن الثامن الميلادى • وقد بلغ

(١) D'Ohsson, Tome I, p. 26.

من شدة تمسك المغول بهذا الاعتقاد ، أن أبناء جنكيز خان كانوا يحتفلون بهذا الحادث ليلة أول يوم من كل عام (١) ٠

٢ ــ الأمم المغوليه القديمة

ساعد المؤرخين على تبديد الغموض الذى يحيط بتاريخ المغول الأقدمين ما عثروا عليه فى مؤلفات التاريخ الصينى ، ولا يخفى ما كان هناك من اتصال بين الصينيين وبين البدو من سكان وسط آسيا منذ الأزمنة القديمة ٠ فقد كانت الصين غنية بينما كانت جهات أواسط آسيا فقيرة ٠ ولذلك كثيرا ما هاجم هؤلاء البدو شمالى الصين ورجعوا بالأسلاب والغنائم ، بل ان هذه الهجمات نفسها كانت سببا فى اقامة سور الصين العظيم قبل الميلاد بنحو قرنين ونصف قرن ٠ ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ان حكومة الصين كانت تستخدم جيوشا من هؤلاء البدو وتوزعهم على حدود بلادها الشمالية لكى يحموها من اخوانهم فى الجنس ، كما وجدت أخيرا أن أضمن طريق لحفظ البلاد من شر هؤلاء البدو هو تقسيم منطقة الحدود بين رؤسائهم ، واعتبارهم أقيالا يقدمون لها الخضوع ويتسلمون منها علامات السلطان(٢)٠

وان ما عثر عليه المؤرخون فى تاريخ الصين خاصا بالمغول الأقدمين وان كان لا يعدو شذرات بسيطة ، الا أنه أزاح اللثام عن حقائق لا يجوز اهمالها ، وبين أن المغول فى عصورهم القديمة كانوا أمما متفرقة تقيم فى منغوليا شمالى صحراء شامو والى الشمال الغربى والشرقى منها ٠ ومن هذه الأمم أمة النيمان Naimans الكبيرة العدد التى كانت

(١) Ibid, pp. 21-22.
(٢) D'Ohsson, Tome I, pp. 4-5.

تسكن الأقاليم التى يجرى فيهـا نهر ارتش الأعـلى والتى تخترقها سلسلة التاى الكبرى وأمة الكريت Keraits التى كانت تسكن الأراضى الواقعة شرقى منطقة النيمان ، التى تمتد حتى منابع نهر أونون وكيرولان، وامة المركيت Merkits التى كانت تسكن الاقليم الواقع شـمال أرض الـكريت ، وأمة الويرات Ouirates التى كانت تقيم فى اقليم يقع شمالى اقليم أمة المركيت ترويه ثمانيـة نهيرات تكـون نهر ينى الحـالى ، وأمة الجلير Djelaires التى كانت تشمل عشر قبائل والتى كانت منطقتها عـلى شواطىء نهر أونون ، وقبائل الأوراسـوت Orassoutes والتلنجـوت Telengoutes والكشتيمس Keschtimis التى كانت تقيم فى غابات واسعة غربى بحيرة بيكال ، وقبائل البارجوت Bargoutes التى كانت تقيم شرقى بحيرة بيكال • أما أمة المغول ، فكان من قبائلها : البايوت Bayaoutes والتيـدجوت Taidjoutes والـكنجراتس Coungrates وكانت تقيم فى الاقليم الواقع جنـوب بحيرة بيكال ، وأمة التتار وكانت تسكن شواطىء بحيرة بريور فى أقصى الشرق من منغوليا (١) •

٣ ـ حالة الأمم المغولية القديمة حتى أوائل القرن الثـانى عشر الميلادى

ظلت الأمم المغولية التى سبق ذكرها عدة قرون قبـل الميلاد وأخرى بعده خاضعة للنفوذ الأجنبى لا تكاد تتخلص من سيطرة امبراطورية من الامبراطوزيات حتى تقع تحت سيطرة غـيرها • وأول ما نعـرف من الامبراطوريات التى نشرت نفوذها على منغوليا امبراطورية الهينو Hiong-Nous. التى

(١) D. Ohsson, Tome I, pp. 6-9, و Cambridge Medieval Hist., Vol. IV, pp. 631-662.

ظلت قائمة حتى سنة ٩٣ق٠م٠ وقد قامت بعدها امبراطورية السيتنبيس Sien-Pis في وسط آسيا وكان لها في منغوليا من النفوذ مثل الأولى وظلت حتى سنة ٢٣٣م ٠ وقد وقعت منغوليا بعد ذلك في قبضة امبراطورية التوباس Les Topas ثم في أوائل القرن الخامس في قبضة الجيوجان Geougens وبعد ذلك بحوالى مائة وخمسين سنة أصبح الأمر فيها للأتراك الذين أقاموا امبراطورية ، امتدت من المحيط الهادىء شرقا الى بحر قزوين غربا ومن الصين جنوبا الى المحيط المتجمد شمالا ٠ وقد أزال الصينيون بمحالفة الويغور هذه الامبراطورية التركية سنة ٧٤٤م ومن ذلك الوقت خضعت منغوليا للويغور أو الهوى هوى Hoeihoei كما يسميهم الصينيون ٠ وقد انتقل الأمر بعد ذلك للقرغيز سنة ٨٤٨م ٠ وفي أوائل القرن العاشر الميلادى صار الخطا سادة منغوليا ، الا أن الزمن لم يلبث أن دار دورته وأصبح النفوذ في منغوليا لأباطرة آسرة كين Kin ٠ وقد ظلت سيادة هؤلاء الصينيين في منغوليا حتى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى حين ثارت الأمم المغولية عليهم واستقلت عنهم عند موت الامبراطور تاى تنج Tai Taung سنة ١١٣٧م (١)٠

٤ ــ توحيد الأمم المغولية القديمة على يد تيموجين

بعد أن تخلصت الأمم المغولية من النير الأجنبى ، أصبح من الضرورى لها أن توحد صفوفها ٠ وقد أخذ رؤساء أمة المغول على عاتقهم اتمام هذه الغاية ولاقوا في سبيلها كثيرا من المصاعب وعلى الأخص من آمة التتار التى كانت في ذلك

(١) Howorth, Vol. IV. pp. 7-8.
و D. Ohsson, Tome I, pp. 2-3.

الـوقت أكبر الأمم المغولية حتى كان الصينيون يطلقون اسمها على جميع الأمم المغولية ، التى عز عليها أن تتقدمها أمة المغول . وان التاريخ ليذكر لنا كثيرا من الحروب التى خاضها رؤساء أمة المغول مثل كابل وكوبلاى Kubilay ويسوجاى Yesugai ضد أمة التتار (١) .

وقد كان لتيموجين بن يسوجاى الفضل الأكبر فى جعل وحدة الأمم المغولية أمرا واقعا . وقد بذل فى هذا السبيل مجهودا جبارا لأنه حين عزم على تنفيذ فكرة الوحدة المغولية كان يتحدى جميع الأمم الأخرى الموجودة فى منغوليا بل والقبائل العديدة التى كانت تضمها أمة المغول نفسها .

ولو أننا أردنا أن نحصر الحروب التى قام بها تيموجين فى سبيل ضم سكان منغوليا جميعهم تحت سلطانه ؛ لألفيناها على نوعين : الأول عبارة عن حروب كانت تقع بينه وبين مجموعات من الأمم المغولية التى كانت تتعاون فيما بينها عندما تحس بأن خطرا عاما يهددها من قبله ، والنوع الثانى عبارة عن حروب فردية كانت تقوم بها أمم منغوليا المختلفة دفاعا عن نفسها حين كان تيموجين يهاجمها .

(أ) حروب تيموجين مع الأمم المغولية المتحالفة :

من قبيل المقاومة الاجماعية التى تعرض لها تيموجين ماحدث فى السنوات الثلاث ١٢٠٠ و ١٢٠١ و ١٢٠٢ . ففى سنة ١٢٠٠ ميلادية تعاقدت قبائل كثيرة على مناهضة تيموجين على أثر انتصاره على قبيلة التادجوت المغولية وحلف رؤساء هذه القبائل أن يتعاونوا فيما بينهم ويتآزروا حتى يكون النصر حليفهم ، ولكن تيموجين علم بخبرهم من حميه ، أحد هؤلاء الرؤساء المتعاقدين وسارع اليهم وفاجأهم بالقرب من

(١) D. Ohsson, Tom I, pp. 33-35.
Camb, Mod, Hist., Vol. IV, p. 632.

بحيرة بويور وفرق جموعهم وهزم كثيرا من رؤسائهم فى سهل تيموركين Temourkin (١) . وفى سنة ١٢٠١ ميلادية، اتفقت أيضا قبائل عديدة على مناوأته واجتمع رؤساؤها واختاروا رئيسا لهم لينظم جهودهم وليكون لعملهم أثر أعظم من المرة السابقة . وقد اضطر تيموجين الى ملاقاتهم وتفريق جموعهم . أما فى سنة ١٢٠٢ ميلادية ، فقد جمع ملك المركيت واسمك توكتا Toucta وبويوروك Boyourouk اخو ملك النيمان قبائل كثيرة ضد تيموجين ولكن قسوة المناخ ساعدت على تبديد شملها وأنجت تيموجين من خطر جسيم كان يتهدده ، خصوصا وأن العلاقات بينه وبين حليفه وانج خان ملك الكريت كانت قد ساءت فى ذلك الوقت حتى انهما عندما خرجا لملاقاة هذه العصبة من الأعداء تنازعا ، وقامت الحرب بينهما (٢) .

(ب) حروب تيموجين الفردية : أما المقاومة الفردية التى لاقاها تيموجين فى سبيل توحيد الأمم المغولية فقد كانت ضد أمم المركيت والنيمان والتتار والكريت التى قامت ضده مدافعة عن أملاكها واستقلال بلادها .

١ ـ حرب المركيت : كانت أمة المركيت حين هاجمها تيموجين يرأسها ملك اسمه تكتا ، كما كانت تشمل أربع قبائل . وقد بدأ تيموجين حروبه فيها سنة ١١٩٧م ولكنها لم تخضع له الا فى سنة ١٢٠٤م ، أى أنها ظلت تقاوم سبع سنوات طوال ، لاقت فيها كثيرا من أعمال العسف والشدة . وفى أول حروب تيموجين فى بلاد المركيت كان يساعده

---

(١) D. Ohsson, Tome I, pp. 60-62.

(٢) D'Ohsson, Tome I, pp. 63, 65-66

وانج خان (١) ملك الكريت الذى أصبح له حليفا منذ عام واحد وقد حصلا على غنائم كثيرة • وفى السنة التى بعدها (١١٩٨م) لم يخرج تيموجين الى بلاد المركيت بل خرج حليفه وانج خان وحده وهاجمها واضطر ملكها الى الفرار كما قتل أحد ابنيه وأسر الابن الثانى • ولما أبى تكتا أن يخضع لتيموجين بعد ذلك اضطر الى ترك بلاده سنة ١٢٠٤م وحينئذ تتبع تيموجين القبائل المركيتية وأخضعها بالقوة واحدة بعد أخرى (٢) •

٢ ــ حرب النيمان : ولما هاجم تيموجين أمة النيمان كانت الظروف مواتية له ؛ لأن عرشها كان يتنازعه الاخوان تاى بوقا Tai Bouca وهو الاكبر وكان يقيم حيث كان يقيم أبوه فى السهول كما كان يحمل اللقب الصينى تاى وانج Tai Vang ومعناها الملك العظيم ، وذلك الأخ هو المعروف فى التاريخ باسم تيانج النطق المغولى للكلمة الصينية المذكورة • أما الأخ الثانى بويوروك وهو الأصغر فكان يقيم فى المنطقة الجبلية القريبة من سلسلة جبال ألتاى • وقد كان من السهل على تيموجين أن يخضع أمة النيمان لسلطانه فى وقت قصير الا أنه حين سار اليها سنة ١١٩٩ م كان معه حليفه وانج خان ، وما كاد يتخذ لجيشه مكانا استعدادا للمعركة حتى انسحب هذا الحليف واضطر هو بدوره الى التقهقر وترك بلاد النيمان • ولم يستعد تيموجين استعدادا تاما لاخضاع النيمان الا فى سنة ١٢٠٤م حين علم أن تيانج خان يحاول أن يكون تحالفا ضده ، فقد جمع

(١) ذكره ابن العبرى فى كتابه تاريخ مختصر الدول ص ٣٩٤ باسم أونك خان وقال وهو المسمى ملك يوحنا من القبيلة التى يقال لها كريت ، وذكر أن تيموجين كان يخدمه من صغره •

(٢) D'Ohsson Tome I, pp. 55, 90.

مجلسا عاما ليقرر ما يتبع بشأنه ثم سار بجيشه لملاقاته واشتبك معه في معركة انتهت بانتصاره وقتل تيانج خان وتفريق أتباعه . على أن بلاد النيمان لم تخضع الا في سنة ١٢٠٦م بعد أن قتل بويوروك الذى كان قد حل محل تيانج خان واستولى على أملاكه وقطعانه وبعد أن اضطر كشلوك ابن تيانج خان الذى كان مع عمه الى الفرار (١) .

٣ ــ حرب التتار : أما أمة التتار فقد ناوات تيموجين مناوأة شديدة حين أراد أن يخضعها سلطانه . اذ انضمت الى كل تحالف عقدته القبائل لمناهضته ، سواء أكان ذلك فى سنة ١٢٠٠م أم سنة ١٢٠١م . وقد كان مسلكها هذا نحوه يتفق مع مسلكها نحو أبيه وجده من قبله ، وكانت تزكيه وتزيد أواره روح الكراهة المتأصلة بينها وبين أمة المغول . واذا كان تيموجين قد هاجم هذه الأمة سنة ١٢٠٢م وهزم قبيلتين من قبائلها ، فانه لم يلبث بعد أن انتصر على تيانج خان ملك النيمان وبعد أن أخضع أمة المركيت أن سار اليها وأخضع قبائلها وقتل كثيرا من أفرادها (٢) .

٤ ــ حرب الكريت : لقى تيموجين مقاومة من أمة الكريت لا تقل عما لقيه من غيرها وقد كانت هذه الامة بفضل محالفة ملكها وانج خان لتيموجين من أركن الأمم اليه ولكنها بعد أن انسحب وانج خان ملكها من الميدان عندما كان يرافق تيموجين فى حربه الأولى ضد أمة النيمان كما سبق أن ذكرنا أصبحت تقاوم تيموجين كغيرها من الأمم التى تقيم فى منغوليا . وقد تحالف تيموجين ومن ورائه أمة المغول ووانج خان ومن ورائه أمة الكريت مدة لا بأس بها

(١) D'Ohsson Tome I, pp. 55-59, 83-88, 90, 161.

(٢) Ibid., pp. 60-63, 92-93.

واشتركوا في كثير من الحروب ضد أعدائهم ، الا أن الحـــال ما لبث أن تغير والشقاق ما لبث أن أخذ طريقه بين تيموجين ووانج خان وقامت الحرب بينهما وانتهت بقتل وانج خان . وتبع ذلك مهاجمة تيموجين لأمة الكريت واخضاعه لها(١) .

وقد تم بذلك ما كان يرمى اليه تيموجين من توحيد الأمم التى كانت تقيم فى منغوليا لسلطانه ولم تشذ آمة من الأمم عن الخضوع له ، وهكذا أصبح تيموجين وتحت حكمه كتلة كبيرة واســتحق لقب جنــكيزخان ومعناه ملك الأقوياء أو الملك صـــاحب القــوة والبطش ، الذى منحه له مجلس عام أوقوريلتان Curiltai عندما اجتمع سنة ١٢٠٦م(٢) . وقد ذكر القلقشندى آن اسمه فى الأصل تمرجين وأنه لـــا عظم شأنه سمى جنكيزخان (٣) .

---

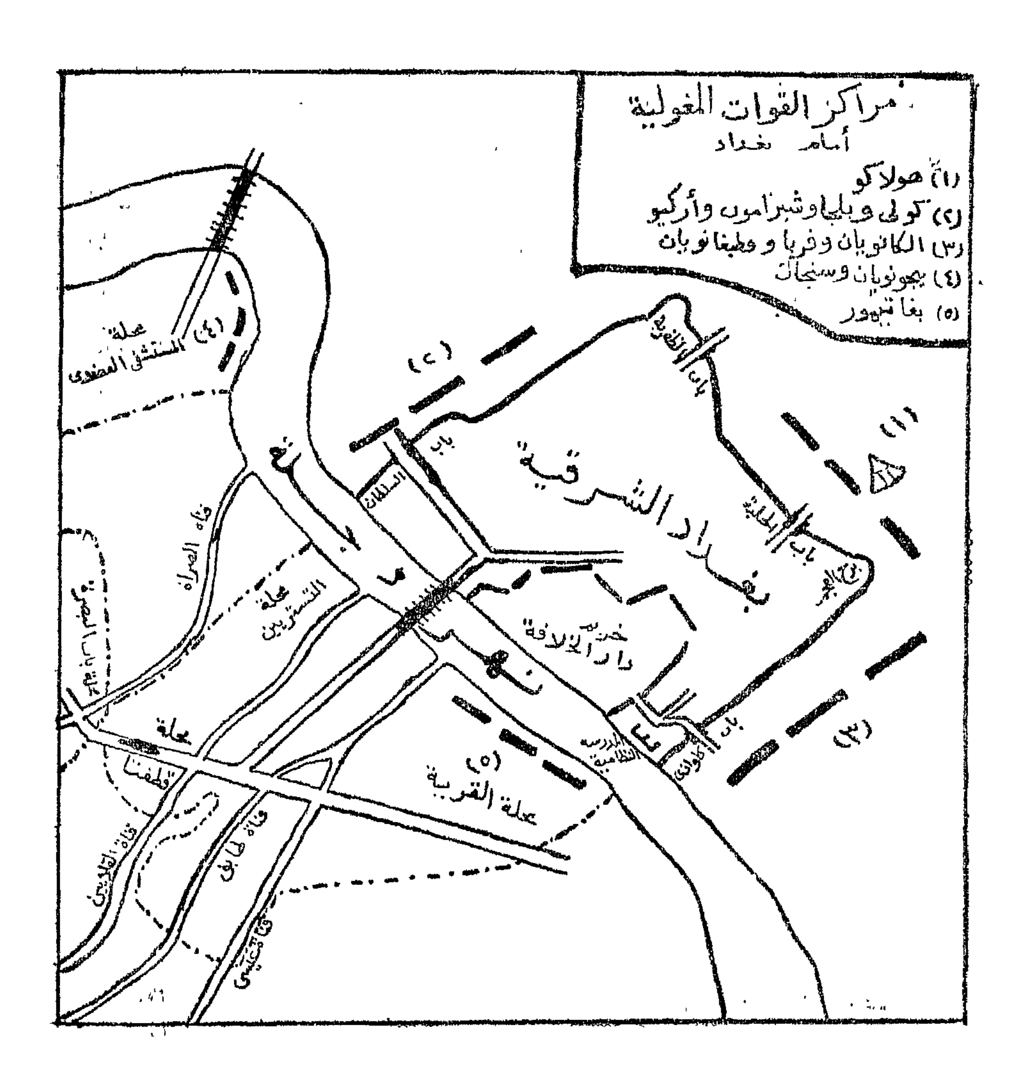
(١) D'Ohsson, Tome I, pp. 69-83.

(٢) Ibid., pp. 98-99.

و Howorth, vol. I, p. 54. ...

و Cam. Med. Hist., vol. IV, p. 632.

(٣) صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ .


مراكز القوات المغولية
أمام بغداد
(١) هولاكو
(٢) كوكى وبليا وشيرامون وأركيو
(٣) الكانوبان وقريا و وطيغانوبان
(٤) بيجونويان وسنجاك
(٥) بغا تيمور
بغداد الشرقية
باب الظفرية
باب السلطان
باب الحلبة
برج العجم
دار الخلافة
المدرسة النظامية
باب كلواذى
محلة القرية
محلة التستريين
قناة الصراة
قناة طابق
قناة عيسى
محلة قطفتا
(٢)
(١)
(٣)
(٤)
(٥)

الفصل الثالث

التوسع المغولى في آسيا وأوربا

سنتكلم فى هذا الفصل عما بذله المغول فى أيام جنكيز خان وخلفائه أجطاى وكيوك من مجهودات فى سبيل تكوين امبراطوريتهم التى شملت معظم قارة آسيا وامتدت الى أوروبا • وذلك لأن أعمال الفتح التى قام بها المغول كانت سلسلة متصلة الحلقات وسلما متتالى الدرجات ، وليس من المنطق أن نتكلم على ازالتهم للخلافة العباسية فى عهد الخان الأعظم مانجو قبل أن نذكر ما قاموا به من حروب فى عهود من سبقه من الخانات وما أتمسوه من فتوحات فى تلك العهود هيأت لهم سبيل القرب من أملاك الخلفاء العباسيين بل وجعلت استيلاءهم عليها أمرا لابد منه •

١ ـ عهد جنكيز خان

لم تكن الوحدة المغولية هى كل ما تم فى أيام جنكيز خان بل ان أكبر الفضل فى وضع سياسة للتوسع المغولى يرجع الى ذلك العاهل العظيم • وقد سار جنكيز خان شوطا بعيدا فى تنفيذ سياسة التوسع ولم تقتصر فتوحاته على جهة من الجهات بل شملت كل الجهات المجاورة لمنغوليا تقريبا • ويمكن حصر الكلام على ما تم فى عهده من الفتوحات فى ثلاث مراحل •

(أ) المرحلة الأولى : تبدأ المرحلة الأولى من سنة ١٢٠٧م وتنتهى سنة ١٢١١م • وقد تم فيها اخضاع عدة امارات صغيرة تركية بين منغوليا وتركستان لنفوذ جنكيزخان وتلك الامارات هى امارة السكمكمجوت Kemkemjoutes وامارة القرغيز Kirghiz وامارة الويغور Ouighurs وامارة كيالج Kialeg وأمارة الملغ Almaleg ، وجميعها كانت تعترف بسلطان امبراطور القره خطاى أو الخطا قبل أن تخضع لجنكيز خان • ولم يبذل جنكيز خان مجهودا فى اخضاعها بل أنه بمجرد وصول رسله اليها ودعوتهم لها الى الخضوع أجابت دعوتهم • ويرجع ذلك الى سوء حكم أباطرة الخطا واستبدادهم بمن يتصل بهم • وقد أراد جنكيز خان أن يكسب علاقته بهذه الامارات قوة بغير طريق العسف والشدة فزوج أمير كيالج وأمير الملغ بأميرتين من بيته ، كما زوج ابنته للملك الويغور (١) •

(ب) المرحلة الثانية : أما المرحلة الثانية فتبدأ سنة ١٢١١م وتنتهى سنة ١٢١٨م وتشمل مجهودات جنكيز خان وحربه ضد مملكة هيا Hia أو التنجوت الصغيرة التى كانت تقع بين أملاك جنكيز خان وامبراطورية أسرة كين فى الصين الشمالية وأيضا ضد امبراطورية أسرة كين نفسها وضد كوريا أيضا ، وقد انتهت هذه المرحلة بخضوع

---

(١) D'Ohsson, Tome I, pp. 95, 101-111.

ذكر ابن العبرى هذه الامارات فى كتابه تاريخ مختصر الدول فى صفحات ٣٩٦ و ٣٩٨ و ٣٩٩ و ٤٢٦ على هذا النحو : الأيغور وقباليغ أو قياليغ والماليغ (ال التعريف) وبلاد قراخطا وذكر أن هذا اللفظ كان يطلق على امير بلاد الايغور وتنكوت •

وجاء فى صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٨٣ « بلاد الخطا بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألف فى الآخر وهم جنس من الترك بلادهم فى متاخمة بلاد الصين » •

وقد اتبعت ما ذكره مؤرخو الفرنجة لانهم اكثر دقة واوسع اطلاعا فيما يختص بدراسة المغول •

كوريا ومملكة التنجوت وانتشار نفوذ المغول فى الجزء الواقع شمال النهر الأصفر من امبراطورية آسرة كين وفى المنطقة التى كانت لا تزال باقية للخطا والتى كان أهلها يسمون لياوتنج Leao-Tong (١) .

(ج) المرحلة الثالثة : بدأت المرحلة الثالثة سنة ١٢١٨م وكان ميدانها فى غرب آسيا لا فى شرقها ، وكانت عبارة عن حروب شديدة شنها جنكيز خان على الامبراطورية الخوارزمية التى كانت تمتد من نهر السند شرقا الى كردستان وخوزستان والخليج الفارسى غربا ومن سواحل بحر آرال وبحر قزوين شمالا الى المحيط الهندى جنوبا ، وتشمل بين أهم بلادها أذربيجان والعراق العجمى وفارس وكرمان ومكران وسستان وخراسان وأفغانستان والبامير والصغد وما وراء النهر (٢) وقد ظلت هذه الحرب نحو خمس سنوات أى حتى سنة ١٢٢٣م استولى فيها جنكيز خان على كثير من مدن ما وراء النهر وأهمها بخارى وسمرقند وترمذ ، ثم عبر نهر جيحون وفتح بلخ والطالقان وباميان بينما فتحت جيوشه حوض نهر سيحون وخوارزم وخراسان وتتبع قسم منها يعرف فى التاريخ باسم المغول المغربة محمد خوارزمشاه الذى أخذ

---

(١) D'Ohsson Tome I, pp. 123-162.
و Howorth, Vol. I, p. 135.
و Cam. med. hist., Vol. IV, pp. 633-637.

(٢) Cam. med., hist., IV, p. 633, D'Ohsson, Tome I, p. 175.
الصغد بالضم ثم السكون واخره دال مهملة .. كورة عجيبة قصبتها سمرقند ، وترمذ ، مدينة مشهورة من أمهات المدن راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقى .. وطالقان بعد الألف لام مفتوحة وقاف واخره نون بلدة بين مرو الروذ وبلخ وبينها وبين مرو الروذ ثلاث مراحل .

« راجع هذه الأسماء فى معجم البلدان لياقوت » .

يتنقل مسرعان من نيسابور الى قزوين الى جيلان الى مازندران الى جزيرة عند مصب نهر جرجان فى بحر قزوين حيث مات ثم بعد ذلك سار المغول المغربة حتى دخلوا روسيا بعد أن عبروا جبال القوقاز (١) ٠

وقد قامت الحروب بعد موت محمد خوارزمشاه بين ابنه جلال الدين وبين جنكيزخان فارسل جنكيزخان جيشا الى خوارزم هزمه جلال الدين ، ثم تلاقى بعد ذلك الاثنان عند نهر السند ودارت بينهما معركة حمى وطيسها وأظهر فيها جلال الدين شجاعة أرعبت عدوه ، الا أن انسحاب جزء من جيشه بسبب النزاع بين قواده أضعفه واضطره الى عبور نهر السند الى الهند ٠ وقد بقى جنكيزخان بعد ذلك مدة قصيرة على شاطىء نهر السند أرسل فيها قائدين من قواده لاقتفاء أثر جلال الدين فى الهند ، كما أرسل ابنه أجطاى الى غزنة فخربها ، وارسل جيشا غير هذه الجيوش فتح هراة وخربها كما فتح مرو وخربها ، ولما عادت هذه الجيوش اليه عزم على العودة الى منغوليا فى ربيع سنة ١٢٢٣م وقد أراد فى أول الأمر أن يعود عن طريق الهند والتبت وسار فعلا بعض المراحل ولكنه غير رأيه وسار عن طريق فارس وما وراء النهر ، أى اتبع فى عودته الطريق التى سلكها عند

---

(١) ياقوت ــ معجم البلدان ج ٨ ص ٢٥٧ ــ ٨ و ج ٧ ص ٢٧٣ وابن العبرى ، ص ٤٠٢ و ٤١١ ٠

و D'Ohsson,, Tome I, pp. 216-292.
و Howorth, Vol. I, pp. 77-86.
و Browne, Lit, his. of persia. II, p. 438.
و Raverty, Tabakat-i-nasiri (trans), p. 377 note 5.

مجيئه فوصل الى قصره فى منغوليا فى شهر فبراير سنة ١٢٢٥م (١) ٠

وعلى ذلك فقد سار جنكيزخان شوطا بعيدا فى سبيل ضم معظم غربى آسيا الى ممتلكات المغول ، كما أنه ثبت قدم المغول فى جزء واسع من شمالى الصين ووجه أنظارهم الى البلاد الصينية ٠ وقد مات جنكيزخان فى ١٨ أغسطس سنة ١٢٢٧م وهو يحارب فى بلاد التنجوت (٢) ٠

٢ ـ عهد خلفاء جنكيزخان (أجطاى وكيوك)

(أ) نشر نفوذ المغول فى الصين : لم يأل خلفاء جنكيزخان جهدا فى اتباع الطريق الذى سلكه ؛ ولذلك فان ابنه أجطاى عندما خلفه على العرش عول على اخضاع أمراء آسرة كين الذين ثاروا على المغول على أثر موت جنكيزخان وهزموهم مرتين فى سنة ١٢٢٨م وفى سنة ١٢٣٠م ، وقد سار على رأس جيش كبير كما سير أخاه تولى Tulé الى هونان وكانت النتيجة أن انتصر المغول واكتسحوا أسرة كين من الوجود وأتموا اخضاع الصين الشمالية نهائيا ، بعد ان ظل أفراد هذه الأسرة يحكمون ١١٨ سنة (٣) ٠

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٣٥ و ٤٥١ ، وابن العبرى ، ص ٤١١ ـ ٤١٣ ٠
D. Ohsson, Tome I, pp. 296-323.

« غزنة » ولاية واسعة فى طرف خراسان وهى الحد بين خراسان والهند ٠
راجع لفظ غزنة فى معجم البلدان لياقوت ٠

(٢) D'Ohsson, Tome I, pp. 380-1.

(٣) D'Ohsson, Tome II, pp. 16-56.
و Howorth, Vol. I, p. 125.
و Camb. med. hist., IV, p. 625.

ذكر ابن العبرى ص ٣٩٥ أن جنكيز خان كان له اربعة أولاد من زوجته الخاتون الكبيرة وذكر أسماءهم كالآتى : توشى ، جعاتاى ، أوكتاى ، تولى ٠

هذا فى الصين الشمالية ، أما فى الصين الجنوبية فقد عول أجطاى على تنفيذ رغبة جنكيزخان الذى جهز حملة لغزوها ولكنه مات قبل انفاذها • ولم يمنع أجطاى عن تحقيق هذا الغرض مساعدة ملكها له فى حربه ضد أمراء أسرة كين ، بل انه وقد وعد الملك باعطائه هونان جزاء تلك المساعدة عاد فأخلف الوعد، ولم يكتف بذلك بل فكر أنه حين بدأ محاربة آسرة كين طلب من هذا الملك ان يسمح لجيوشه بالمرور فى أرضه ولكنه أبى وحين أرسل اليه رسولا لهذا الغرض قتله ، ورأى فى أعماله هذه سببا وجيها لاعلان الحرب عليه ، وسير حملة ضد الصين الجنوبية سنة ١٢٥٣م فكان ذلك اتباعا للطريق الذى اختطه جنكيزخان وان لم تكن نتيجة هذه الحملة حاسمة (١) • وقد سار خلفاء أجطاى على هذا النمط نحو الصين الجنوبية ولم يفز أحد منهم بنتيجة نهائية بل كانت جيوشهم تغير على بعض المقاطعات وتستولى على بعض المدن ثم لا تلبث ان تعود منها غير عابئة الا بالحصول على الغنائم (٢) •

أما فى كوريا فقد اشتد النزاع بين ملكها وأجطاى وكثرت الثورات ضد المغول حتى انه فى سنة ١٢٣١م قتل رسول الخان وكان ذلك سببا فى ارسال حملة بقيادة سابوتاى Sabutai الذى انتصر وعين حكاما من المغول فى كثير من مدن كوريا • وفى سنة ١٢٣٢م، ثار أهل كوريا وقتلوا كثيرا من هؤلاء الحكام المغوليين وخاف ملك كوريا وفر الى جزيرة سيانج هوا Siang Hua على ساحل كوريا الغربى فاستدعاه

(١) D'Ohsson, Tome II, pp. 76-83.
» Howorth, Vol. I, p. 137.
» Cam. med. hist. IV p. 637.
(٢) D'Ohsson, Tome II, p. 276.

أجطاى ليجيب أمامه عن تلك الحوادث ولكنه رفض فكان ذلك سببا فى ارسال حملة ضده سنة ١٢٣٥م · ولم تأت سنة ١٢٤١م حتى خضع ملك كوريا ووعده بدفع جزية سنوية وارسال رهائن الى أجطاى (١) وظل الحال على ذلك أيام الخان سانجو ·

(ب) نشر نفوذ المغول فى أوربا : كانت حملة المغول المغربة سببا فى توجيه نظر المغول الى أوربا ، فلما مات جنكيزخان وتولى العرش ابنه أجطاى قام المغول بأعظم حروبهم فى اوربا · ومما يدل على اهتمام اجطاى بغزو أوربا أنه حين جهز سنة ١٢٣٥م الجيوش لغزو الصين الجنوبية وكوريا لم ينس أن يجهز جيشا ثالثا ليوجهه الى ما وراء نهر الفلجا كما أنه كان عازما على قيادته بنفسه وعندما اضطرته الظروف الى البقاء تخلى عن القيادة الى باتو ابن أخيه جوجى ، وأرسل معه أبناءه وأبناء اخوته(٢) ·

وقد سار هذا الجيش بسرعة كعادة الجيوش المغولية وخرب بلادا كثيرة من أهمها موسكو وفلدمير كما استعمل القسوة الشديدة ضد مدينة كسلسك Koselsk التى سماها المغول موباليج Mobalig ومعناها مدينة الآلام ؛ مما يدل على أنهم أحسوا بقسوتهم حيالها · ولم تنج نفجرود منه الا لذوبان الثلوج وتحول الاقليم المحيط بها الى مستنقع لا يمكن

---

(١) D'Ohsson, II, pp. 72-75.
و Howorth, Vol. I, p. 135.
و Cam. med. hist., IV, p. 637.

(٢) D'Ohsson, Tome II, p. 276.

عبوره . ولم تأت سنة ١٢٠٤م حتى كان قد قارب نهر الدنيبر وخرب مدينة برسلاف Pereslave وشرنيجوف Chernigov وجلوكوف Glokhov ثم استولى على مدينة كيف Kiev (١) . وانقسم الجيش المغولى بعد ذلك الى قسمين سار أحدهما الى الشمال قاصدا بولندة وسار الثانى الى الجنوب الغربى قاصدا بلغاريا . أما القسم الشمالى الغربى فتمكن من هزيمة هنرى دوق سيليسيا سنة ١٢٤١م ومعه أشراف بولندة ورئيس الفرسان اليوتون فى لينتز هزيمة ساحقة وأدخل الرعب فى أوربا الغربية كلها من جراء هذا الانتصار ومن جراء أعمال القتل التى قام بها والتى راح ضحيتها كثيرون من الأشراف والبطارقة والراهبات والأطفال . بينما القسم الذى سار نحو الجنوب الغربى عبر الكربات بقيادة باتو واكتسح فرسان هنغاريا فى موهى Mohi على نهر نيس واضطر الملك بيلا الرابع Belaiv الى الفرار نحو الادرياتيك، ولم يكتف بذلك بل عبر نهر الدانوب واستولى على جران Gran ولولا موت أجطاى الذى استدعى باتو وقواده الى بلادهم ، لما وجد أقل شك فى مشاركة باريس وروما لكيف وموسكو فى مصيرهما (٢) . وعلى العموم فقد شمل عذاب المغول فى حملتهم هذه أوربا الشرقية والوسطى وامتد حتى حدود ألمانيا الشرقية ولم تنج منه البوسنة ولا بلغاريا ولا الصرب (٣) كما أن هذه الحملة كانت أعظم مجهودات خلفاء جنكيزخان فى أوربا بل ويمكن اعتبارها الأولى والأخيرة .

---

(١) D'Ohsson, Tome II, pp. 114-122.

(٢) Ibid., pp. 124-160.

و Cam. med. hist., Vol. IV, p. 637.

(٣) Gibbon, decline & fall of the Roman Empire (Ed. Bury). Vol. VII, p. 17.

(ج) نشر نفوذ المغول فى غرب آسيا : بعد عودة جنكيزخان الى بلاده رجع جلال الدين من الهند وأخذ يجمع شتات الامبراطورية الخوارزمية ، وقد وفق الى حد كبير وأصبحت سلطته منتشرة في خراسان وكرمان والعراق العجمى وفارس وآذربيجان ، كما هزم الكرج ونهب بلاد الاسماعيلية وقتل منهم عددا كبيرا وفرض عليهم جزية ثقيلة ، كما استولى على خلاط ولم يتركها الا بعد أن تحالف صاحبها الملك الأشرف مع علاء الدين صاحب بلاد الروم وهزمه (١) .

وكان المغول يناوئون جلال الدين فى أول الأمر بغير نجاح حتى اذا تولى أجطاى أمرهم بعد موت أبيه، أرسل جيشا قويا استولى على الرى وهمذان وما بينهما من البلاد ثم قصد أذربيجان وخرب ونهب وقتل من ظفر به من آهلها ثم أوقع بجلال الدين ليلا وهو بظاهر آمد سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١م) فتشتت عسكره آيدى سبأ وفر هو الى الجبال حيث قتله أحد الأكراد (٢) وبذلك قضى المغول على الدولة الخوارزمية وأصبح نفوذهم تاما فى ما وراء النهر وخراسان والعراق العجمى وفارس .

---

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ١٩٥ ـ ٢٢٧ .
D'Ohsson, Tome III, pp. 1-21, 34-47.
« الكرج بالضم ثم السكون واخره جيم وهو جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون فى جبال القبق وبلد السرير فقويت شوكتهم حتى ملكوا تفليس ولهم ولاية تنسب اليهم وملك ولغة ... وشوكة وقوة وكثرة وعدد » .

راجع لفظ كرج فى معجم البلدان لياقوت .

(٢) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ٢١٧ و ٢٢٠ و ٢٣٠ ـ ٢٣٢ والذهبى ، دول الاسلام، ج ٢ ، ص ١٠١ وابن العبرى ، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢ .

و D'Ohsson, Tome III, pp. 23-27, 47-62.
و Howorth. Vol. I, p. 125.
و Raverty (Trans.), Tabakat-i-iNasiri, p. 298, note 1.

وقد ذكر ابن الأثير أن ارسال هذا الجيش المغولى الذى قضى على جلال الدين كان بناء على طلب الحشيشية بسبب سوء معاملة جلال الدين لهم (١) ، فاذا كان هذا صحيحا فانه يدل بلا شك على قصر نظر المسلمين فى ذلك الوقت وتعاديهم فيما بينهم وعدم تعاونهم، كما يرينا كيف جر المسلمون على أنفسهم البلاء فقد كان محمد خوارزمشاه حاجزا منيعا بين الخلافة العباسية والخطر المغولى عمل الخليفة الناصر على ازالته ثم جاء جلال الدين وحاول أن يقيم هذا الحاجز ويحمى العالم الاسلامى من شر المغول فلم يساعده أحد بل ووقع الحشيشية فى الخطأ الذى وقع فيه الخليفة من قبلهم .

ولم تقتصر مجهودات جنكيزخان على اتمام ما بداه بالقضاء على الدولة الخوارزمية بل امتدت اطماعهم شيئا فشيئا ، وقد تم فى أيام أجطاى اخضاع جزء كبير من الجهات الباقية فى غرب آسيا ، فوعدت أذربيجان بدفع جزية كما وعد كثير من أمراء بلاد الكرج بمثل ذلك وان كانت روسودان Rousoudan ملكة تلك البلاد قاومت المغول مدة طويلة ولجأت الى قلعة أوزانث ، أما أرمينية فخربت عاصمتها آنى Ani وقتل كثير من أهلها لأنها قاومت المغول الذين ظلوا يحاصرونها زمنا طويلا، كما عوملت قارص ـ احدى مدنها ـ معاملة سيئة على الرغم من أنها سارعت بتقديم مفاتيحها الى المغول ولم ينج من مذبحتها الا الأطفال والصناع ، ولكن المغول بعد ذلك عاملوا أرمينية كما عاملوا غيرها ؛ اذ قبلوا منها الجزية المعتدلة كما أعادوا أمراءها اليها وذلك على أثر ذهاب الأمير الأرمنى أواك Avak وأخيه تماتا Thamata

---

(١) ابن الأثير، ج ١٢ ، ص ٢٢٠ .

الى بلاط أجطاى سنة ١٢٤٠م واستقباله لهما استقبالا حسنا (١) ٠

بعد موت أجطاى سنة ١٢٤١م استمر تقدم المغول فى غرب آسيا وظل هذا التقدم طوال المدة التى كانت فيها تيركينا أرملة أجطاى ووالدة كيوك صاحبة الامر والنهى (١٢٤١ ـ ١٢٤٦م) ٠ وفى عهد كيوك (١٢٤٦ ـ ١٢٤٨م) واوائل عهد مانجو ، فقد أغار المغول على أرزن الروم سنة ١٢٤٣م (٦٤١هـ) واستولوا عليها وقتلوا حاميتها وأسروا كثيرا من أهلها ، كما حاربوا السلطان غياث الدين كيخسرو سلطان الروم السلاجقة فى آسيا الصغرى ، واضطروه الى دفع جزية سنوية قدرها أربعمائة ألف دينار وعدد من العبيد والخيل والأشياء الثمينة ٠ كما دخل فى نفس الوقت قسم آخر منهم الشام وتقدم حتى حلب وعاد بعد أن دفعت لهم مبلغا من المال ، وفى عودته قدم له حاكم ملطيه الخضوع كما قدم كمية من النقود والأوانى الذهبية والفضية ، وقبل حاكم أنطاكية وغيره من حكام المدن المسيحية دفع جزية سنوية ، وكذلك فعل هيتون ملك قيليقية أو أرمينية الصغرى وتسلم شهادة بأنه من أقيال الخان ، كما دفعت الموصل لهم جزية سنوية(٢) ٠ ومعنى ذلك أن سلطة المغول فى تلك الأيام انتشرت فى أملاك الدولة الخوارزمية البائدة وفى آسيا الصغرى وفى شمالى الشام ٠

---

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 71, 75-78.
و Howorth, Vol. I, pp. 132-133.

(٢) D'Ohsson, Tome III, pp. 79-88.
و Howorth, I, p. 106.

(د) غارات المغول على أملاك الخلافة العباسية : يجب ألا ننسى أن الخلافة العباسية لم تسلم من هجمات المغول في ذلك الوقت وأنهم منذ تخلصوا من جلال الدين خوارزمشاه سنة ٦٢٨هـ أخذوا يشنون الغارات السنوية على العراق (١) وقد لاقى منهم المستنصر اكبر المتاعب واهتم بامرهم غاية الاهتمام فسير عدة رسل يستنجد الأشرف من مصر ويستنجد العربان وغيرهم ، كما أخرج الأموال وأخذ يجمع الجند من جميع أجزاء بلاده لمناهضتهم • ولما غزوا اربل سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٦م) ــ وكانت قد آلت الى الخليفة منذ سنة ٦٣٠ هـ بعد موت صاحبها مظفر الدين كوكبرى ابن زين الدين كوجك على ــ قتلوا كل من فيها وسبوا ونهبوا حتى نتنت من كثرة القتلى(٢) ثم رحلوا عنها الى الموصل ، وتربصت لهم قوات الخليفة حتى عادوا وهزمتهم عند جبل حمرين واضطرتهم الى ترك الأسرى الذين وقعوا في أيديهم عندما هاجموا اربل • ولكن هذا النصر لم يكن حاسما لأن المغول عادوا فانتصروا ثانية ثم ساروا شمالا(٣) • وقد غزا المغول العراق سنة ٦٣٥هـ ووصلوا حتى سامرا (٤) وافزعوا المستنصر واضطروه الى اعلان الجهاد بعد أن جمع مجلسا من العلماء وجعلهم يفتون بأن الغزو في سبيل الله خير من الحج الى بيت الله • وقد كان ذلك سببا في سريان روح الحماس في بغداد حتى صار العلماء والكبراء يخرجون من بغداد الى الصحراء يشجعون الجند في تدريبهم بل ويشاركونهم في

---

(١) Richard Coke, baghdad, p. 135.

(٢) المقريزى ــ السلوك ج ١ ، ص ٢٤٢ والذهبى ــ دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٠٤ و ٢٤٧ و ٢٥٥ •

(٣) الديار بكرى ــ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ج ٢ ، ص ٤١٤ • و Cam. med. hist., IV, p. 636.

(٤) ابن العبرى ، ص ٤٣٨ • و Muir, The Caliphate, p. 586.

هذا التدريب (١) حتى قيل انه استخدم من العساكر ما تزيد عدتها على مائة ألف انسان وانه استعان بالجند المرتزقة وأرسل الى الملك الكامل مائة ألف دينار ليستخدم له بهـا العساكر فاستخدم له بضعفها وردها غير منقوصة ثم أرسل له نجدة من لدنه تبلغ عشرة آلاف جندى ، وكانت نتيجة أعماله هذه أن طرد المغول (٢) ٠

وقد ظلت هجمات المغول على العراق العربى متوالية فى الفترة التى اعقبت موت اجطاى وفى حكم كيوك القصير ، كما بلغ تقدم المغول فى تلك الجهات أشده حتى انه فى سنة ٦٤٢هـ (١٢٥٤م) ـ التى اتخذ فيهـا الخليفة المستعصم مؤيد الدين محمد بن العلقمى أستاذ داره وزيرا له ـ علم الناس فى بغداد أن المغول دخلوا شهر زور وهى على مسيرة ثمانية أيام شمالى بغداد وخربوها واضطروا حاكمها من قبل الخليفة العباسى ملك الدين محمد بن صنقر الى اللجوء الى حصن منيع ٠ وفى سنة ٦٤٣هـ (١٢٤٦م) تقدموا حتى بعقوبا ، ولولا انتصار جيوش الخليفة بقيادة الدفتردار الصغير عليهم وصدها لهم لأضحوا خطرا كبيرا ٠ كما أنهم فى سنة ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) تقدموا حتى دقوقاء وقتلوا حاكمهـا ووصلت طائفة منهم الى بغداد نفسـها وهاجمتها على حين غفلة من أهلها وقتلت عددا كبيرا منهم ونهبت كثيرا من أقواتهم(٣)٠

---

(١) D'Ohsson, III, p. 74.
Coke, Baghdad, p. 135.

(٢) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٥ والديار بكرى ـ الخميس ، ج ٢ ، ص ٤١٤ ٠

و Muir, The Caliphate, p. 586.

و Sayéd, ameer Ali, A Short hist., p. 393.

(٣) المقريزى ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٣٢٠ و ٣٥٥ والذهبى ـ دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١١٢ ٠

أما حكم مانجوخان الذى انتخب سنة ١٢٥١م فقد امتاز بتقدم المغول المطرد نحو العراق العربى ، فقد دخلوا العراق العربى فى السنة الثانية من حكمه (٦٥٠ هـ ــ ١٢٥٢م) وخربوا ديار بكر وميافارقين وتقدموا حتى رأس عين وسروج وقتلوا أكثر من عشرة آلاف شخص وأسروا مثل ذلك ، كما أنهم هاجموا قافلة كبيرة كانت فى طريقها من حران الى بغداد وحصلوا منها على غنائم وافرة ، من بينها ستمائة حمل من السكر وكثير من نسيج القطن المصرى وستمائة ألف دينار ، وقتلوا الشيوخ والعجائز وساقوا النساء والصبيان معهم وعادوا بعد ذلك الى خلاط(١) . هذا الى أن سقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية كان فى أيام ذلك الخان العظيم وذلك ما سنتكلم عنه فى الباب الثالث .

---

(١) المقريزى ــ السلوك لمعرفة دول الملوك . ج ١ ، ص ٣٨٢ والذهبى ، دول الاسلام ج ٢ ، ص ١١٩ .

* بعقوبا بالفتح ثم السكون وضم القاف وسكون الواو والباء موحدة ... قرية كبيرة .. بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من أعمال طريق خراسان ... ودقوقاء بفتح أوله وضم ثانيه وبعد الواو قاف أخرى والف ممدودة ومقصورة . مدينة بين اربل وبغداد ... كان بها وقعة للخوارج .

وميافارقين .مدينة بديار بكر ...

ورأس عين ويقال رأس العين .. من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر .. وسروج فعول .. بلدة قريبة من حران من ديار مصر ... وخلاط بكسر أوله ، وهى قصبة أرمينية الوسطى »

(راجع هذه الأسماء فى معجم البلدان لياقوت).

البـــاب الثـــالث

الفتح المغولى للعر

الفصل الأول

بغداد قبيل الفتح المغولى

١ ـ طبوغرافية بغداد

أتم أبو جعفر المنصور بناء بغداد سنة ١٤٩هـ وكا
عبارة عن دائرة فى مركزها قصر الذهب والمسجد الجـ
تحيط بها منازل أبنائه ودواوين حكومته ، ومحيطها أسو
ثلاثة من اللبن متعاقبة ، بين الداخلى والأوسط مسافة عرض
٥١٠ ياردات يسكنها الأتباع ، وبين الأوسط والخارجى مسـ
يبلغ اتساعها ٥٠ ياردة خالية . وكانت محاور هذه الدا
شوارع أربعة فى نهايتها أبـواب كبيرة هى باب خراسـ
وباب الشام وباب الكوفة وباب البصرة (١) . ومنذ أوا
عهد المنصور أخذت بغداد فى الاتساع والنمو ولم تعد تقتصر
على تلك الدائرة ، ولم تؤثر فى نموها تلك الحـوادث ا
نزلت بهـا كالنزاع الذى قام بين الأمين والمـأمون وانتق

(١) الطبرى ، ج ٩ ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢ و ٢٣٩ ـ ٢٤١ .
والخطيب البغدادى ج ١ ، ص ٦٩ ـ ٨٣ . واليعقوبى ، ص ٢٣٩ ـ ٢٥٤ .
وابن الأثير ج ٥ ، ص ٢٦٥ و ٢٨٦ . ومعجم البلدان ج ٢ ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٦ . و تـ
ص ٢٥٤ وصبح الأعشى ج ٤ ، ص ٣٣٠ و Le Strangee pp. 18-27.

الخلفاء الى سامرا ووقوع الخلافة تحت سيطرة بنى بويه والسلاجقة ، وأصبحت ثلاثة أقسام : القسم الواقع على شاطىء دجلة الغربى ومن محلاته شارع دار الرقيق والحربية وباب البصرة والكرخ والمستشفى العضدى (١) ، والقسم الواقع على امتداد الجزء الشمالى من شاطىء دجلة الشرقى ومن محلاته الرصافة والشماسية والمخرم ومحلة القصور البويهية ، والقسم الواقع على امتداد الجزء الجنوبى من شاطىء دجلة الشرقى ويشمل حريم دار الخلافة الذى كان يحيط به سور ويوجد فى داخله القصر الحسنى وقصر التاج وقصر الفردوس (٢) ومحلات العامة التى كان منها المأمونية وباب الأزج ومسعودة والريان والمقتدية وقراح ظفر والقاضى وابن رزين وأبى الشحم والتى أحاطها جميعها الخليفة المستظهر وابنه المسترشد بسور عظيم (٣) .

وعلى الرغم من ان القرن السادس الهجرى شاهد استعادة الخلفاء العباسيين لسلطانهم بعد أن اغتصبه بنو بويه ثم السلاجقة أكثر من قرنين (٣٣٤ ــ ٥٤٧هـ) ، فان أقسام بغداد المختلفة فى ابانه وفى أوائل القرن السابع الذى تلاه فقدت كثيرا من عمارتها بسبب كثرة القلاقل والمنازعات التى كانت تقوم بين سكان المحلات المختلفة أو فيضانات دجلة

---

(١) البغدادى ج ١ ، ص ١١٩ ومعجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ و ٢٦٥ و ج ٥ ، ص ٢١١ و ٢٩١ و ج ٧ ، ص ٤٠٨ و Le Strange, pp. 232, 304-306.

(٢) البغدادى ، ج ١ ص ٩٩ ومعجم البلدان ج ٢ ، ص ٣٤٨ ــ ٣٥٠ و ج ٧ ، ص ٣٦٩ وصبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٣١ .
Le Strange, pp. 243-254.

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٠٤ و ٢٦٢ ومعجم البلدان ج ٢ ، ص ٣٤٩ ، و ج ٧ ، ص ٤١ و ٤٠٨ .
Le Strange, pp. 284-288.
و
جاء فى معجم البلدان ج ٧ ، ص ٤١ ، القراح بفتح أوله وتخفيف ثانيه وآخره حاء اصطلاح بغدادى فانهم يسمون البستان قراحا .

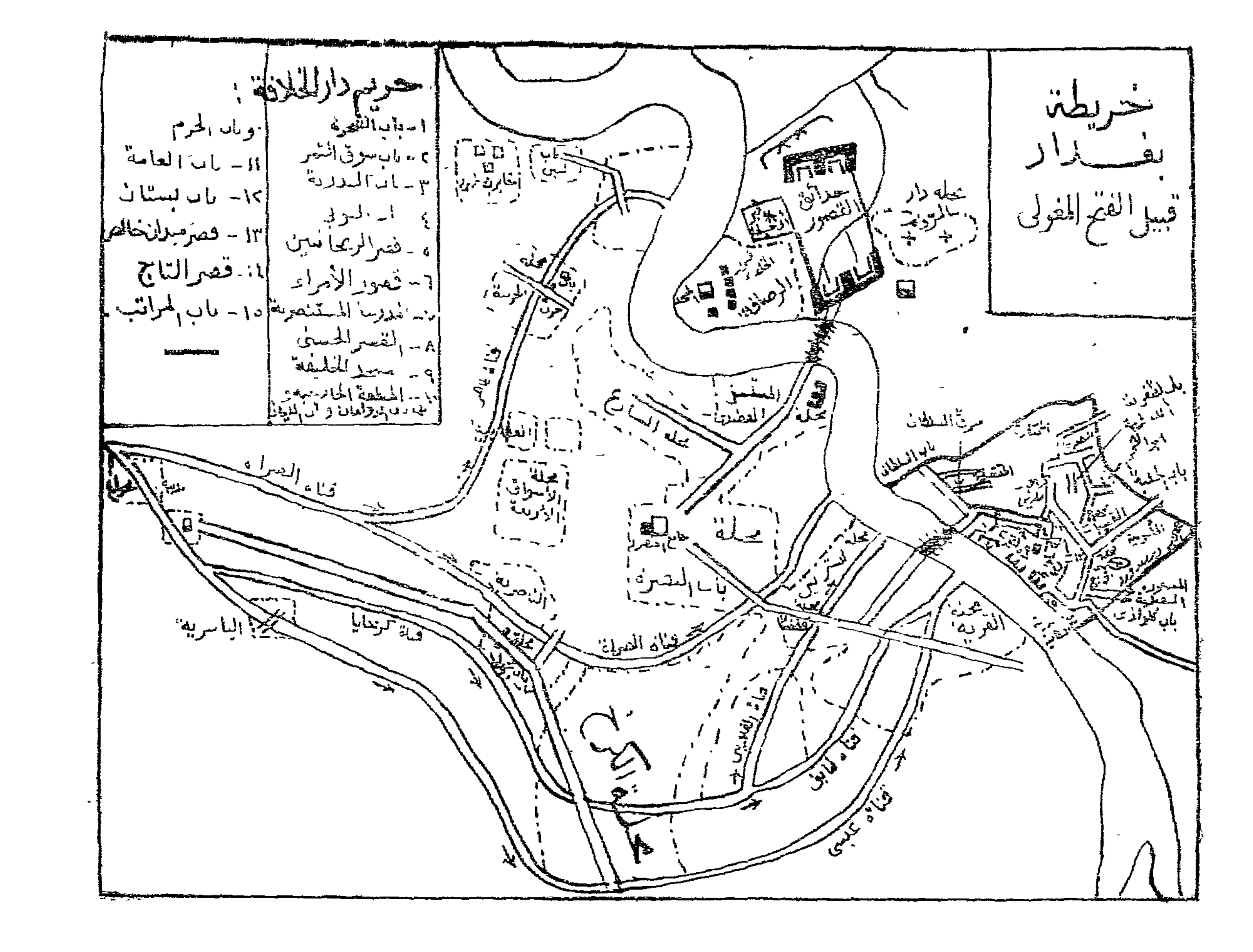
الكثيرة(١) ، وقد أثبت ذلك ابن جبير فى رحلته حيث قال : «هذه المدينة العتيقة ـ ان لم تزل حاضرة الخلافة السياسية ومثابة الدعوة الامامية القرشية الهاشمية ـ وقد ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها الا شهير اسمها ، وهى بالاضافة الى ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب اليها كالطلل الدارس والأثر الطامس أو تمثال الخيال الشاخص » (٢) .

ولو أننا أردنا أن نصف بغداد بأقسامها المختلفة عندما حاصرها هولاكو سنة ٦٥٩هـ لوجدنا أن هذه الأقسام : بغداد الشرقية الجديدة التى كان يقيم بها الخليفة المستعصم وحكومته والتى ركز المغول جهودهم لفتحها . وقد كانت قصور الخلفاء فى هذا القسم مختلفة عما كانت عليه فى الماضى، فقصر الفردوس كان قد تهدم وزالت معالمه ، والقصر الحسنى القديم كان قد تهدم أيضا ونشأت على أنقاضه منذ القرن الخامس الهجرى قصور أخرى تهدمت بدورها ثم نشأت على أنقاضها المدرسة المستنصرية وقصر عرف باسم الريحانيين ، كما أن قصر التاج القديم الذى وضع أساسه المعتضد واكمله المكتفى تهدم ونشأ قصر آخر باسمه الى الشمال منه . أى أن منطقة حريم دار الخلافة كانت فى ذلك الوقت تتكون من الشمال الى الجنوب من المدرسة المستنصرية على ساحل دجلة الشرقية وقصر الريحانيين بحذائها الى الداخل ثم قصر التاج الى الجنوب منهما ، هذا عدا قصور أخرى وحدائق غناء . وكانت هذه القصور لا يزال يحيط بها سور يفصلها عن محلات العامة وان كان هذا السور قد نقل

---

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ١٩٦ .


خريطة
بغداد
قبيل الفتح المغولي
حريم دار الخلافة :
١ - باب النوبة
٢ - باب سوق التمر
٣ - باب البدرية
٤ - باب الغربة
٥ - قصر الريحانيين
٦ - قصور الأمراء
٧ - المدرسة المستنصرية
٨ - القصر الحسني
٩ - مسجد الخليفة
١٠ - باب الحرم
١١ - باب العامة
١٢ - باب بستان
١٣ - قصر ميدان خالص
١٤ - قصر التاج
١٥ - باب المراتب
حدائق المنصور
الرصافة
قناة الصراة
قناة كرخايا
قناة عيسى
الياسرية
باب البصرة
محلة الأسواق الأربعة
باب السلطان
سوق السلطان

الى الجنوب من مكانه الأصلى . وكان حريم دار الخلافة فى أيام ياقوت يشمل ثلث بغداد الشرقية الجديدة تقريبا كما كان له سور يتحيز به ابتداؤه من دجلة وانتهاؤه اليها كهيئة نصف دائرة ، وله عدة أبواب : أولها من جهة الغرب باب الغربة وهو قرب دجلة ، ثم باب سوق التمر وهو باب شاهق البناء أغلق فى أول أيام الخليفة الناصر لدين الله ابن المستضيء ، ثم باب البدرية وعنده باب العتيقة التى تقبلها الرسل والملوك اذا قدموا بغداد ، ثم باب العامة وهو باب عمورية ايضا ، ثم يمتد قرابة ميل ليس فيه باب الا باب بستان قرب المنظرة التى تنحر تحتها الضحايا ، ثم باب المراتب بينه وبين دجلة نحو غلوتى سهم فى شرقى الحريم (١) ولم نعلم بعد ذلك أنه لحق به تغيير كبير .

أما محلات العامة التى كانت توجد خارج سور حريم دار الخلافة ــ والتى سبق أن ذكرنا منها المأمونية وباب الأزج والريان ومسعودة والمقتدية وقراح ابن رزين وقراح أبى الشحم وقراح القاضى وقراح ظفر والمختارة ــ فقد لحقها كثير من التلف بسبب فيضان دجلة سنة ٥٥٤ هـ ثم فى سنة ٦١٤ هـ ولكنها رغم ذلك ظلت عامرة . وقد ذكر ياقوت أن محلة الريان كانت من أعمر المحلات(٢)، كما ذكر أن المحلات الأربع التى كانت تسمى قراح ابن رزين وظفر والقاضى وأبى الشحم كانت لا تزال موجودة فى أيامه ولو أنها كانت منفصلة عن بعضها البعض ، وأن أبنيتها كانت جيدة وأنها كانت عامرة ومتسعة وفى كل منها مساجد وأسواق ودروب

---

(١) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٤٧ .

كثيرة ، كما ذكر أن محلة أخرى هى محلة العجم كانت موجودة وأنها كانت أشبه بقرية قائمة بنفسها (١) ٠

ويجب الا ننسى أن حريم دار الخلافة ومحلات العامة التى كانت فى شرقها كانت جميعها داخل سور كبير بناه الخليفة المستظهر سنة ٤٨٨ هـ ثم اصلحه وأعاد بناءه الخليفة المستضيء سنة ٥٦٨ هـ ٠ وكانت تتخلل هذا السور ابواب اربعه هى : باب السلطان فى الشمال وباب الظفريه وباب الحلبة فى الشرق وباب البصليه الذى ينسب الى محلة البصلية فى الجنوب ويسميه ياقوت باب كلواذى ٠ وكانت على هذا السور ابراج قائمة للدفاع عن بغداد ، منها برج العجم الذى اشتهر اثناء الحصار المغولى لبغداد وكان يقع عند تلاقى السور الشرقى بالسور الجنوبى (٢) ٠

وكان يلى بغداد الشرقية الجنوبية فى الأهمية بغداد الغربية ، وكان معظم محلاتها القديمة لا تزال عامرة ، وان كانت قد ضاقت رقعتها وتلاشت بعض محلاتها ٠ ومن محلاتها العامرة فى ذلك الوقت محلة الحربية وكانت فى الشمال منفصلة عن غيرها من المحلات يحيط بها فضاء واسع من الخرائب والأتربة ٠ وقد ذكر ياقوت أن الكثير منها كان قد تخرب فى أيامه وأنها أصبحت حول باب حرب فقط ، كما ذكر أنه كان يحيط بها سورها الخاص وكان لها مسجدها الجامع وأسواقها الكثيرة العامرة (٣) ٠ والى الجنوب من محلة الحربية كانت توجد محلة باب البصرة وكان بها جامع

---

(١) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٤١ ٠

و Le Strange, pp. 284-293.

(٢) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢١٠ ورحلة ابن جبير ، ص ٢٣١ ٠

و Le Strange, pp. 278-81.

(٣) معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ ٠

المنصور لا بحالته الأولى التى كان عليها حين بناه المنصور بل بعد أن لحقت به تغيرات كثيرة ؛ اذ هدمه الرشيد وبناه من الآجر كما آن الخليفة المعتضد وسعه باضافة جزء من قصر الذهب اليه • وكانت محلة باب البصرة هذه مركزا لأهل السنة • وعلى بعد نصف ميل من محلة باب البصرة كانت توجد محلة الكرخ ، وكانت مركز الشيعة كما أنها كانت قد تقلصت عما كانت عليه فيما مضى(١) • وكانت ــ حين كتب ياقوت كتابه ــ أهم محلات بغداد الغربية محلة القرية التى كانت محتفظة بمسجدها الجامع وأسوارها (٢) • وكانت بجانب هذه المحلات الكبيرة محلات أخرى أقل منها أهمية مثل محلة باب المحول التى كانت توجد الى الجنوب الغربى من الكرخ وأصبحت فى أيام ياقوت منفردة كالقرية المنفصلة ذات جامع وسوق مستغنية بنفسها (٣) • ومحلات دار القز والناصرية والعتابية وكانت توجد الى الجنوب الغربى من محلة الحربية وسط خرائب واسعة • ومحلة الكاظمية وكانت توجد فى أقصى الشمال من بغداد الغربية حول قبر الامام موسى الكاظم (٤) •

وكانت بغداد الغربية قبيل حصار هولاكو لها تتصل ببغداد الشرقية الجنوبية بجسرين • وقد ذكر صاحب الفخرى أن الخليفة الظاهر أعاد فى سنة ٦٢٢ هـ جسرا كان فيضان دجلة قد ازاله (٥) كما ذكر ابن العبرى أن الظاهر بن الناصر عقد لبغداد جسرا ثانيا عظيما جديدا وأنفق عليه مالا كثيرا فصار فى بغداد على دجلتها جسران (٦) • وسواء

(١) معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٢٣٣ ــ ٢٣٤ •

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٦ ــ ٧٧ •

(٣) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢١ ــ ٢٢ •

(٤) Le Strange, pp. 126-137, 162, 334, 337.

(٥) الفخرى ، ص ٢٤٢ •

(٦) ابن العبرى ، ص ٤٢٣ •

أكان الظاهر قد عقد جسرا جديدا على ما ذكره ابن العبرى أو أنه أعاد جسرا قديما كان قد أزاله فيضان دجلة على ما ذكره صاحب الفخرى ، فان بغداد الغربية والشرقية كانتا تتصلان بجسرين .

ولم تكن بغداد الشرقية القديمة او بغداد الرصافة ذات أهمية كبيرة فى ذلك الوقت، ولم يكن باقيا منها الا المحلة التى كانت قد نشأت حول قبر أبى حنيفة ، كما كان الى الجنوب منها مسجد الرصافة وحوله قبور الخلفاء العباسيين ، كما كانت الى الشرق منها محلة دار الروم التى كان يقيم بها النصارى الذين يعتنقون المذهب النسطورى (١) .

(٢) حكم المستعصم ببغداد

(أ) **أخلاقه وصفاته :** تولى المستعصم الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٤٠هـ وكانت مدة خلافته خمسة عشر عاما وثمانية أشهر وأياما . وقد ذكر المؤرخون أنه كان تقيا ورعا متمسكا بمذهب أهل السنة والجماعة على ما كان عليه والده وجده(٢) كما ذكرا أمثلة تبين رقته ولطف حسه ؛ منها عدم سيره على طريقة من سبقه من الخلفاء فى حبس أولادهم مدة خلافتهم ، ومنها أنه دخل خزانة الكتب ووجد خويدما نائما فانسحب وأمر بايقاظه برفق وهو بعيد حتى لا يذعر (٣) . ولكنهم فى الوقت نفسه لم يضنوا علينا باظهار صفاته السيئة التى لا تؤهله للحكم والتى تنذر بفشله المريع فى ادارة شئون البلاد . ومما ذكروه فى هذا الصدد

---

(١) Le Strange, p. 338.

(٢) ابن شاكر ــ فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

(٣) الفخرى ، ص ٢٤٥ .

أنه كان قليل المعرفة بتدبير الملك عديم اليقظة كثير الغفلة قليل البطش، محبا للهو يقضى أكثر أوقاته فى سماع الأغانى والتفرج على المساخر (١) • هذا الى أنه كان بخيلا لدرجة الشح ، يدل على ذلك أن الملك الناصر داود صاحب الكرك على أثر نزاع بينه وبين الناصر يوسف صاحب حلب ترك بلده وذهب الى الخليفة المستعصم ليستعين به فى مصيبته فأودع لديه وديعة من الجواهر تبلغ قيمتها ما ينيف على مائة ألف دينار (٢) على أمل استردادها عند تحسن الأحوال ، ولما تحسن حاله وطلبها من الخليفة أخذ يماطله ، ولما ألح عليه « ارسل من حاسبه على ما وصله فى ترداده الى بغداد من المضيف مثل اللحم والخبز والحطب والعليف والتبن وغير ذلك ، وثمن عليه ذلك بأغلى الأثمان وأرسل اليه شيئا نزرا ، وألزمه أن يكتب بخطه بقبض وديعته وأنه ما بقى يستحق عند الخليفة شيئا • فكتب خطه بذلك كرها وسار عن بغداد » (٣) •

وقد انتقد صاحب فوات الوفيات الخليفة المستعصم فقال : « ولو لم يكن فيه الا ما فعله مع الملك النـاصر داود فى أمر الوديعة لكفاه عارا وشنارا • والله لو كان الناصر من بعض الشعراء وقد قصده وتردد عليه على بعد المسافة ومدحه بعدة قصائد، كان يتعين عليه أن ينعم عليه بقريب من قيمة وديعته من ماله ، فقد كان من أجداد المستعصم بالله من استفاد منه آحاد الشعراء أكثر من ذلك » (٤) •

---

(١) ابو الفدا ــ المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٧٦ وابن شاكر ــ فوات الوفيات ، ج ١ ص ٢٣٧ والفخرى ، ص ٢٤٤ وابن العبرى ، ص ٤٤٥ ــ ٤٤٦ والسيوطى تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٥ والديار بكرى ــ الخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ •

(٢) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ص ٣٣٧ ــ ٣٣٨ •

(٣) أبو الفدا ج ٣ ، ص ٢٠٠ •

(٤) فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٣٧ •

كما أن السيوطى رماه بالضعف وحقره كل التحقير فقال عند كلامه على الخليفة المستنصر : « وكان له (أى المستنصر) أخ يقال له الخفاجى فيه شهامة زائدة وكان يقول ، لئن وليت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون وآخذ البلاد من أيدى التتار وأستأصلهم . فلما مات المستنصر لم ير الدويدار ولا الشرابى تقليد الخفاجى خوفا منه وأقاما ابنه أبا أحمد للينه وضعف رأيه ليكون لهما الأمر ؛ ليقضى الله أمرا كان مفعولا من هلاك المسلمين فى مدته وتغلب التتار » (١) . ولم ينس ابن طباطبا أن ينال منه كما نال منه غيره . بل وحاول أن يكون أوسع منهم خطى فى هذا السبيل فانتقض من عمله ما يشتم منه البعض فائدة ما وذلك فى قوله : « وكان يجلس بخزانة الكتب جلوسا ليس فيه كبير فائدة » (٢) . ولكنهم جميعا كانوا سطحيين فى نقدهم ، ولم يهتم صاحب فوات الوفيات بغير الناحية الخلقية التى يتجه اليها مؤرخو العرب دائما فى كلامهم .

(ب) الحالة الداخلية فى عهده : ازدادت حالة العراق الداخلية فى عهد المستعصم سوءا ؛ بسبب ضعف الخليفة وما اجتمع فيه من الصفات السيئة التى جرت عليه وعلى بغداد كثيرا من الويلات وانتهت بقتله والقضاء على نفوذ أسرته . فقد كانت قلة معرفة المستعصم بتدبير الملك وانصرافه عن ادارة شئون البلاد وضعف ارادته سببا فى استخفاف أعوانه به وطمعهم فيه وعملهم على الاستئثار بالسلطة دونه ، ثم أدى ذلك الى تنازعهم فيما بينهم وانصرافهم عن شئون الحكم ومن هنا كان استهتار العامة بالحكومة وكثرة الفتن وتفشى

(١) السيوطى ــ تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٥ .

(٢) الفخرى ، ص ٢٤٤ .

القلاقل ببغداد . كما أن بخله كان سببا في اضعاف الجيش . وسنتناول فيما يلى شرح النزاع بين الرؤساء فى بغداد فى أيام المستعصم ثم ضعف الجيش وبعد ذلك اضطراب الأمن فى بغداد .

١ ـ النزاع بين الرؤساء : عند موت الخليفة المستنصر سنة ٦٤٠هـ ، اتفق الدفتردار الصغيرة أيبك وكان رجلا كبير المطامع مع الشرابى على اختيار ابنه أبى أحمد بدلا منه ، وذلك لما يعرفه فيه من الضعف والانصراف الى اللهو وحتى تتهيأ له الفرصة لتوسيع سلطته والاستئثار بتصريف الأمور . وقد تمكن من تنفيذ رغبته هذه ، وتولى أبو أحمد الخلافة باسم المستعصم . كما أبعد عمه الخفاجى عنها وكان رجلا قوى الشكيمة (١) . وقد سارت الأمور كما يشتهى الدفتردار سنتين استوزر فيهما المستعصم نصير الدين أحمد بن الناقد وزير أبيه . فلما استوزر بعد ذلك مؤيد الدين محمد بن العلقمى سنة ٦٤٢ هـ تغيرت الحال لأنه ترك لهذا الوزير الأمور كلها يديرها كما يشاء (٢) كما أن هذا كان كبير المطامع فتدخل فى كل صغيرة وكبيرة وتعرضت بذلك سلطة الدفتردار للضياع .

غضب الدفتردار لسلطته المهددة وبدأ التنافس يشتد بينه وبين الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى . ولما كان الخليفة يحب وزيره فقد رأى الدفتردار أن خير طريقة لابعاد الوزير هى الارهاب ، وقد سلك لهذا الغرض طريقا غير شريف فجمع حوله كثيرا من العيارين وأخذ يهدد الأمن ، ولما أعيته الحيل أخذ يدبر المؤامرات لخلع الخليفة واقامة

(١) السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٥ .
(٢) الفخرى ، ص ٢٤٧ .

آخر مكانه • أما الوزير ، فقد كان يقظا لم تفته أعمال الدفتردار وحاول أن يقضى عليها ، فأعلم الخليفة بها وطلب منه أن يقضى على مدبريها ، وهكذا صرنا نرى الاثنين يواجه كل منهما الآخر •

وقد كان النجاح حليف الدفتردار لأن الخليفة خاف من مؤامراته ودخل الرعب الى قلبه حين رأى أتباعه الكثيرين من العيارين • ولذلك استدعاه اليه وأخبره بما نقله اليه الوزير وأكد له أن ثقته منوطة به ، وأنه لا يسمع ما يقال عنه • ولم يفعل ذلك فحسب بل عندما رأى الدفتردار بعد ذلك يعاود خطته الأولى ويجمع أعوانه ويستعد لمهاجمته كتب بيده اقرارا ذكر فيه أنه يعتقد أن كل ما قيل عنه من قبيل المكائد والأكاذيب وأن ثقته فيه تامة كما أعطاه أمانا تاما ثم أحضره اليه وأمر بذكر اسمه فى الخطبة بعد اسم الخليفة وتخلى عن الوزير ابن العلقمى (١) •

ويلاحظ أن الخلاف بين الوزير والدفتردار قد جر البلاء العظيم على بغداد ، وذلك لأن الدفتردار عندما كان فى اول الأمر بعيدا عن الخليفة كان يجمع حوله العيارين الذين يعيثون فيها فسادا والذين نشروا الفوضى فى ربوعها حتى مل أهلها حكومة العباسيين (٢) • كما أنه بعد أن أصبح الأمر له وقربه الخليفة اليه واستراح أهل بغداد من شر العيارين الذين كانوا يدبرون المؤامرات ويزعزعون الأمن حنق الوزير مؤيد الدين محمد بن العقلمي لفقد سلطته وانتصار منافسه عليه وأصبح يتحين الفرص لاسترداد

---

(١) Quatremere (Trad.), Histoire des Mongols, pp. 227-229.

(٢) Quatremere, p. 229.

سلطته أو الثأر لنفسه ، فلما هاجم المغول بغداد لم يخلص فى الدفاع عنها ٠ ٠٠

٢ ــ **ضعف الجيش** : لم يكن الجيش العباسى فى أيام الخلفاء العباسيين المتأخرين قويا بمعنى الكلمة ٠ وقد رأينا كيف أن الخلافة فى أيام الخليفة الناصر لم تعتمد عليه فى القضاء على سلاجقة فارس ، كما أنه لم يتمكن من الوقوف أمام الجيوش الخوارزمية فى أيام الناصر والمستنصر ٠ ولكنه كان على كل حال قوة ثانوية وانتصر انتصارات لا بأس بها فقضى على بعض الخارجين فى الداخل ، كما انتصر فى خوزستان على جيوش خوارزمية صغيرة وصد غارات مغولية متعددة ٠

وفى أوائل حكم الخليفة المستعصم ظل الجيش العباسى على حاله هذه وانتصر فى سنة ٦٤٣هـ على المغول عند يعقوبا من أعمال بغداد (١) ٠ ولكنه بعد ذلك أخذ فى الضعف شيئا فشيئا ٠ ويرجع هذا الضعف الى أسباب متعددة منها أن المستعصم كان بخيلا جدا محبا لجمع المال فلم ينفق على الجيش اللازم ٠ وقد وبخه على عمله هذا عدوه هولاكو بعد أن وقع فى يده ، فقد ذكروا أنه عندما استحوذ على ما كان لديه من الكنوز ، أمر بأن يقدم للخليفة من هذه الكنوز طعام ولما قال له الخليفة ان الكنوز لا تزيل جوعا ، رد عليه بقوله : « اذا كانت الكنوز لا تسد الرمق واذا كانت لا تحفظ الحياة فلماذا لم تعطها لجنودك ليحموك أو الى جنودى ليسالموك » (٢) ٠ أضف الى ذلك أن مؤيد الدين بن العلقمى

---

(١) الديار بكرى ج ٢ ، ص ٤١٥ وابو الفدا ج ٣ ، ص ١٨٢ ٠

(٢) Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, p. 400.

بعد أن رأى نفوذه قد ولى وأن الخليفة مال الى أيبك الدفتردار الصغير دونه وأن هولاكو مقبل على بغداد بجيشه المظفر، اخذ يفكر في عمل شيء يستدر به عطف الفاتح فأمر بتسريح جيش الخلافة . وسواء أكان ذلك قد تم بعد ان أقنع ابن العلقمي الخليفة بأن الأمراء المسلمين التابعين له كثيرون وأنهم اذا ما حلق الخطر بالبلاد مستعدون للدفاع عنها بجيوشهم (١) أم بعد أن أقنعه بأن الجيش يتكلف كثيرا من المال وان الافضل أن يسترضى المغول بالمال المتوافر من تسريحه (٢) ، فان جيش الخلافة بعد أن كان فى أواخر أيام المستنصر وأول أيام المستعصم يبلغ مائة ألف فارس ، صار دون العشرين ألفا (٣) .

٣ ـ اضطراب الأمن فى بغداد : « جعلت المنازعات بين الأحناف والحنابلة الذين كانوا مصدر اضطراب لبغداد ، وبين أهل السنة والشيعة الذين كانوا يسكنون ضاحية الكرخ الغربية ، ومعظم المعارك بين الرعاع والطبقات الغنية ــ حياة المستعصم عبئا ثقيلا » (٤) .

أما المعارك بين أهل السنة والشيعة ، فقد كانت لا تنقطع قبل أيام المستعصم لما بين الفريقين من حزازات واحن كانت تنفجر لأوهى الأسباب ، غير أنها كثرت كثرة مزعجة فى أيام المستعصم . وقد تكون الفتنة التى وقعت بين الفريقين سنة ٦٥٥هـ من أهم هذه المعارك ؛ لأنها امتازت عما عداها بتدخل عسكر الخليفة فيها وانتصاره لأهل السنة . وقد ذكروا أن

---

(١) Howorth, Vol. 1, p. 197.

(٢) أبو الفدا ج ٣ ، ص ٢٠٢ والديار بكرى ج ٢ ، ص ٤٢٠ وابن خلدون ج ٥ ، ص ٥٤٢ .

(٣) أبو الفدا ــ المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ، ص ٢٠٢ .

(٤) Sayed Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p. 396.

أبا بكر ابن الخليفة وركن الدين الدويدار أمرا العسكر فنهبوا الكرخ وهتكوا أعراض النساء وركبوا منهن الفواحش وقتلوا كثيرا من الرجال (١) ، أضف الى ذلك أن هذه الفتنة كانت السبب المباشر الذى جعل الشيعة يقفون موقف العداء للعباسيين عندما هاجم المغول بغداد على ما سنرى ٠

ولم تكن المنازعات الطائفية هى وحدها السبب فى اضطراب الأمن فى بغداد ، بل ان المنافسة بين الرؤساء كانت فى وقت من الاوقات من أكبر العوامل التى ادت الى هذا الاضطراب ، وذلك حين كان أعوان الدفتردار الصغير من العيارين يهاجمون الأبرياء ويقبضون عليهم ويملأون جو بغداد بفظائعهم وحشة ورهبة ، وقد بلغ من أمرهم ان الخليفة المستعصم فزع منهم وأمر فخر الدين الدامغانى رئيس الادارة باتخاذ ما يلزم للقضاء عليهم(٢) ٠ ولم يكن ارضاء الدفتردار طبعا بتقريبه الى الخليفة قاضيا على مشاغباتهم مرة واحدة بل لابد أنهم وقد تشبعوا بروح الفوضى مدة من الزمن كانوا يهددون الأمن بين حين وآخر ٠

(ج) الحالة الخارجية : ظلت الخلافة فى عهد الخليفة المستعصم محتفظة بما كان لها من علاقات طيبة مع الدول الاسلامية وبما كان لها فى نفوس المسلمين من احترام وقدسية ٠ غير أنه وقد ضاقت رقعة العالم الاسلامى بعد زوال دولة السلاجقة فى فارس والدولة الخوارزمية كما سبق أن ذكرنا ، انحصرت علاقات الخلافة وأصبحنا لا نكاد نعثر فى ثنايا الكتب على غير ما كان بين الخليفة المستعصم

(١) ابو الفدا ج ٣ ، ص ٢٠٢ والديار بكرى ، ج ٢ ، ص ٤٢٠ . وتاريخ ابن خلدون ج ٥ ، ص ٥٤٢ ٠

(٢) Quatremere, pp. 227-229.

والأيوبيين ثم ما كان بينه وبين المماليك الذين خلفوهم على عرش مصر من علاقات . هذا وسنتناول فيما يلى الكلام عن حالة العالم الاسلامى فى الفترة ما بين سنتى ٦٤٠ و ٦٥٦هـ ثم بعد ذلك نبين علاقات الخلافة بالأيوبيين ثم بالمماليك .

١ ـ العالم الاسلامى : طرأ على العالم الاسلامى فى تلك الفترة كثير من الأحداث وجرت به كثير من التغيرات أدت جميعها الى اضعافه وفل شوكته ، واننا لا نكاد نعثر على دولة من بين دوله قوية الجانب نافذة السلطان بل اننا لا نكاد نجد واحدة من بين هذه الدول لا يتغلغل فيها النفوذ المغولى ولا يخيفها شبح المغول .

(أ) مصر : كان الحكم فى مصر فى ذلك الوقت للأيوبيين أولا ثم بعد ذلك للمماليك ، أى أن نظامه لم يكن مستقرا . وقد حكم من الأيوبيين نجم الدين أيوب من سنة ٦٣٧ هـ حتى سنة ٦٤٧ هـ وكان قوى الشكيمة تمكن من الاحتفاظ بمركزه فى مصر والشام ، على الرغم من أن الفرنجة هاجموا مصر فى آخر أيامه . وبعد موته استدعى المماليك البحرية ـ الذين كان الصالح نجم الدين قد استكثر منهم فى جيشه ـ ابنه الملك المعظم توران شاه صاحب حصن كيفا ؛ ليخلف أباه وليقف أمام الفرنجة (١) .

على أن حكم الملك المعظم تورانشاه لم يطل ، لأنه بعد أن انتصر على الفرنجة أخذ يعتدى على المماليك البحرية فأوجسوا منه خيفة وقتلوه سنة ٦٤٨هـ ثم ولوا شجرة الدر (٢) حكم

(١) المقريزى ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٣٣ ـ ٣٥١ وابن العبرى ، ص ٤٥٢ ـ ٤٥٥ .

و Lane-Poole, The Muhammadan, Dynasties, pp. 77-78.

(٢) نكرها المقريزى فى أكثر من موضع شجر الدر ، ولم يذكرها شجرة الدر على ما هو مشهور .

البلاد ــ وكانت أرملة الصالح أيوب ــ كما جعلوا عز الدين أيبك التركماني مقدم العسكر ، وبذلك انتهى عهد الأيوبيين في مصر (١) ٠

بدأ عهد المماليك في مصر منذ قتل الملك المعظم على أن الأمور لم تستقر لهم فيها الا بعد مدة طويلة ٠ وكانت المدة الباقية من الفترة التي نتكلم عنها ــ أى من سنة ٦٤٨هـ حتى سنة ٦٥٦هـ ــ تسودها الاضطرابات والفتن، فقد تزوج أيبك التركماني من شجرة الدر في ١٩ ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ ثم خلعت شجرة الدر من الملك بعد أن حكمت نحو ثمانين يوما ، وأصبح عز الدين أيبك التركماني في الملك ولقب بالملك المعز في آخر شهر ربيع الآخر ٠ وبعد ذلك أشرك المماليك مع الملك المعز أحد أفراد أسرة بني أيوب وهو الملك الأشرف موسى ابن الملك الناصر يوسف ؛ حتى يجتمع الكل على طاعته ويطيعه الملوك من أهله وذلك في ٣ جمادى الأولى سنة ٦٤٨هـ ٠ كما أن المماليك في يوم ٦ جمادى الأولى نادوا في القاهرة بأن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسي وأن الملك المعز نائبه بها ٠ وبعد ذلك صار الأمر للملك المعز والأشرف ثانية ٠ ثم في سنة ٦٥٠هـ أزيل اسم الملك الأشرف موسى من الخطبة وانفرد الملك المعز باسم السلطنة ٠ وفي سنة ٦٥٥هـ، قتل الملك المعز بتدبير شجرة الدر وتولى بعده ابنه الملك المنصور نور الدين على وعمره خمس عشرة سنة تقريبا وظل في الملك سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام حتى قبض عليه الأمير سيف الدين قطز يوم السبت ١٤ من ذى القعدة سنة ٦٥٧ ٠ وقصارى القول ، ان هذه الفترة كانت فترة

---

(١) المقريزى ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٣٥١ ــ ٣٦٢ ٠

(٢) المقريزى ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٦٩ ــ ٤١٧ ٠

Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p. 81. و

مضطربة لا يتوافر فيها شيء من الاستقرار وتتوالى فيها الحوادث سراعا •

(ب) بلاد الشام : تمكن الأيوبيون فى هذه الفترة من الاحتفاظ بنفوذهم فى الشام ، ذلك آن الناصر صلاح الدين يوسف الذى أصبح صاحب حلب منذ سنة ٦٣٤ هـ بعد أن قتل المماليك البحرية الملك المعظم تورانشاه فى مصر سنة ٦٤٨هـ ـ استولى على دمشق فى نفس السنة ، ثم حاول بعد ذلك عدة مرات أن يستولى على مصر ولكن جيوش المماليك صدته • على أن قوة الناصر يوسف لم تكن كبيرة ، كما أنه كان يهاب المغول، يدلنا على ذلك ما ذكره المقريزى عند كلامه على سنة ٦٤٨هـ حيث قال : « وفيها وصل الى الملك الناصر من قبل القان ملك التتر طمغا (براءة) صورة أمان فصار يحملها فى حياصته (حزامه) وسير الى القان هدايا كثيرة » (١) • أضف الى ذلك ما كان من ارساله ابنه الملك العزيز الى هولاكو سنة ٦٥٦هـ ومعه الهدايا وطلب منه نجدة ضد المماليك (٢) •

(ج) آسيا الصغرى : سبق آن ذكرنا أن المغول هزموا غياث الدين كيخسرو سلطان الروم السلاجقة سنة ٦٤٠ هـ واضطروه الى دفع جزية سنوية • وقد مات غياث الدين سنة ٦٤٣ هـ وخلفه على العرش ابنه الأكبر عز الدين كيكاوس الثانى وبدأت بذلك فترة كلها منازعات واضطرابات زادت فى ضعف دولة الروم السلاجقة وخضوعها للمغول • ذلك أن غياث الدين كان له ولدان آخران غير عز الدين أحدهما

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٣٧٩ •

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٣٧٠ ـ ٤١١ وابن العبرى ، ص ٤٥٦ و ٤٠٢ ـ ٤٩٠ •

Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p. 78. و

علاء الدين والثاني ركن الدين لم يرضيا بانفراد عز الدين بالسلطة دونهما . وكان أول الخارجين على عز الدين أخوه ركن الدين الذى سار الى الخان المغولى كيوك وطلب معونته وكان من أثر ذلك أن اقتسم البلاد مع عز الدين . على أن الأمر لم يستقر بذلك وتجدد النزاع بين الأخوين وانتصر عز الدين على ركن الدين وأسره وحبسه . وقد كان من المصادفات أن وصل فى ذلك الوقت القائد المغولى بيجونويان الى آسيا الصغرى بأمر الخان مانجو ليقوم بأعمال الفتح والتوسع ، فطلب من عز الدين أن يقدم له ولجنوده مشتى (سنة ٦٥٤ هـ) . ولما لم يجب عز الدين القائد المغولى الى طلبه قامت الحرب بينهما وانتهت بهزيمة عز الدين وفراره الى الامبراطور البيزنطى الاشكرى Theodore II Lascaris فى نيقية فأخرج بيجونويان ركن الدين من سجنه وولاه السلطنة فى نفس هذه السنة (٦٥٤ هـ) . وقد تبع ذلك رحيل المغول عن البلاد ورجوع عز الدين الى قونية وقيام النزاع بين الأخوين مدة خربت فيها بلاد سلطنة الروم ، ولم ينته الا فى سنة ٦٥٦ هـ ، حين اتفق الأخوان على جعل نهر قزل ارمق حدا فاصلا بين أملاكهما . على أن عز الدين وأخاه أرادا أن يعطيا هذا الاتفاق صفة عملية ؛ فذهبا الى هولاكو وهو بهمذان بعد أن ترك بغداد بقليل وحصلا على موافقته (١) .

(د) **بلاد الجزيرة :** لم يكن فى بلاد الجزيرة فى ذلك الوقت (٦٤٠ ــ ٦٥٦ هـ) قوة اسلامية كبيرة فقد زال الفرع

---

(١) ابن العبرى ، ص ٤٤٦ ــ ٤٦٨ .

و Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties. p. 155.

و Cambrirge Medieval History Vol. IV, pp. 503-510.

و Encyc Of Islam Arts, Kaika'us II, Kilig Arslan IV.

الأيوبى الذى كان فيها سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥م) حين قضى المغول على مظفر الدين غازى ، كما أن قوة مظفر الدين كوكبرى صاحب أربل انتهت بموته سنة ٦٣٠هـ وأصبحت أربل من بعده خاضعة لنواب الخليفة العباسى • ولم يبق هناك الا أتابكية الموصل التى كانت قد آلت الى بدر الدين لؤلؤ خادم أسرة زنكى ووزير عدة أفراد منها بعد موت ناصرالدين محمود بن القاهر بن نور الدين ووصول التقليد بولايته اياها من الخليفة سنة ٦٣١ هـ ، وظل بدر الدين لؤلؤ صاحب الأمر فى الموصل طوال خلافة المستعصم لا يشاركه فى ذلك انسان بل انه ملك جزيرة ابن عمر التى كانت تقع على دجلة شمالى الموصل من صاحبها الملك مسعود ابن الملك المعظم من سلالة أتابك زنكى وأمر باغراقه • على أن ذلك ليس معناه أن قوة بدر الدين لؤلؤ بلغت الذروة ، اذ انه كان يخاف المغول ويهابهم حتى اننا نراه يرسل ابنه اسماعيل بالهدايا الى هولاكو وهو بهمذان على أثر انتهائه من فتح بغداد ثم يذهب بنفسه بعد ذلك ليقدم له الخضوع (١) •

(هـ) الاسماعيلية : لم يكن « الاسماعيلية » أحسن حالا من غيرهم من المسلمين ، ذلك أنه بعد موت رئيسهم جلال الدين حسن سنة ٦١٨ هـ ترك خلفه علاء الدين محمد (٦١٨ ــ ٦٥٣هـ) سياسة الرجوع الى أحكام الاسلام ومصادقة المسلمين وسار تبعا لعقائد الاسماعيلية التى تبيح التمتع بالملذات والبعد عن أحكام الاسلام • هذا الا أنه أصيب بمرض عقلى وأصبحت أوامره ونواهيه بعيدة عن جادة الصواب واضطربت شئون طائفته واعتلت ادارة حكومته حتى كثر اللصوص فى أملاكه • وبعد موته سنة ٦٥٣ هـ خلفه ابنه ركن الدين

---

(١) المقريزى ج ١ ، ص ٢٤٧ وابن العبرى ، ص ٤٣٥ و ٤٥٦ و ٤٨٢ •
و Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, pp. 77, 162-163

خورشاه الذى يقال انه حرض على قتل أبيه فسار سيرة سيئة وارتكب كثيرا من المظالم ونزع الى الاستبداد وانتهى أمره بقضاء المغول عليه وعلى طائفته سنة ٦٥٥هـ (١) ٠

٢ ـ علاقة الدول الاسلامية بالخلافة في أيام المستعصم

تكاد العلاقات بين الخلافة العباسية فى أيام المستعصم (٦٤٠ ـ ٦٥٦ هـ) وبين العالم الاسلامى تنحصر فيما كان بينه وبين امراء بنى أيوب فى مصر والشام ثم بينه وبين المماليك فى مصر بعد زوال سلطان الأيوبيين منها بقتل الملك المعظم تورانشاه سنة ٦٤٨ هـ ٠ وليس العيب فى هذا راجعا الى الخليفة المستعصم ، بل اننى لا أستبعد أن يكون هذا الخليفة قد فكر فى السير على طريقة الخليفة الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ = ١١٨٠ ـ ١٢٢٥م) ومالت نفسه الى نشر نفوذ الخلافة على العالم الاسلامى ولكن الظروف لم تساعده على تنفيذ فكرته ٠ اذ كان الاسماعيلية قد عادوا الى معاداة العالم الاسلامى كما كانت الأمور فى دولة الروم السلاجقة تتحرك بالأصابع المغولية وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل لا يجرؤ على السير فى طريق غير طريق المغول ٠

ولا يبعد أن يكون الخليفة المستعصم قد تعلق ـ حين رأى المغول يغيرون على بلاده مرة بعد أخرى ويصبحون المحركين للأمور فى دولة الروم السلاجقة ـ بآخر خيط من خيوط النجاة وأراد أن يحافظ على الحكومات الاسلامية التى كانت فى مصر والشام ؛ حتى تمد له يد المساعدة حين يشتد به الخطر

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 174, 186-187.
Quatremere, p. 185.

المغولى ، كما لا يبعد أيضا أن يكون هذا هو السبب الذى من أجله نرى الخليفة يقوم بمحاولات عـدة للتوفيق بين الملك الناصر يوسف صاحب الشام من جهة ، وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب ثم الملك المعز أيبك فى مصر من جهة أخرى • فقد أرسل الخليفة المستعصم سنة ٦٤٦ هـ الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد بن الحسن بن ابى سعد البادرائى لعقد الصلح بين الملك الناصر يوسف ــ وكان فى ذلك الوقت صاحب حلب فقط ــ وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب على اثر استيلاء الناصر على حمص من صاحبها الأشرف ثم سير الصالح نجم الدين أيوب من مصر الى دمشق وارساله الجيوش لمحاصرة حمص واستردادها من الملك الناصر، ونجح الرسول فى مهمته وتقرر الصلح • كما أن الخليفة أرسل رسوله هذا سنة ٦٥٠ هـ الى مصر للاصلاح بين الملك المعز أيبك والملك الناصر يوسف، وكان فى ذلك الوقت قد أصبح صاحب دمشق وحلب معا على أثر ما كان من سير الملك الناصر سنة ٦٤٨هـ الى مصر ومعه كثير من أمراء بنى أيوب بغية الاستيلاء عليها وملاقاة الملك المعز له ثم انتصاره عليه واضطراره الى العودة الى بلاد الشام • وقد نجح الرسول أيضا فى تقرير الصلح بين الملكين سنة ٦٥١هـ • وأرسل الخليفة الرسول نفسه مرة ثالثة سنة ٦٥٤ هـ لتجديد الصلح بين الملك الناصر والملك المعز على أثر ما كان من تسيير الناصر العساكر سنة ٦٥٣هـ ومعهم بعض المماليك البحرية الذين كانوا قد تركوا مصر عندما قتل الملك المعز الأمير أقطاى خوفا من ازدياد نفوذه سنة ٦٥٢ هـ ، ونجح الرسول أيضا كعادته فى عقد الصلح(١) •

---

(١) المقريزى ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٣٣٠ ــ ٣٣١ و ٣٨٢ ــ ٣٨٦ و ٣٩٧ •

ويرجع نجاح الخليفة المستعصم فى محاولته التوفيق بين مصر والشام فى ذلك الوقت الى أن الأيوبيين سواء فى مصر أو فى الشام كانوا يسيرون على طريقة من سبقوهم من حيث احترام الخليفة العباسى وتلقى الخلع منه · وهكذا كان يفعل المماليك حين أصبح لهم الأمر فى مصر · فقد بعث الخليفة المستعصم سنة ٦٤٢ هـ جمال الدين عبد الرحمن بن محيى الدين ابن الجوزى الى الملك الصالح نجم الدين أيوب ومعه الخلع التى كانت تتكون من عمامة سوداء وفرجية مذهبة وثوبين من ذهب وسيف مذهب وطوق ذهب وعلمين من حرير وحصان فلبسها الملك نجم الدين أيوب (١) · كذلك بعث الخليفة المستعصم ابن الجوزى مرة آخرى الى الملك الصالح سنة ٦٤٣ هـ «ومعه التقليد والتشريف الأسود وهو عمامة سوداء وجبة وطوق ذهب وفرس بمركوب بحلية ذهب ، ونصب المنبر وصعد عليه الرسول وقرأ التقليد فى الدهليز السلطانى والسلطان قائم على قدميه حتى فرغ من القراءة ثم ركب السلطان بالتشريف الخليفتى (٢) » ولم ينس الصالح أيوب ذلك للخليفة المستعصم ، فلما حضرته الوفاة سنة ٦٤٧ هـ لم يعهد الى أحد بالملك ، بل قال : « اذا مت لا تسلم البلاد الا للخليفة المستعصم بالله ليرى فيها رأيه » (٣) ·

ولم يحد المماليك عن طريق احترام الخلافة العباسية والاخلاص لها فى ذلك العهد، فلما قتلوا الملك المعظم تورانشاه سنة ٦٤٨ هـ وتركوا جثته فى المنصورة على شاطىء النيل ثلاثة أيام دون أن يدفنوه شفع فيه رسول الخليفة فقبلوا شفاعته ودفنوه (٤) · هذا الى أنهم عندما وضعوا على عرش

(١) المقريزى ــ السلوك ح ١ ، ص ٣١٩ ·
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢٣ ·
(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤٢ ·
(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٦٠ ·

مصر شجرة الدر بعد قتل الملك المعظم تورانشاه ولم يرض عن عملهم الخليفة المستعصم وأرسل اليهم كتابا ينكر عليهم فيه تعيين امرأة ويقول : «ان كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير اليكم رجلا » ، تقبلوا نصيحته وعزلوا شجرة الدر عن الحكم وعينوا عز الدين أيبك التركمانى فى الملك ولقبوه الملك المعز ، وذلك فى أواخر ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ(١) • ولم يقف أمرهم عند هذا الحد ، بل انهم فى يوم الأحد ٦ جمادى الأولى نادوا فى القاهرة ومصر بأن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى وأن الملك المعز أيبك نائبه بها(٢) • وفى سنة ٦٥٤هـ عندما أتم الشيخ نجم الدين البادرائى رسول الخليفة تجديد الصلح بين الملك المعز والملك الناصر يوسف صاحب الشام ، أرسل الملك المعز بصحبته الأمير شمس الدين سنقر الأقرع رسولا الى الخليفة ببغداد يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر (٣) •

على أن الخليفة المستعصم اذا كان قد نجح فى وضع نفسه فى موضع الحكم بين الملك الناصر يوسف وبين الملك الصالح أيوب ثم بين الملك الناصر يوسف وبين الملك المعز أيبك ، واذا كان قد نجح أيضا فى الاحتفاظ للخلافة بالاحترام فى مصر والشام وجعل حكامهما يلتمسون خلع الخلافة وتقاليدها ، فان نجاحه لم يكن عظيما لأن الملك الناصر لم يكن شديد القوى كما أن المماليك لم يكونوا قد استقروا بعد فى الحكم على ما تقدم •

---

(١) المقريزى ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٣٦٩ •

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧٠ •

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٩٨ •

الفصل الثانى

حملة هولاكو

١ ـ اعداد الحملة

رأينا فيما تقدم أن المغول فى أيام جنكيزخان وابنه أجطاى وحفيده كيوك تمكنوا من نشر نفوذهم فيما وراء النهر وفى خوارزم وخراسان وفارس والعراق العجمى وأذربيجان وبلاد الكرج وأرمينية ، كما اعترف بسيادتهم سلطان الروم السلاجقة ووصل نفوذهم الى شمال الشام، ولم يبق خارجا عن دائرة نفوذهم فى غرب آسيا الا بلاد الاسماعيلية فى قوهستان والخلافة العباسية فى العراق العربى ، وسنرى فيما يلى أن المغول لم يتركوا تلك الجهات طويلا بل أوقعوا بها كما أوقعوا بغيرها عندما سنحت لهم الفرصة . ذلك أن مانجوخان بن تولى الذى ارتقى عرش الخانية سنة ١٢٥١م بعد أن وضع حدا للنزاع القائم بين بيتى جغطاى وأجطاى (١) وبعد أن ثبت مركزه وقتل أحفاد أجطاى الذين دبروا المؤامرة ضده (٢) ، أخذ يعيد المجد المغولى القديم ويحيى روح الحماس فى نفوس قومه فأعد

(١) Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 641.

(٢) ابن العبرى ـ تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٥٩ .
و Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 452.

العدة لارسال حملتين حربيتين احداهما الى الصين والاخرى الى فارس (١) .

أما حملة فارس فهى التى تهمنا وقد أسندها مانجو الى أخيه هولاكو وعنى بها عناية فائقة وآية ذلك أنه خصص لها كثيرا من القوات المغولية المحاربة فوضع تحت تصرف هولاكو الجيش الذى كان قد، أرسله الى ايران تحت قيادة بيجونويان Baigunoyan وجورماجون Gourmajoun والآخر الذى أرسله نحو كشمير وهندستان تحت قيادة طاير بهادور Tair Behadur ، كما أمده بألف من الرجال ذوى الخبرة فى ادارة آلات الحرب وقاذفات النفط الذين أحضرهم من بلاد الخطا لهذه الغاية . وكانت بعض هذه الآلات عبارة عن جاذبات أقواس ميكانيكية تدور بعجلات ويمكنها أن تجذب ثلاثة أقواس فى وقت واحد وكل قوس منها يرمى سهاما يبلغ طول الواحد منها ثلاثة أو أربعة أذرع (١) . وكانت السهام مغطاة بريش الصقور والنسور ولها حافات قصيرة قوية . وأمر مانجو فوق ذلك بأخذ اثنين من كل عشرة رجال من جنود جنكيزخان التى قسمت بين أبنائه واخوته وأبناء اخوته لتكوين حرس خاص لهولاكو . ولم يهمل فى الوقت نفسه تموين الجيش فخصص لكل جندى ألف رطل من النبيذ ومثل ذلك من اللبن الحامض الذى كان يحبه المغول وألف رطل من اللحم ، كما أنه لم ينس أن يسهل لهذه الجيوش مهمة السير وأرسل رسله الى البرارى والمراعى التى تمتد من قره

---

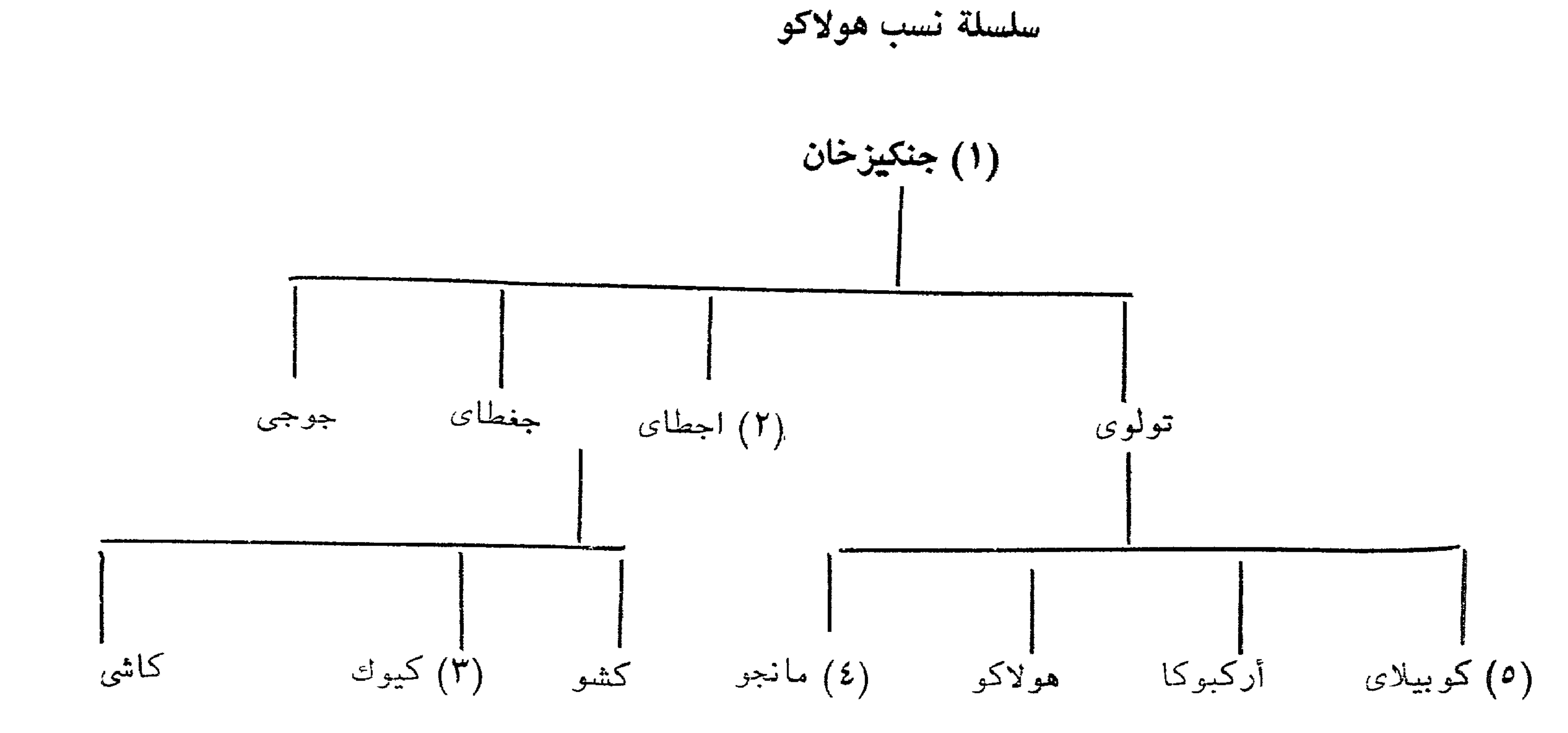
(١) Howorth, Vol. I, p. 193.

و Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 452.

و Cambridge Medieval History Vol. IV, p. 641.

(٢) الذراع مقياس يبلغ طوله ثلاثة أرباع الياردة .

سلسلة نسب هولاكو



قورم الى شاطىء جيحون والتى ستمر بها هذه الجيوش ليدعوا آهلها الى تقديم المعونة لهـا آثناء سـيرها ولينـذروهم من التعرض لها وليقيموا الجسور المتينة على الأنهـار العميقة ومجارى المياه السريعة التى تعترض طريق هذه الجيوش(١) ·

وبعد أن أعد مانجو ما يلزم من الرجال والمؤن والذخيرة لم ينس أن يضع لهولاكو خطة العمل ويزوده بما يلزمه من النصائح وقد كان مما قاله : « لاحظ فى كل خطواتك أعمال جنكيزخان وعاداته وقوانينه جملة وتفصيلا · وعامل بالحسنى واغمر بشواهد محبتك وعطفك كل من يخضـع لك ويطيع أوامرك ونواهيك من شـواطىء جيحون حتى أطراف مملكة مصر · أما اذا ثار عليك انسان آو عصـاك فشـتته فى الصحراء هو وزوجته وأولاده وأسرته وجميع أقاربه واجعله فريسة للشدة والذل · وعندما تبدأ بقوهستان خرب القلاع والحصون واجعل أعالى كردكوه ولنبسير أسافلها ولا يهمنك ابقاء أى حصن فى العالم أو اية بقعة من بقـاع الأرض · حتى اذا أتممت كل هذا فسر الى العراق واقض على سـادتها وعلى من فيها من الأكراد الذين يقطعون الطرق بلصوصيتهم · واذا قدم لك خليفة بغداد فروض الطاعة والخضوع فلا تأخذ منه شيئا ، أما اذا تظاهر بالغرور واذا كانت أقواله ونواياه تعوزها المودة فعامله كما تعامل أعداءك الآخرين » (٢) ·

---

(١) ابن العبرى ، ص ٤٦٠ ـ ٤٦١ ·

و D'Ohsson, Tome III p. 135.

و Howorth, Vol. II. p. 193.

و Quatremere, pp. 129-137.

و Richard Coke, Baghdad the City of peace, p. 137.

و Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 453.

(٢) D'Ohsson, Tome III, p. 136-137. Quatremere, p. 141.

٢ ـ قضاء هولاكو على الاسماعيلية

كان ظهور طائفة الاسماعيلية على يد الحسن بن الصباح وكان أول مركز لها في ألموت على ما ذكرنا . وقد كان قدوم جنكيزخان الى ما وراء النهر في أيام جلال الدين جد ركن الدين خورشاه الذى حكم من سنة ١٢١٠م حتى سنة ١٢٢٠م ، كما كان رسول جلال الدين هذا أول من قدم اليه فروض الطاعة بعد عبوره نهر سيحون (١) . بل ان الاسماعيلية ظلوا مدة طويلة في صفاء مع المغول ويقال انهم هم الذين دعوا جنكيزخان الى القضاء على جلال الدين خوارزمشاه بعد رجوعه من الهند لما لحقهم على يديه من العنت، ولكنهم بعد ما رأوا مطامع المغول لا تقف عند حد وان فتوحهم مستمرة في الصين واوربا وخراسان والعراق العجمي وآسيا الصغرى خافوا خطرهم وعولوا على مناجزتهم وأخذوا يرسلون رسلهم الى أوربا سنة ١٢٣٨م يطلبون معونة ملوكها الذين عرفوهم ابان الحروب الصليبية . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل انهم حاولوا عمل اتحاد من جميع الامارات المجاورة لهم لصد خطرهم المشترك (٢) .

ولابد أن خطة الاسماعيلية هذه أغضبت المغول وكانت سببا في سوء معاملتهم لرسول شيخ الجبل الذى حضر مجلس انتخاب كيوك سنة ١٢٤٦م (٣) كما كانت أيضا سببا في تقرير المغول بعد ذلك في مجلس انتخاب مانجو ، ارسال حملة من ضمن اغراضها القضاء على الاسماعيلية هي حملة هولاكو .

---

(١) D'Ohsson Tome III, p. 174.

(٢) Browne, Lityerary History of Persia, Vol. II, p. 456. و Cambridge Medieval History, Vol. IV, 1. 638.

(٣) ذكر ابن العبرى ، ص ٤٥٠ أن كيوك صرف رسل الملاحدة مذلين مهانين سنة ٦٤٥ هـ . و Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 451.

وقد جاء فى صبح الأعشى « وعلت كلمة منكوتان (يقصد مانجوخان) صاحب التخت ووصلت اليه كتب أهل قزوين وبلاد الجبل يشكون من سوء مجاورة الملاحدة وهم الاسماعيلية فجهز اليهم منكوتان أخاه مكوقان (لابد أنها هولاكو خان لان بقية الكلام تدل على ذلك) لقتال الملاحدة وأخذ قلاعهم »(١)، أى انه يرجع ارسال هولاكو هذه الحملة الى طلب أهل قزوين وبلاد الجبال المعونة من المغول ضد الاسماعيلية .

وقد خرج هولاكو من قره قورم فى فبراير سنة ١٢٥٤م بعد أن أقام مانجو له ولجنوده الولائم ، وسار حتى وصل الى الملغ ثم منها الى سمرقند فى سبتمبر سنة ١٢٥٥م . وبعدها سار فى برارى كنغول حيث قدم له مسعود بك حاكم ما وراء النهر وتركستان خيمة مطرزة بالذهب ووصل مدينة كش التى كانت تقع الى الجنوب الغربى من سمرقند فى يناير سنة ١٢٥٦م . وقد مكث فى هذه المدينة شهرا تقبل فيه فروض الطاعة والولاء من الأمير آرغون حاكم خراسان وغيره من الكبراء الذين جاءوا حاملين الهدايا من العراق وخراسان وأذربيجان وأران وشروان وبلاد الكرج والذين كان من بينهم السلطان عز الدين وركن الدين من بلاد الروم السلاجقة وسعد بن الأتابك مظفر الدين من فارس ، كما أنه وجه الرسائل الى ملوك ايران وسلاطينهم ، يدعوهم فيها الى مساعدته ويقول : « أتينا طبقا لأمر الخان الأعظم لندك حصون الاسماعيلية ونقضى على هذه الطائفة قضاء تاما ، فان حضرتم بأنفسكم أمامى وعضدتم مشروعى بتقديم الجند والذخيرة والآلات احتفظت لكم بما فى أيديكم من الولايات والجيوش والقصور ، أما ان أظهرتم على العكس من ذلك توانيا

---

(١) صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٣٠٩ .

واهمالا فى تنفيذ أوامرى سرت اليكم بعد اتمام مشروعى بعون الله ولم اسمع منكم اعتذارا وعاملت حكوماتكم وأملاككم كما لو كانت ملكا للكفار » (١) .

بقى امام هولاكو أن يلاقى الاسماعيلية بعد أن اطمأن الى عدم وجود أخطار وراءه ، وبعد أن اكتسب محالفة الأمراء فيما وراء النهر وفارس . وقد عول على ذلك فعلا فعبر بقواته نهر جيحون فى أول ذى الحجة سنة ٦٥٣ هـ (٢ يناير سنة ١٢٥٦م) وسار نحو قوهستان . ولما كان قد أرسل من قبل قائده قطبغا نويان بجيش عدده اثنا عشر ألفا فى خريف سنة ١٢٥٢م الى هذه الجهة ليمهد له السبيل ، ولما كان هذا قد قام بواجبه خير قيام ، فان هولاكو لم يلق صعوبة كبيرة ولم يبذل مجهودا شاقا فيها ، وكل ما يذكر له فتحه ساوه وخواف حوالى آخر مارس سنة ١٢٥٦م (٢) .

وقد ترك هولاكو قوهستان واتجه نحو بحر قزوين مارا بالمنصورية وسهول راذكان ثم خبوشان التى كانت مخربة منذ حملات المغول الأولى فأعاد بناءها ، ولم يحل يوم ١٠ شعبان سنة ٦٥٤هـ الا وكان أمام أسوار خراكان وبستام(٣) وأصبح عليه أن يفتح معاقل الاسماعيلية الحصينة .

لو أن هولاكو عزم على فتح هذه المعاقل بالقوة للقى من شجاعة الاسماعيلية وروح التضحية المتأصلة فيهم ما أتعبه

---

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 137-138.
و Howorth, Vol. I, p. 193.
و Quatremere, p. 151.
و Richard Coke, p. 137.
و Browne, Literary Hist of Persia, Vol. II, p. 453.

(٢) Browne, Lit. Hist. of Persia, Vol. II, p. 458.

(٣) Quatremere, pp. 183, 184.

وأقض مضجعه وأطال حروبه وكبده الخسائر الكبيرة ، ولكنه وقد كان بعيد النظر اتبع خطة أخرى وفرت عليه كثيرا من الجهود وقربت له أمنيته ، تلك هى الاستفادة من جبن ركن الدين خورشاه رئيس الاسماعيلية المقيم وقتذاك فى ميمون ديزه وادخال الرعب فى قلبه حتى يسلم ثم استخدامه فى فتح معاقل الاسماعيلية ٠

بدأ هولاكو بتنفيذ هذه الخطة وهو أمام اسوار بستام فأرسل حاكم هراة مركتاى Merketai ومعه منكلمش Monkelmesu وأوصاهما بتهديد خورشاه وارهابه ٠ ثم توالت المراسلات بينهما مدة طويلة (١) ٠ وأخيرا أرسل اليه هولاكو عطا ملك الجوينى حتى اذا لم يصل الى نتيجة بدأت جيوشه فى ضرب المدينة ، وهنا آثمرت خطته ثمرتها الأولى اذ خرج ركن الدين خورشاه من ميمون ديزه فى يوم ٢٩ شعبان ٦٥٤ هـ (١٩ نوفمبر ١٢٥٦م) وقدم خضوعه لهولاكو واستولى المغول بعد ذلك مباشرة على ميمون ديزه وخربوها ونهبوها وأحرقوها (٢) ٠ ثم أيضا يستغلون ركن الدين خورشاه ويستفيدون من وجوده فى أيديهم فعاملوه بالحسنى فى أول الأمر حتى أطاعهم ودعا مدن الاسماعيلية الى التسليم لهم ٠ وقد سلمت لهم نتيجة دعوته أكثر من خمسين قلعة (٣) أما

(١) ابن العبرى ، ص ٤٦٣ ــ ٤٦٤ ٠
و Quatremere, p. 185.

(٢) D'Ohsson, Tome III, pp. 195-196. ,
و Browne, Vol, II, p. 458.

(٣) ابن العبرى ، ص ٤٦٤ ٠
و D'Ohsson, Tome III, pp. 197-198.,
و Howorth, Vol. I, p. 196.
ويلاحظ أن دوسون يذكر أن المدن التى سلمت للمغول أكثر من اربعين لا اكثر من خمسين ٠

المدن التى أبت سماع دعوة خورشاه بالتسليم مثل ألموت فقد فتحت بالقوة فى ٣٠ ذى القعدة سنة ٦٥٤ هـ (٢٠ ديسمبر سنة ١٢٥٦م) ، وحدث بعد ذلك أن أرسل هولاكو ركن الدين خورشاه الى قره قورم لمقابلة الخان الأعظم مانجو ولكن هذا الأخير لم يقابله وأمر بقتله وقتل جميع من بقى على قيد الحياة من أهل طائفته فقضى المغول على الاسماعيلية فى ايران كقوة سياسية ؛ وان كان لا يزال لهم حتى الوقت الحاضر نسل فى تلك البلاد (١) ·

واذا كنا قد رأينا أن جبن ركن الدين خورشاه وسوء تدبيره كانا السبب فى قضاء هولاكو على الاسماعيلية بهذه السهولة ، فيجب ألا يعزب عن بالنا عامل آخر لا يقل أثرا وهو الدور الذى قام به نصير الدين الطوسى الذى كان فى ألموت عندما دارت المحادثات بين هولاكو وركن الدين خورشاه · وقد أتى بهذا الرجل الى ألموت نصير الدين حاكم قوهستان من قبل الاسماعيلية فى أيام علاء الدين والد ركن الدين خورشاه وظل بها منذ ذلك الحين محترما مكرما (٢) · ولكن هذه الاقامة كانت على غير رغبة منه ؛ لذلك لم يخلص لحكامها وبلغ كرهه لها أشده فى أيام ركن الدين خورشاه · ويتلخص الدور الذى قام به فى أنه اتفق مع جماعة ممن كانوا يقيمون مثله فى ألموت على غير ولاء على تسليم الاقليم لهولاكو اذا استدعى الأمر (٢) · وقد خدمته الظروف اذ لم تضطره

(١) ابن العبرى ، ص ٤٦٥ ·
و D'Ohsson, Toml III, pp. 101-102. ,
و Browne, Vol. II, pp. 458-460.
(٢) D'Ohsson, Tome III, p. 256. ,
و Browne, Vol. II, p. 456.
(٣) Quatremere, p. 185.

الى تدبير مؤامرة لتسليم البلاد ولم تظهر للملأ خيانته هو واخوانه ؛ لأن خورشاه سرعان ما اقتنع بضرورة التسليم للمغول مع أنه الخائن الذى غرر بخورشاه وخدعه وشجعه على التسليم وكلفه بذلك أمرا أفقده حياته وملكه وطائفته (١) ·

٣ ــ قضاء هولاكو على الخلافة العباسية

بعد انتهاء هولاكو من أمر الاسماعيلية ذهب الى قرب قزوين فى ٢٧ ذى الحجة سنة ٦٥٤هـ وأقام الحفلات لجيوشه المنتصرة ، ثم تحرك منها الى همذان فوصل اليها فى أوائل المحرم سنة ٦٥٥هـ (أوائل يناير سنة ١٢٥٧م) وعسكر بجيوشه فيها وأخذ يعمل على تنفيذ الشطر الثانى من برنامج الحملة التى بيده قيادتها · ويلوح لى أن هولاكو عندما فكر فى الخلافة العباسية وهو بهمذان عزم لأول وهلة على ابادتها ، على الرغم من أن مانجو بنصيحته التى وجهها اليه يوم أقام له ولجيوشه الولائم فى قره قورم لم يدعه الى القضاء على الخلافة العباسية بل طلب منه أن يترك أملاك الخليفة له اذا قدم فروض الطاعة وأظهر نواياه الحسنة · ويحقق ذلك لدى تقريع هولاكو للقائد المغولى بيجو نويان حين وصل الى همذان قادما من أذربيجان على عدم فتحه بغداد وقضائه على الخلافة (٢) · ولابد أن هولاكو عندما ترك قره قورم كان على رأى الخان الأعظم ؛ ولكنه بعد أن سار الى الغرب ورأى الأمراء يقدمون له فروض الطاعة حيثما وصل بينما الخليفة العباسى لم يكلف نفسه مؤونة ارسال رسول

(١) Quatremere, p. 185.

(٢) Quatremere, p. 223.

= D'ohsson, Tome III, p. 206.

من قبله كما أنه لم يمده بالمعونة عند محاربته للاسماعيلية ــ لما رأى هولاكو ذلك كله حقد على الخليفة وعزم على الانتقام منه ·

واذا كان هولاكو لم يسير جيوشه الى العراق حالما انتهى من محاربة الاسماعيلية ، فمن المحتمل أن يكون ذلك رغبة منه فى الاستعداد للحرب خصوصا وأن بيجو نويان حين دافع عن نفسه أمام تقريع هولاكو على تركه بغداد دون فتحها بالغ فى قوتها ووصفها بقوله : « الحقيقة أن هذه المدينة بسبب كثرة سكانها وجيوشها العديدة ، وبسبب ما تحتوى عليه من آلات الحرب والذخيرة وبسبب هذه الطرق الصعبة الضيقة التى يجب سلوكها قبل الوصول اليها · بسبب ذلك كله لا يمكن لأى جيش أن يفتحهما الا بصعوبة » (١) · اذ ليس من الحكمة والأمر على ما ذكره بيجو نويان الاسراع بمهاجمتها قبل اعداد العدة · كما أنه قد يكون الدافع بهولاكو الى التريث رغبته فى الظهور بمظهر المطيع لتعليمات الخان الأعظم المنفذ لها ·

= ذكر دوسون أن هولاكو عادر الجهات المحاورة لقزوين قاصدا همدان فى ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ (مارس سنة ١٢٥٧ م) وذكر رشيد الدين (ترجمة كترمير) أن هولاكو وصل همذان فى ١٢ رجب سنة ٦٥٥ هـ (يوليو سنة ١٢٥٧ م) على أن مجرى الحوادث على ما سنرى فيما بعد يدل على أن هذه التواريخ غير صحيحة · اذ كيف نستطيع التوفيق بين هذه التواريخ وبين قول رشيد الدين نفسه فيما بعد ان وصول هولاكو الى كرمنشاهان كان فى ٢٧ من المحرم ؟ ان الأقرب الى الصحة فيما أرى أن تكون مغادرة هولاكو للجهات المجاورة لقزوين وذهابه الى همذان قد وقعت فى أوائل المحرم ، وأن يكون سيره منها بعد العشرين من المحرم · وهذا هو الذى أخذت به فى هذا الكتاب ·

(١) D'Ohsson, III, p. 207.
Quatremere, p. 225.

و

(أ) دعوة الخليفة المستعصم الى التسليم : وعلى كل حال، فقد كان أول ما قام به هولاكو فى همذان هو أن أرسل الى الخليفة المستعصم رسالة يعتب فيها عليه بسبب عدم امداده بالجند عند محاربته للاسماعيلية ويذكره بأن المغول لم يهزموا قط ويدعوه الى تجريد حصونه من السلاح والحضور شخصيا اليه أو ارسال الدفتردار الصغير وسليمان شاه نيابة عنه . ويقول له انه ان فعل ذلك ضمن حريته وحفظ مركزه وان أبى أحل بنفسه وبأهله الدمار ؛ لأن جيوش المغول فى تلك الحالة ستسير الى بغداد وتستولى عليها منه لتخفضه من عزه ولا تدع أحدا فى قيد الحياة فى جميع أرضه ، ويختمها بقوله : « القمر يضيء فقط عندما تغيب الشمس فلا تدق مسمارا بقبضتك ولا تخطيء الشمس بنور الشمعة أو تظن أنه يمكنك التوبة » (١) أى ان هولاكو اتبع فى أول الأمر وصية الخان الأعظم مانجو فدعا الخليفة الى اظهار ميوله الحسنة نحو المغول وتقديم خضوعه لهم وان أحاط كل ذلك بتهديدات تفصح عن كراهيته للخليفة ورغبته فى النيل منه .

وقد جاء رد الخليفة المستعصم على هولاكو شديدا وان حرص على صوغه فى قالب مرن ، اذ دعاه الى الاقلاع عن غروره والرجوع الى خراسان وقال له : « أيها الشاب يا من بدأت بحياتك وشيكا وشربت كأس العز والحظ الحسن من عشرة أيام وجعلت نفسك تبعا لذلك فوق العالم أجمع وظننت أن أوامرك هى أوامر القضاء، كيف تطلب منى طلبا لا يمكنك تنفيذه ؟ أيخيل اليك أنك بذكائك وقوة جيشك وشجاعتك ستأسر نجما من النجوم ؟ اتبع طريق الحسنى وعد الى

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 215-217.
و Quatremere, pp. 231-233.

خراسان .. » (١) . وأخذ يذكره بمجد الخلافة الغابر وسلطة الخليفة الحالية وانتشار نفوذه على جميع المسلمين ويقول له : «ان ملايين من الخيالة والرجالة على استعداد للحرب رهن اشارتي حتى اذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر» (٢) ، كما أنه لم ينس في آخر الأمر أن يذكر أنه لا يريد حربا لأنه لا يود أن تقاسي رعيته من سير الجيوش . فكانت النتيجة أن هولاكو وجد فيه مبررا لتشدده ازاءالخلافة العباسية وتكأة لتنفيذ ارادته في سحقها ، ورأى أنه ان حارب الخليفة بعد أن ظهرت نواياه السيئة وغروره القبيحلم يتخط الدائرة التي رسمها له مانجو . ويدلنا على ذلك أنه أرسل الى الخليفة يقول : « انك تركت نهج آبائك فاستعد للحرب وانتظر جيشا قويا ، ولو أن الشيطان وضع عراقيله أمام خططي لانتصرت عليه بعون الله » (٣) .

لم يهتم هولاكو بعد ذلك ولم يدخل الرعب الى قلبه حين وصله من قبل الخليفة المستعصم بدر الدين ديريكي وقاضي البندنيجين وأخذا يقولان له ، ان كل من حاول فتح بغداد فشل ورجع بالخيبة ويضربان له الأمثال بيعقوب بن الليث الصفار الذي سار لفتحها ولكنه مات ، وأخيه عمروالذي أراد ما أراد أخوه ولكنه وقع في يد اسماعيل بن أحمد الساماني أسيرا وأرسل الى بغداد ليلاقي جزاءه ، والبساسيري الذي أقام الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر ولكن طغرلبك السلجوقي قضى عليه ، والسلطان محمد السلجوقي الذي تقدملغزو بغداد ولكنه عاد هاربا ومات في الطريق، ومحمد خوارزمشاه الذي

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 217-218.
و Richard Coke, p. 141.
(٢) Quatremere, p. 335,
(٣) Ibid, 233.

سار لهذا الغرض ولكن البرد اشتد عليه ونزل الثلج على جيشه واضطر الى التقهقر بعد أن مات كثير من جنوده ثم لم يلبث أن مات هو نفسه فى احدى الجزر النائية فى بحر قزوين(١) • نعم ، لم يتأثر هولاكو بهذه الأقوال ، بل ازداد عزمه قوة وتمثل لهما بقول الفردوسى فى الشاهنامة « أقيموا حوله مدينة وسورا من الحديد وشيدوا حصنا وحاجزا من الصلب • اجمعوا جيشا من الشياطين والجن وسيروا بعد ذلك ضدى تحرقكم الرغبة فى الثأر فسأخضعه ولو كان فى السماء وسأصل اليه رغم أنفه ولو كان فى معقل الأسد » (٢) ثم آخذ يعد العدة لمحاربة الخليفة المستعصم •

(ب) الاستعداد للحرب : ساءت العلاقات بين هولاكو والخليفة المستعصم ، ولم يكن لتبادل المراسلات بينهما من أثر سوى جعل الحرب ضرورة لابد منها ، وقد رأى هولاكو بثاقب نظره أن يستولى على الجهات الواقعة فى طريقه الى بغداد قبل أن يعزم على السير اليها • لهذا أرسل الى حسام الدين اكه صاحب مدينة ديرتنك Dertenk وما جاورها من قبل الخليفة واستدعاه اليه وغمره بعطفه وحاول أن يضمه اليه ، ولما لم يأنس فيه الاخلاص له ورآه يميل الى الرجوع الى صف الخليفة استدعى قطبغا نويان من ايران الوسطى ثم كلفه بمحاربته فسار اليه وقتله واستولى على بلاده ثم رجع اليه منتصرا (٣) • ويلاحظ أن هولاكو لم يكتف بذلك ، بل أخذ يثير أحقاد الشيعة والمسيحيين ضد الخلافة العباسية (٤) •

---

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 212-222.
و Quatremere, p. 251.
(٢) Quatremere, p. 253.
(٣) D'Ohsson, Tome III, pp. 222-224.
و Quatremere, pp. 255-259.
(٤) Richard Coke, Baghdad the City of Peace, p. 142.

وعندما تأكد هولاكو أن في امكانه السير الى بغداد دون أن تعترضه مصاعب ذات بال بدأ في أخذ رأى الفلكيين على عادة المغول اذا قدموا على غزو أو عزمو على أمر مهم • أما الفلكي حسام الدين الذى أرسله الخان مانجو مع هولاكو وكان سنيا يعطف على الخليفة العباسى فقد حاول أن يثنى هولاكو عن عزمه واخذ يبين أن مشروعا يراد به فتح بغداد لن يعقبه خير ، وكان مما قاله : «الحقيقة انه حتى هذه اللحظة كل ملك تجاسر على السير ضد بغداد وأبناء العباس لم يبق له العرش ولا الحياة ، واذا أبى الأمير أن يسمع لنصائحى وتمسك بمشروعه فسينتج عنه ست مصائب كبيرة ، أولا — ستموت الخيول جميعها وتصيب الجنود أمراض مختلفة ثانيا — لن تطلع الشمس ، ثالثا — لن يسقط المطر ، رابعا — ستهب رياح شديدة وسيعانى العالم من هزات الارض ، خامسا — لن تخرج الأرض نباتا ما ، سادسا — سيموت الخان الأعظم فى هذا العام» • وقد كان فى تحديده وقتا لوقوع هذه الكوارث أكبر الخطأ لأن هولاكو اعتقله عنده حتى حل الوقت المعين ولما لم يحدث ما أشار به قتله (١) • وقد خالف الفلكى خوجه نصير الدين الطوسى حسام الدين وانضم الى صف الأمراء المغول الذين كانوا متمسكين بضرورة غزو بغداد وكانوا يرون أن حملة ضدها مشروع من أنسب المشروعات • وعندما سأله هولاكو عن رأيه فيما قاله حسام الدين أجابه بأن شيئا من الكوارث التى عددها لن يقع، وأكد له أنه سيحكم مكان الخليفة • ويذكر لنا رشيد الدين (٢) أن نصير الدين الطوسى ذكر ما ذكره لأنه خاف أن يتحققوا من كلامه ويفعلوا

---

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 224-225.
و Quatremere, p. 261.
(٢) Quatremere, p. 263.

به ما فعلوا بحسام الدين ، أى انه يحاول أن يبرئه من وصمة تشجيع هولاكو على غزو بغداد . بينما يذكر لنا غير رشيد الدين من المؤرخين (١) أن نصير الدين فعل ذلك نكاية فى الخليفة العباسى الذى كان يكرهه لاختلافه عنه فى المذهب الدينى ولأنه جاء مرة الى بغداد وقدم اليه قصيدة شعرية فلم يجزه عليها .

والواقع ، انني لا أجد فى سيرة نصير الدين الطوسى ما يبرئه من هذه التهمة ، فهو الذى كان سببا فى اقناع خورشاه بالتسليم لهولاكو ، هذا الى أن هولاكو عندما أحضر حسام الدين ليناقش نصير الدين ويدافع أمامه عن رأيه أخذ نصير الدين يأتى بالحجج الدامغة للدلالة على كذب دعوى حسام الدين ، وكان مما ذكره أن كثيرين من أصحاب الرسول ماتوا فى الدفاع عن الدين ومع ذلك لم تقع كارثة ما وأن كثيرين من الناس خرجوا على بنى العباس ولم يلحقهم أذى وجعل يمثل بطاهر قائد المأمون الذى قتل محمد الأمين وبالأمراء الذين قتلوا المتوكل والمنتصر والمعتز وغيرهم (٢) . فلو أن نصير الدين لم يكن يكره الخليفة ويعمل على سقوطه أو لو أنه كما يقول رشيد الدين كان مضطرا الى تحبيذ المشروع ؛ لما وقف موقف المدافع عن الفكرة المحبذ لها الذى لا يتهاون فيها ولاكتفى بالقول بنجاح المشروع دون أن يفند أقوال حسام الدين .

هذا ما قام به هولاكو استعدادا للحرب ، أما الخليفة المستعصم فعلى الرغم من أنه وافق الدفتردار الصغير وسليمان

---

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 225-226.
و Coke, Baghdad the City of pease, p. 142.
(٢) D'Ohsson, Tome III, p. 226.
و Quatremere, p. 263.

شاه على المقاومة (١) فانه لم يقم بما يجب عليه لصد هـذا الخطر المدلهم ولم يقم بعمل الاستعدادات اللازمة ، بل انه بعد أن أمر وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمى بجمع الجند وبعد أن نفذ الوزير أمره بعد مراوغة بلغت خمسة شهور عاد فنكص على عقبيه ولم يوزع عليهم شيئا من ماله وعاودته طبيعة البخل المتحكمة فيه (٢) . وقد قيل انه كان ينتظر معونة الهيئة ، كما ذكروا أنه كان ينتظر مساعدة أمراء المسلمين له كما قال له وزيره ابن العلقمى(٣)، هذا وقد ذكر ابن العبرى (٤) « وكان اذا نبه على ما ينبغى أن يفعله فى أمر التاتار (كذا) اما المداراة والدخول فى طاعتهم وتوخى مرضاتهم أو تجييش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلائهم على العراق، فكان يقول أنا بغداد تكفينى ولا يستكثرونها لى اذا نزلت لهم عن باقى البلاد ولا ايضا يهجمون على وأنا بها وهى بيتى ودار مقامى» . وعلى كل حال فانه لزم خطة الجمود ولم يقم بعمل يستحق الذكر ولم تنزل عليه معونة الهية ولم يخف الأمراء المسلمون لنجدته ، كما أن المغول لم يراعوا عواطفه ولم يفكروا فى ترك بغداد له .

(ج) مسير هولاكو الى بغداد : وضع هولاكو وهو بهمذان خطة السير الى بغداد، وكانت هذه الخطة ترمى الى جعل بغداد فى وقت من الأوقات محاطة بجيوشه من جميع النواحى على أن يكون هو فى القلب ، بينما يؤلف جورماجون وبيجونويان ومن معهما الجناح الأيمن ويذهبون الى الموصل عن طريق

---

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 219- 220.

(٢) Ibid, p. 221.

(٣) Quatremere, p. 248.
D'Ohsson, Tome III, p. 213.

(٤) ابن العبرى ، ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦ .

اربل ويعبرون جسر الموصـــل ويكونـــون فى وقت معـــين معسكرين غربى بغداد ، ويكون الجنـــاح الأيسر مؤلفا من جيش كتبغانويان بعد أن يخترق لورستان (١) •

وقد بدأ هولاكو سيره من همذان فى أواخر المحرم سنة ٦٥٥هـ (أواخر يناير سنة ١٢٥٧م) وأخذ معه من أمراء المغول كوكا الكا Kouka Ilka واركاتو Arkatou وآرجوناكا Argounaka ، ومن أمراء المسلمين آبا بكر سعد بن زنكى أتابك شيراز وبدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل ، ومن الكتاب والعلماء قرطاى Karatai وسيف الدين وسكرتيره عطا ملك الجوينى صاحب كتـــاب جهان جشـــا وخـــوجه نصير الدين الطوسى (٢) • ولما وصل الى آسد آباد أرسل رســـولا يدعو الخليفة المستعصم الى المثول بين يديه ، ثم واصل سيره • وفى دينور لقيه رسول الخليفة شرف الدين عبد الله بن الجوزى برسالة كلها تهديد ووعيد وفيها يطلب الخليفة من هولاكو الرجوع ويعده فى مقابل ذلك بدفع جزيه سنوية • وقد رد هولاكو هذا الرسول وقال له ساخرا : « لقد قطعنا طريقـــا طويلا فكيف نرجع دون أن نرى الخليفة • اننا بعد أن نتشرف بالمثـــول بين يديه وبعد أن نتحادث معـــه ســـنسمع أوامره ونعود مباشرة •• » (٣) • ثم بعد ذلك استمر فى ســـيره وعبر بجيوشه الجبال الكردية حتى وصل الى كرمانشاهان فى يوم ٢٧ من شهر المحرم سنة ٦٥٥ هـ •

---

(١) Howorth, Vol. I, p. 199.

(٢) D'ohsson, Tome III, p. 227.

و Quatremere, p. 265.

و Browne, Literary History of Persia' Vol. II, p. 460.

(٣) Dohsson, Tome III, p. 228.

و Quatremere, pp. 265-267.

صارت جيوش هولاكو فى كرمانشاهان قريبة من قوات الخليفة التى كانت معسكرة فى المكان الواقع بين بلدتى بعقوبا وباجسرا تحت قيادة مجاهد الدين أيبك الدفتردار الصغير وابن قره (١) • وأصبح التصادم بينهم أمرا لابد منه • ولكن المغول حالوا دون هذا التصادم بكل الطرائق الممكنة لأنهم على ما يظهر كانوا يخافون عواقبه وقنعوا فى أول الأمر بالعمل على تمزيق القوات الخلافية وذلك باستمالة الأتراك الموجودين فيها ، وقد استعملوا لهذه الغاية الأتراك الذين يعملون فى صفوفهم ، معتقدين أن تأثيرهم على أبناء جنسهم لابد أن يكون كبيرا ولكنهم فشلوا وأثبت الأتراك الذين فى صف الخليفة انهم مخلصون له وأنهم عازمون على البقاء معه حتى النهاية ، وتجلى اخلاصهم فى رد أحدهم المسمى قره سنقر الذى كان يقود مقدمة جيش الخليفة على كتاب أرسله اليه أحد الكشاف الأتراك فى الجيش المغولى واسمه سلطان جوك Sultan Djouk • فقد كتب سلطان جوك يقول انه تركى مثله خضع لهولاكو فلم يلق منه الا كل خير ، ودعاه الى الانضمام الى هولاكو هو الآخر حتى يحتفظ بحياته وحياة أبنائه وأسرته ، ولكن قره سنقر رد عليه ردا شديدا قال له فيه ان كل من حاولوا فتح بغداد أو الاعتداء على الخليفة العباسى باءوا بالفشل ، وذكر له أن الخليفة عندما علم بسير هولاكو حنق وعزم على القضاء عليه ، ثم طلب منه اذا كان يريد سلما أن يبدأ باقناع هولاكو بالرجوع الى همدان ووعده

---

(١) Ibid., p. 281.

بأنه فى هـذه الحـالة سيوسـط الدفتردار لاقناع الخليفة بالرضاء بالسلم (١) ٠

اغتاظ هولاكو لهذا الفشل وكان مما قاله عندما علم بما رد به قره سنقر : « ان قوتى قائمة عـلى سيف الخـالق وليست قائمة على الذهب والفضة ، واذا أحبنى الله وقانى فمن ذا الذى يخيفنى من الخليفة وجنده ٠ ان ناظرى لا تختلف أمامه النملة والبعوضة والفيل أو النبع والنهـر والبحـر والنيل ٠٠ (٢) » ولكنه مع ذلك لم يجسر على أن يتبع طريق القوة بل أراد أن يراوغ الخليفة ويكسب الوقت فأرسل اليه يقول : « اذا كان الخليفة عازما عـلى التسـليم فليأت بنفسه الينا واذا كان عازما على محاربتنا فليرسل الوزير وسليمان شاه والدفتردار قبل كل شيء ليصغوا الى مطالبنا »(٣) ثم أراد أن يتخلص من مقاومة جيوش الخليفة له بعد أن فشـل فى تمزيقها فاستدعى بيجونويان وسنجاك Soundjak وسنتوا Sountoi وبغاتيمـور Boukatimour عـلى عجـل وأمرهم بالاسراع الى عبور دجلة ومهاجمة بغداد من الغرب (٤) ٠ وكان النجاح حليفه ، لأن قوات الخليفة المعسكرة بين بعقوبا وباجسرا عندما علمت بمهاجمة القوات المغولية لبغـداد من الغرب تحركت من مركزها وعبرت نهر دجلة لتصدها وبذلك تركته حرا طليقا فسار حتى وصل شاطىء نهر حلوان فى يوم ٩ من ذى الحجة سنة ٦٥٥هـ (١٨ ديسمبر سنة ١٢٥٧م) ثم عسكر فى خانقين حتى يوم ٢٢ من الشهر نفسه ، ثم واصل

---

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 228-229.
و Quatremere, p. 269.
(٢) Ibid, p. 272.
(٣) D'Ohsson, Tome III, p. 229.
و Quatremere, p. 279.
(٤) Quatremere, p. 267.

سيره حتى عسكر شرقى بغداد فى يوم ١١ من المحرم سنة ٦٥٦هـ (١٨ يناير سنة ١٢٥٨م) (١) أى بعد سنة تقريبا من تركه همذان .

ويجب ألا ننسى هنا أن بيجونويان وزملاءه قاموا بهذا الدور تبعا للخطة التى رسمها هولاكو لجيوشه فى همذان، وكل ما فى الامر أنه سيرهم فى الوقت المناسب فرمى عصفورين بحجر واحد ، اذ وصل آسوار بغداد الشرقية دون أن يلقى مقاومة كما وصلت جيوش بيجونويان وزملائه الى بغداد الغربية .

وقد بذلت قوات بيجو نويان وزملائه مجهودا كبيرا ؛ اذ أسرعت منذ دعاها رسول هولاكو وقابلته فى المكان المسمى طاق كسرى Tak-kesra ثم تلقت أوامره وأحرقت أكتاف الحيوانات على عادة المغول ثم يممت شطر بغداد الغربية وعبرت نهر دجلة عند تكريت على جسر من القوارب اقامته فى أربع وعشرين ساعة بعد أن قطع آهل تكريت الجسر الذى كان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قد أقامه لعبورها . وسارت فى محاذاة قناة دجيل حتى عسكرت على شاطىء نهر عيسى . وبعد أن استراحت من العناء الذى لاقته طلب سنجاك من بيجو نويان أن يؤمره على مقدمة الجيش ثم سار حتى وصل قريبا من حى الحربية ، ولكن قوات الخليفة كانت قد عبرت نهر دجلة فلاقته فى ٩ المحرم سنة ٦٥٦ هـ (١٦ يناير سنة ١٢٥٨م) وهزمته بقرب الأنبار على بعد

---

(١) ابن العبرى ، ص ٤٧٢ .

و D'Ohsson, Tome III, p. 232.

و Quatremere, p. 281.

تسعة فراسخ من بغداد واضطرته الى التقهقر والاسراع للانضمام الى قوات المغول التى تركها وراءه . وقد حدث بعد ذلك أن سارت قوات الخليفة متتبعة الجيش المنهزم غير مكتفية بما أحرزته من نصر ، فاضطرت قوات بيجو نويان وزملائه ازاء ذلك الى ملاقاتها ، ووقعت بذلك موقعة شديدة فى منطقة دجيل استغرقت مساء ٩ وصباح ١٠ من المحرم سنة ٦٥٦هـ (١٦ وصباح ١٧ يناير سنة ١٢٥٨م) . وعلى الرغم من أن قوات الخليفة أحرزت الغلبة فى مساء ٩ المحرم، فان المغول نجحوا ليلا بسبب قطع أحد الجداول واغراق ما وراء معسكر الجيش العباسى . ويقول الديار بكرى(١) ان أتباع الوزير ابن العلقمى هم الذين أغرقوا المعسكر، كما يقول براون (٢) ، ان المغول فعلوا ذلك بمعاونة المهندسين الصينيين الذين أحضروهم معهم . وعلى كل حال ، فان المغول لم يهزموا هذا الجيش فى صباح ١٠ المحرم فحسب بل أنزلوا به الخسائر الفادحة أيضا ، فقتل من قواده فلاح الدين وابن قره وقره سنقر ، كما قتل من جنده اثنا عشر ألفا عدا من غرقوا وغطاهم الطين ، ولم ينج منهم الا من رمى بنفسه فى الماء أو من دخل البرية ومضى على وجهه الى الشام أو الحلة أو الكوفة وكان الدفتردار الصغير ممن نجوا اذ تمكن من الوصول الى بغداد على رأس شرذمة صغيرة (٣) .

(١) الديار بكرى ــ الخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٢) Browen, Litterary History of Persia, Vol. II, p. 461.

(٣) ابن العبرى ، ص ٤٧٣ والفخرى ، ص ٢٤٦ .

و D'Ohsson, Tome' III, pp. 228-230-232.

و Browne, Literary History of Persia, Vol. II. p. 461.

ملاحظة ــ كان عسكر الخليفة فى هذه الموقعة فى غاية القلة على ما ذكره صاحب الفخرى (ص ٢٤٦) وعشرين ألفا على ما ذكره صاحب طبقاتى ناصرى (براون ــ تاريخ فرس الأدبى ج ٢ ص ٤٦١) . بينما كان حشد بيجونويان وزملائه يزيد على ثلاثين ألفا على ما ذكره صاحب الفخرى (ص ٢٤٦) وثمانين ألفا على ما ذكره صاحب طبقاتى ناصرى (براون ، ص ٤٦١) .

وعلى كل حال ، فقد كان انتصار القوات المغولية عظيما مكنهم من دخول بغداد الغربية فى ١٥ المحرم سنة ٦٥٦ هـ (٢٢ يناير سنة ١٥٢٨م) والسيطرة على جميع أجزائها(١) .

هذا فيما يختص بالجناح الأيمن والقلب ، أما الجناح الأيسر الذى كان يقوده قطبغا نويان فكل ما نعلمه عنه أنه اخترق لورستان وتقدم حتى أصبح فى يوم ١٥ المحرم سنة ٦٥٦ هـ عند صرصر (٢) .

(د) حصار بغداد : اذا ذكرنا حصار بغداد فاننا نقصد حصار المغول لبغداد الشرقية ، وذلك لأن تلك المدينة الشرقية كانت مقر الخليفة وحكومته كما أن أهل بغداد الغربية تدفقوا اليها منذ عبرت جيوش بيجو نويان وزملائه نهر دجلة عند تكريت عازمة على غزو بغداد من الغرب ، ويقول صاحب الفخرى : وقد بلغ من شدة رغبتهم فى الذهاب اليها أنهم

= وأحب أن انبه فى هذا المقام الى ان براون اخطأ حين ذكر ان الجيش الذى كان يزيد على ثلاثين ألفا هو جيش هولاكو لا جيش بيجونويان ، ناسبا هذا الخبر الى صاحب الفخرى (براون ، ص ٤٦١) فقد رجعت الى هذا الكتاب فلم أجد فيه شيئا من هذا القبيل بل وجدت هذا النص « فلما وصل العسكر السلطانى الى دجيل وهو يزيد على ثلاثين ألف فارس خرج اليه عسكر الخليفة صحبة مقدم الجيوش مجاهد الدين أيبك الدويدار وكان عسكرا فى غاية القلة فالتقوا بالجانب الغربى من بغداد قريبا من البلد » وهو يبين بكل وضوح أن الجيش الذى كان يربو على ثلاثين ألفا هو جيش بيجونويان وزملائه الذى هاجم بغداد من الغرب لا جيش هولاكو الذى هاجمها من الشرق . ولابد أن براون حين وجد ابن طباطبا يذكر أن العسكر السلطانى يربو على ثلاثين ألفا ، ظنه عسكر هولاكو وهو معذور فى ذلك لأن ابن طباطبا ذكر كلمة العسكر السلطانى قبل ذلك مرات وكان يقصد بها دائما عسكر هولاكو الذى هاجم بغداد من الجهة الشرقية .

(١) D'Ohsson, Tome III, p. 232.
و Quatremere, p. 281.

(٢) D'Ohsson, Tome III, p. 232.

صرصر بالفتح وتكرار الصاد والراء وهما قريتان من سواد بغداد صرصر العليا وصرصر السفلى وهما على ضفة نهر عيسى ... وبين السفلى وبغداد نحو فرسخين (راجع لفظ صرصر فى معجم البلدان لياقوت) .

كانوا يعطون الجذافين الذين ينقلونهم بقواربهم من ضفة دجلة الغربية الى ضفته الشرقية أسورة من الذهب وملابس مطرزة من الذهب وعددا كبيرا من الدنانير (١) .

وقد أحاط المغول ببغداد الشرقية منذ وصولهم احاطة السوار بالمعصم . فهولاكو الذى وصل عن طريق خراسان عسكر في وسط القوات التى توجد أمام الأسوار الشرقية تجاه برج العجم ، بينما عسكر من الأمراء الذين كانوا يرافقونه الـكا نـويان Ilka Noyan رتربا Ferba امام باب كلواذى على يسار هولاكو ، وانضم اليهم قطبغا نويان الذى كان يكون بجيشه الجناح الايسر للقوات جميعها . على ان المؤرخين ، ومن بينهم هورث ودوسون ، لم يذكروا عند كلامهم عـلى ترتيب الجيوش المغولية أثناء حصارها مدينة بغداد شيئا عن انضمام قطبغا نويان الى هذه القوات التي عسكرت أمام باب كلواذى ، ونستطيع أن نؤيد ما ذهبنا اليه مما ذكره هؤلاء المؤرخون في موضع أخر من أن الخليفة بعد أن خرج من بغداد نقـل الى معسكر قطبغا نويان أمام هذا الباب ووضـع فى خيمة . أما كولى Kouliوبلجـا Boulga رتوتا Toutai وشيراسون Shiramoun وآركيو Arkiou ، فعسكروا تجاه الجزء الأكبر من السور الشرقى بقرب باب السلطان على يمين هولاكو ، هـذا بينما عسـكرت جيـوش بيجو نويان وسـنجاك فى محلة المستشفى العضدى كما عسكرت قوات بغاتيمور فى محلة القرية ، وكانت بذلك جميعها تطل على بغداد الشرقية من الغرب وتحـول دون وصـول المـدد اليها عن طـريق نهـر دجلة (٢) .

---

(١) الفخرى ، ص ١٤٦ .

و D'Ohsson, Tome III, p. 230.

(٢) D'Ohsson, Tome III, p. 232, 239

و Quatremere, pp. 281-283, 299.

ولم تترك هذه القوات منذ اتخذت أماكنها حول بغداد فرصة تمر دون أن تستخدمها فى تقريب الغاية التى تسعى اليها وهى الاستيلاء على هذه المدينة ، فأقامت أمام أسوارها أسوارا أخرى موازية لها من الأتربة كما حفرت خندقا بجانب المدينة ووراء هذه الأسوار ، وأتمت هذه الأعمال جميعها فى أربع وعشرين ساعة وتمكنت بذلك من فصل المدينة عما جاورها • هذا الى أنها كونت من الأنقاض الموجودة حول المدينة أكواما عالية جعلتها مقاعد لقاذفات الأحجار (العرادات) وآلات النفط وبذلك جعلت المدينة تحت رحمتها • أضف الى ذلك أنها عندما وجدت أن الحجارة التى تحتاج اليها العرادات لا توجد حول بغداد أحضرتها من جبل حمرين وجالولا وهى أماكن تبعد عن بغداد شمالا بمراحل طويلة تقطع فى ثلاثة أو اربعة أيام ، كما أنها كانت تستعيض بالاحجار عند عدم وجودها بقطع من جذوع النخل • ومن الغريب أن الجيوش المغولية لم تهمل الناحية المعنوية فيها وفى أعدائها ، فكانت تقويها فى أفرادها بحثهم على العمل كما سنرى ، وكانت تضعفها فى أعدائها بنشر عوامل الانقسام فى صفوفها اما برمى النشرات عن طريق تثبيتها فى سهام ترميها داخل الأسوار أو بالاتصال برجال من أعوان الخليفة (١) •

بدأ هجوم هذه القوات المغولية على الأسوار الشرقية فى ٢٣ من شهر المحرم سنة ٦٥٦ هـ (٣٠ يناير سنة ١٢٥٨ م) فضربت هذه الأسوار ضربا شديدا فى جميع نقطها ،

---

(١) ابن العبرى ، ص ٤٧٣ ــ ٤٧٤ •

و D'Ohsson Tome III, pp. 232, 234.

و Howorth, Vol I, p. 199.

و Quatremere, pp. 283-285.

ويلاحظ أن عدد الأبراج التى كانت تقوم على هذه الأسوار كان يبلغ مائة وثلاثة وستين وكان من أهمها برج العجم . وقد ظل الضرب عدة أيام متوالية ثم أخذ أثره فى الظهور فى يوم ٢٥ المحرم (أول فبراير) حين تصدع برج العجم أمام هجمات فرقة هولاكو ، كما ظهر هذا الأثر أيضا فى يوم ٢٩ المحرم (٥ فبراير) حين استولت هذه الفرقة نفسها على الثغرة التى أحدثتها بالقوة . ثم اشتد حماس القوات المغولية المواجهة لباب السلطان على أثر لوم هولاكو لها على تكاسلها ، فهاجمت السور المواجه لها واستولت عليه وأصبح بذلك جميع السور الشرقى فى قبضة المغول . ومما تجاب ملاحظته أن المغول حين كانوا يهاجمون السور الشرقى لجأ هولاكو الى اضعاف الروح المعنوية فى أهل بغداد فى الوقت الذى قوى فيه الروح المعنوية فى جنوده ، وقد استعمل لهذا الغرض نشرات ثبتها فى سهام رمى بها داخل الأسوار وفيها يقول : « ليتأكد القضاة والعلماء والشيوخ والشيعة والتجار وكل من لا يحمل سلاحا ضدنا أننا سنصون حياتهم(١) » .

وبعد أن سيطر المغول على الأسوار الشرقية أرادوا أن يجعلوا اشرافهم على الجهة الغربية تاما ؛ حتى لا يتمكن أحد من المحاصرين أن يجد له مهربا وحتى لا يترك الباب مفتوحا أمام أهل بغداد ليستمدوا العون من خارجها ، فأمر هولاكو باقامة جسرين من القوارب المسلحة على نهر دجلة شمالى

---

(١) ابن العبرى ، ص ٤٧٤ .

و D'Ohsson. Tome III, pp. 233-234.
و Howorth, Vol. I p. 199.
و Quatremere, pp. 183-289.
و Coke, Baghdad the City of Peace, p. 147.
و Osborn, Islam Under The Caliphs of Baghdad, p. 392.

بغداد وجنوبها ، كما أمر باقامة حواجز من الأتربة علـــى شاطيء النهر ووضع العرادات عليها ، هذا الى أنه أمر بوضع قوات تشرف على الطرق الموصلة الى البصرة وعهد الى بغاتيمور ومعه عشرة آلاف بحراســة طريق المـــدائن ، وكانت هـذه الاحتياطات التى اتخذها المغول فى محلها • اذ ان الدفتردار الصغير حين رأى أن المغول يضيقون الدائرة على بغداد أراد أن يقنع الخليفة بالفرار عن طريق قناة دجيل والفرات فلما أخفق عول على الهرب وحده وسار فى دجلة نحو الجنـــوب ؛ ولكن القوات المغولية ردته بوابل من الحجارة وبمقذوفات النفط بعد أن استولت على ثلاثة من القوارب التى كانت ترافقه وبعد أن أفقدته كثيرا من أتباعه(١) • وعلى كل حال، فان حلقة الحصار أصبحت كاملة حول بغداد ولم يبق أمامها الا طريق واحد هو التسليم •

(هـ) سقوط بغداد : منذ تجمعت القوات المغولية حول بغداد وبدأت فى حصارها ، أحس الخليفة المستعصم بالخطر الكبير الذى يهددها وبدأ يفكر فى انقاذها • وقد اتبع لهذه الغاية طريقة استمالة هولاكو واسترضائه ، فأرسل فى أول الأمر وزيره ابن العلقمى وأمره بأن يقول لهولاكو باسمه : «طلب منى الأمير المغولى ارسال وزيرى وهأنذا اليوم أقتنع بما طلب مؤملا أن يحفظ الأمير كلمته » • وقد رمى بذلك الى اقناع هولاكو بارسال الوزير اليه والرجـــوع من حيث أتى • وكان مع الوزير بطريق نساطرة بغداد أرسله الخليفة عندما علم بأن لهولاكو زوجة مسيحية • ولكن هولاكو رد عليه بقوله : « عندما وعدت هذا الوعد (وهو الرجوع اذا

---

(١) D'Ohsson, Tome III, p. 235.
و Quatremere, p. 291.
و Coke, Baghdad the City of Peace, p. 146.

آرسل الخليفة وزيره) كنت لا أزال تحت أسوار همذان ، أما الآن وأنا أعسكر أمام بغداد وقد أصبح بحر المشاكل والعداوة فى أشد الهيجان كيف أكتفى باستقبال أحد كبار رجال الدولة • يجب أن يرسل الخليفة رؤساء حكومته الثلاثة الوزير والدفتردار وسليمان شاه » • وفى اليوم التالى أرسل الوزير وتسعة من حاشيته وعددا من أشهر كبار رجال بغداد؛ ولكنه لم يصل الى غرضه أيضا وردهم هولاكو دون أن يعيرهم أى اهتمام(١) • ولما ضيق المغول الخناق على بغداد وحاصروها من جميع جهاتها ولم يمكنوا الدفتردار من الهرب كما تقدم فكر الخليفة مرة أخرى فى استمالة هولاكو وأرسل فخر الدين الدامغانى وابن درنوش ثم ابنه الأوسط أبا الفضل عبدالرحمن وكثيرا من رجال حكومته يحملون الأموال الكثيرة • وفى اليوم الثالث الموافق آخر المحرم سنة ٦٥٦هـ (٦ فبراير سنة ١٢٥٨م) أرسل الخليفة ابنه الأكبر ومعه الوزير وعدد من أشهر رجال الحاشية ولكن هولاكو لم يسمع لهم وردهم جميعا وفدا بعد الآخر يجرون أذيال الخيبة والفشل وطلب من الخليفة ارسال الدفتردار الصغير وسليمان شاه ، وهكذا لم تفلح الطرائق التى اتبعها الخليفة لاستمالة هولاكو نهائيا (٢) •

---

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 233-234.
و Howorth, Vol. I, p. 199.
و Quatremere, p. 283.

(٢) D'Ohsson, Tome III, pp. 235-236.
و Howorth, Vol. I, p. 200.
و Quatremere, p. 295.

وقد خالف ابن العبرى (ص ٤٧٤) المؤرخين السابقين حين ذكر أن الدفتردار عاد من الطريق بحجة أنه يرجع ويمنع المقاتلين فى الدروب والأزقة ؛ لئلا يقتلوا أحدا من المغول •

فهم الخليفة فشله هذا وعرف فى الوقت نفسه أن هولاكو مصمم على اتباع طريق العنف فبادر الى اجابة طلباته حتى يسلم من أذاه على الأقل وأرسل اليه فى اول صفر سنة ٦٥٦هـ(٧فبراير سنة ١٥٢٨م) الدفتردار الصغير وسليمان شاه فكان ذلك اول خطوة فى سبيل التسليم • ولكن هولاكو رأى أن الفرصة سانحة وأن فى امكانه أن يصل الى درجة ابعد فأعاد الدفتردار الصغير وسليمان شاه الى المدينة وطلب منهما الرجوع اليه ومعهما أتباعهما ، ولما عادوا اليه ومعهما الأتباع الذين خرجوا من المدينة على امل السير الى سورية امر بالأتباع فوزعوا على الجند المغولى وقتلوا أفظع قتلة ثم قتل الدفتردار الصغير وابنه كما قتل سليمان شاه بعد أن أنبه على مسلكه ، وكان مما قاله له : «وأنت يا من تعرف سيرالنجوم (فقد كان فلكيا) وما يقع من خير وشر لم لم تعرف يوم مصرعك وتنصح سيدك وتدعوه الى المسالمة » ثم أرسل رؤوس الثلاثة الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وصديق سليمان شاه ليعلقها فى مجلسه(١) • وهكذا ، لم يحل تساهل الخليفة دون وقوع الكوارث المتوالية برجاله ورعيته •

ويجب أن نلاحظ أن قتل سليمان شاه والدفتردار وأتباعهما كان له أثر كبير فى سيرالأمور فيما بعد، ولم يقتصر هذا الأثر على تصرفات أهل بغداد ازاء المغول بل تعدى ذلك الى تصرفات الخليفة نفسه • أما أهل بغداد فقد دب الرعب فى قلوبهم على أثر هذا الحادث وطارت نفوسهم شعاعا ، فأخذ فريق منهم يختبىء فى المغارات وفى أفران الحمامات كما خرج بعض كبرائهم من المدينة ليعرضوا تسليمها على هولاكو وليعدوا بأن الخليفة أراد بارسال أولاده أولا أن يحضر

(١) Howorth, vol. I, p. 200, D'Ohsson, Tome III, pp. 236-238. Quatremere, p. 295.

بشخصه بعد ذلك . وقد ذكر ابن العبرى (١) أن الذين خرجوا من بغداد فى هذه المهمة هم شرف الدين المراغى وشهاب الدين الزنكانى وأن أهل بغداد هم الذين ارسلوهم. ولم يسمع لهم هولاكو ولم يجب طلبتهم ، خصوصا عندما أصابت سهم طائشة خارجة من داخل المدينة عين سكرتيره هندو ، بل أمر نصير الدين الطوسى أن ينصب خيامه أمام باب الحلبة ليستقبل من يسلم منهم ثم لم يلبث حين تجمع منهم عدد كبير ان أمر بقتلهم (٢) .

أما الخليفة المستعصم ، فقد تسرب الخوف الى نفسه على أثر قتل الدفتردار وسليمان شاه وأتباعهما ولم يلبث حين رأى هولاكو يقتل من خرج اليه من أهل المدينة ، أن تحقق مصير بغداد وأهلها، ورأى أن كل شيء لابد ضائع ، خصوصا وأنه أراد أن يستعين بالوزير فلم يجد منه معينا بل وجد منه مثبطا لهمته ومدخلا لليأس فى نفسه . وكيف لا يكون كذلك وهو الذى قال له عندما سأله عما يصنعه فى هذا الموقف الحرج :

يظنون أن الأمر سهل وانما
هو السيف حدت للقاء مضاربه

ولذلك لم يجد الخليفة بدا من تسليم نفسه الى عدوه وخرج من بغداد يوم الأحد ٤ من صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٠ فبراير سنة ١٢٥٨م) ومعه أولاده الثلاثة أبو الفضل عبد الرحمن وأبو العباس أحمد وأبو المناقب مبارك وثلاثة

---

(١) ابن العبرى ، ص ٤٧٤ .

(٢) D'Ohsson, Tome III, p. 237., Quatremere, p. 397., و Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, p. 393.

آلاف شخص من السادة والأئمة والقضاة وكبار رجال الدولة وأعيان المدينة وسلم نفسه الى هولاكو (١) ٠

أدى تسليم الخليفة المستعصم الى سقوط بغداد فى أيدى المغول ، وذلك لأن هولاكو منذ رآه أراد أن يتخذه آلة لتحقيق هذا الغرض فقابله بالترحاب وطلب منه أن يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم بقصد عمل تعداد لهم ، فأجابه الخليفة الى ذلك وارسل رسولا من لدنه نادى فى طرقات بغداد على الناس أن يرموا سلاحهم ويخرجوا من الأسوار ، ولما فعلوا ذلك أمر هولاكو المغول فانقضوا عليهم وقتلوهم (٢) ٠

ولم يكتف هولاكو بذلك بل أمر بردم الخنادق وازالة أسوار المدينة كما امر بنصب جسر على دجلة ، ولما تم له ذلك أمر القوات المغولية فى شرق بغداد بدخول المدينة من الشرق، كما امر القوات المغولية الموجودة على الشاطىء الغربى بعبور الجسر ودخول المدينة من الغرب ، فدخلوها فى يوم ٧ من صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٢ فبراير سنة ١٢٥٨م) ووزعوا أنفسهم على محلاتها وظلوا فيها أسبوعا تاركين لأنفسهم العنان ؛ فخربوا المساجد ليحصلوا على قبابها المذهبة وهدموا القصور بعد أن جردوها مما بها من التحف الفارسية والصينية النادرة وخربوا المكاتب وأتلفوا الكتب التى بها اما باحراقها أو برميها فى دجلة كما قتلوا معظم أهل المدينة

(١) ابن العبرى ، ص ٤٦٥ ٠
و D'Ohsson, Tome III, p. 238.
و Howorth, Vol. I p. 200.
و Quatremere, p. 299.
(٢) D'Ohsson, Tome III, p. 238.
و Howorth, Vol. I p. 200.
و Quatremere, p. 299.

دون أن يستثنوا امرأة أو طفلا ودون أن يعطفوا على مريض أو يقدروا عالما (١) . وكان استهتار المغول بالنفوس بالغا أشده فقتل اثنان منهم ناءا حملا بما جمعا من الأسلاب رجلا قابلهما فى الطريق وشقا جوفه لا لشىء الا ليتخذاه أداة لحمل ما معهما كما دخل أحدهم زقاقا وقتل أربعين طفلا شفقة منه ورحمة حين علم أن أمهاتهم قتلن من قبل (٢) . ولذلك فان المؤرخين يبالغون فى تعداد الأنفس التى أزهقوها حين دخلوا بغداد ، فمنهم من قدرها بمليون وثمانمائة ألف نفس (٣) ومنهم من قدرها بمليون نفس (٤) وفريق ثالث قدرها بثمانمائة ألف نفس (٥) بل وهناك من قدرها بألفى ألف نفس (٦) . ومما لا شك فيه أن المدينة فقدت معظم سكانها فى هذه الكارثة ، كما أن الثروة الأدبية والفنية التى سهر على جمعها خلفاء بنى العباس منذ اتخذوها عاصمة لهم ضاعت وأصبحت أثرا بعد عين (٧)

هذا ولم ينفرد جنود المغول دون رئيسهم بارتكاب ما ارتكبوه من الفظائع ، بل ان هولاكو شاركهم وزاد عليهم

---

(١) ابو الفدا ــ المختصر فى اخبار البشر ج ٣ ، ص ٢٠٢ .
و D'Ohsson, Tome III, pp. 239, 241.
و Howorth, Vol. I, p. 200.
و Quatremere, p. 301.
و Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, p. 401.

(٢) Richard Cike, Baghdad the City of Peace, p 146

(٣) الدهبى ــ دول الاسلام ج ٢ ، ص ١٢٣ والديار بكرى ــ الخميس ج ٢ ص ٤٢٠ .

(٤) فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٣٧ والسيوطى ــ تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٩ .

(٥) D'Ohsson, Tome III, p 241, و Howorth, Vol. I, p. 200. ,
و Coke, Baghdad, p. 148, و Browne, Lit, Hist. Vol. II, p. 463.

(٦) المقريزى ــ السلوك لمعرفه دول الملوك ، ج ١ ، ص ٤١٠ .

(٧) Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 463.

فدخل بغداد الشرقيــة حين دخلوها وأقام معســكره في محلة المأمونية حتى اذا كان يوم ٩ صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٥ فبراير سنة ١٢٥٨م) ذهب هو وأمراؤه الى قصر الخليفة المستعصم الذى كان يرافقهم ونهبـوه وأذلوا صـاحبه وقتلو الانفس البريئة التى تقيم فيه ، وكان سلوك هولاكو فى ذلك اليـوم سلوكا سيئا تتجلى فيه قلة الذوق والوحشية اذ بدا عمله بأن طلب من الخليفــة أن يقــدم له ولأمرائه ما يليق بهم وهم ضيوف فى قصره ولما اتى له بألفى كساء وعشرة آلاف قطعة ذهبية وبعض الاحجار الكريمة وحليا من أصناف مختلفة ، أخذها منه بازدراء وقدمها الى أتباعه وقال له : « ان الكنوز التى تملكها والتى توجد فوق سطح الأرض من السهل معرفتها وهى تحت تصرفى وتصرف أتباعى ، انما ما نريده هو أن تظهر لنا ثروتك المدفونة وتبين لنا موضـعها » ولمـا أخبره الخليفة أن فى وسط القصر جرة مملوءة بالذهب امر بالحفر فى الموضع الذى عينه . وقد وجدوا بها عددا كبيرا من القطع الذهبية التى تزن الواحدة منها مائة مثقال . هــذا الى أنه جرد القصر من سبعمائة جارية كانت به وألف خصى ولـم يدع للخليفة الا مائة جارية فقط من هذه الجوارى .

أما فى اليوم التالى ، فقد أرسل سنجاك أحد القواد المغول الذين كانوا فى صحبة بيجو نويان عندما هاجم بغــداد من الغــرب الى القصر فجمع ما به من ثروة اقتنــاها الخلفاء العباسيون فى مدة خـلافتهم الطـويلة وعاد بهـا الى حيث وضعت حول خيمة هولاكو فصارت كجبل قائم (١) .

---

(١) ابن العبرى . ص ٤٧٥ .

و D’Ohsson, Tome III, pp. 239-240.

و Quatremere, pp. 301-303.,

ولم تقف أعمال هولاكو القاسية عند هذا الحد ، بل انه بعد ذلك بعدة أيام (١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ) = (٢٠ فبراير سنة ١٢٥٨م) وفي الوقت الذى أمر فيه جند المغول بالكف عن أعمال النهب والقتل في بغداد على أثر مقابلته لوفد ممن بقى في قيد الحياة من اهلها ، على رأسه شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنجاني ، ارتكب اكبر جرائمه بقتله الخليفة المستعصم وولده الاكبر أبا بكر وخمسة من خصيانه المخلصين الذين لم يتركوه عندما نزلت به المصائب وكان ذلك في قرية وقف ، في مساء ١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ (٢٠ فبراير سنة ١٢٥٨م) (١) .

وقد كتب عن مسألة قتل الخليفة المستعصم كثير من مؤرخي العرب والفرس والفرنجة ، ويظهر الخلاف بينهم حين يتناولون تحديد تاريخ هذا القتل أو طريقته . فالمؤرخون من العرب يذكرون ان القتل حدث في المحرم سنة ٦٥٦ هـ دون أن يحددوا اليوم الذى قتل فيه (٢) بينما الفرس يذكرون انه حدث مساء يوم ١٤ من صفر سنة ٦٥٦ هـ (٢٠ فبراير سنة ١٢٥٨م) وعنهم يأخذ الفرنجة (٣) . ويظهر الخلاف بين هؤلاء المؤرخين كذلك في الطريقة التى قتل بها الخليفة ، فيقول بعض مؤرخي العرب انه قتل رفسا ويقول البعض انه وضع في عدل ورفس حتى مات ، كما يذكر البعض الآخر أنه خنق ، ويقول غير هؤلاء ان جسمه

(١) D'Ohsson, Tome, III, pp. 241-242.
و Quatremere, p. 305.
و Howorth, Vol. I, p. 200

(٢) فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٣٧ . والخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٣) D'Ohsson, Tome III, p. 242. Howorth, Vol. I, p. 201.
و Quatremere, p. 305.

مزق اربا ، كما يذكر غيرهم أنه لف في بساط والقى فى دجلة (١) • أما مؤرخو الفرس والأرمن ومن أخذ عنهم من مؤرخى الفرنجة ، فقد ذكروا عن الطريقة التى قتل بها الخليفة أن هولاكو وضع أمامه شيئا من الذهب والفضة والأحجار الكريمة وطلب منه أن يأكلها اذا أراد بعد أن وضعه فى حجرة مغلقة (٢) • وعلى كل حال ، فان هذه المسألة غامضة ولعل غموضها يرجع الى أن هولاكو أخفى عن الناس قتل الخليفة ردحا من الزمن فلم يقفوا على الطريقة التى لقى بها حتفه ، أو الى أن هذا الحادث كان شديد الوقع على المؤرخين من العرب فأدهشهم وحال بينهم وبين تدوينه ، وقد جاء هذا الرأى فى كتاب فوات الوفيات حيث ذكر ما نصه « توفى الخليفة فى اواخر المحرم سنة ٦٥٦ هـ وما أظنه دفن وكان الأمر أعظم من ان يوجد من يؤرخ موته أو يوارى جسده » (٣) •

هذا وقد اعتمدت عند الكلام على حوادث الحصار المغولى على التواريخ التى ذكرها مؤرخو الفرس ومن أخذ عنهم من الفرنجة ، وان كانت لا تتفق مع التواريخ التى ذكرها مؤرخو العرب، وذلك لأنها تتفق وحوادث الفتح ولأن مؤرخى العرب لم يحددوا التاريخ الذى وقعت فيه هذه المأساة للسبب الذى أدلى لنا به ابن شاكر •

أما فيما يختص بطريقة قتل الخليفة ، فلا أرى داعيا الى الأخذ برأى دون رأى ، وحسبى أننى تعرضت لذكر هذه الآراء على اختلافها •

---

(١) أبو الفدا ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ وفوات الوفيات ج ١ ص ٢٣٧ و الخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ وتاريخ الخلفاء ، ص ١٨٩ •

(٢) D'Ohsson, Tome III, pp. 244-246. Coke, Baghdad, pp. 151-152. و Browne, Literary History of Persia, vol. II, p. 463.

(٣) فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٣٧ •

ولم يكن قتل هولاكو للخليفة المستعصم راجعا الى كراهة شخصية ، بل كان للتخلص منه باعتباره عدوا سياسيا كان فى بقائه فى قيد الحياة خطر كبير ، يهدد نفوذ هولاكو وسلطانه فى بلاد العراق . لذلك نجده يأمر فى اليوم التالى بتعقب أفراد الأسرة العباسية وقتلهم جميعا ، ويقال انه ظفر ببغيته هذه ولم ينج من افراد هذه الأسرة المنكوبة الا أصغر ابناء الخليفة واسمه مبارك شاه ، وكان ذلك بناء على طلب زوجة هولاكو وقد أرسل الى الشرق حيث تزوج من مغولية ، وممن نجا أيضا ابنة الخليفة التى أرسلت الى الخاقان مانجو والتى يقال انها عندما وصلت الى سمرقند استأذنت المرافقين لها فى ان تزور قبر قثم بن العباس (١) ولما أجابوها الى طلبها وقفت على القبر وقالت : « ربى ، اذا كان لقثم بن العباس عندك قدر فاقبض عبدتك اليك ونجها من أيدى هؤلاء الناس » واستجاب لها ربها وسقطت على القبر ميتة (٢) .

وكانت واقعة بغداد وقتل الخليفة من أعظم الوقائع ، قال الشيخ شمس الدين الكوفى يذكر خراب بغداد وينوه بقتل الخليفة وأسرته :

عندى لاجل فراقكم آلام
فالام أعذل فيكم والأم

من كان مثلى للحبيب مفارقا
لا تعذلوه فالكلام كلام

(١) هو قثم بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم اخو عبد الله بن العباس . خرج مع سعيد بن عثمان بن عفان الى سمرقند فاستشهد هناك (الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢. ج ٥ ، ص ٢٣١) .

(٢) D'Ohsson, Tome III, pp. 244-246. Coke, Baghdad, p. 151.

قف فى ديار الظاعنين ونادها
يا دار ما صنعت بك الأيام

يا دار أين الساكنون وأين
ذياك البهاء وذلك الاعظام

يا دار أين زمان ربعك مونقا
وشعارك الاجلال والاكرام

يا دار مذ أفلت نجومك عمنا
والله من بعد الضياء ظلام

فلبعدهم قرب الردى ولفقدهم
فقد الهدى وتزلزل الاسلام

فمتى قبلت من الأعادى ساكنا
بعد الأحبة لا سقاك غمام

كما ذكر أيضا يرثى أهلها (١) :

ان لم تقرح أدمعى أجفانى
من بعد بعدكمو فما أجفانى

انسان عينى مذ تناءت داركم
ما راقه نظر الى انسان

ما للمنازل أصبحت لا أهلها
أهلى ولا جيرانها جيرانى

---

(١) فوات الوفيات ج ١ ، ص ٢٢٧ — ٢٢٩ .

وحيـاتكم ما حلهـا من بعـدكم
غـير البلى والهـدم والنـيران
مـالى آردد ناظـرى ولا أرى
الأحبـاب بين جمـاعة الاخـوان

وبعد أن استولى الجيش المغولى على بغداد ونهبها وقتـل سكانها وبعد أن قتل هولاكو الخليفة وأعوانه وأفراد أسرته، اصبح الأمر فى هذه المدينة لهولاكو . ولذلك نجده فى نفس اليوم الذى تخلص فيه من الخليفة يعين الحـكام فيها وفيما جاورها من البلاد، فيجعل على بهادور حاكما عليها ويحتفظ لابن العلقمى بالوزارة ويجعل فخر الدين الدامغانى صاحب الديوان ويسلم أحمد بن عمران ادارة المناطق الواقعة شرق بغداد ، ويعين نظام الدين عبد المؤمن قاضيا للقضاة (١) . هذا وقد كان فى عدم ذكر الخليفة فى الخطبة فى يوم الجمعة التالى لوقوع بغداد فى أيدى المغول (٢) اعتراف ضـمنى بالأمر الواقع زاده تأكيدا تلك الفتوى التى أصدرها علماء الشريعة الاسلامية فى الاجتماع الذى عقدوه فى المدرسـة المستنصرية ، حيث طرح عليهم هولاكو هذا السؤال : «أيهما افضل : السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر؟»، وأفتوا بأن الـكافر العادل يجب أن يفضـل عـلى المسـلم الجائر (٣) .

وأحب أن أنوه فى هذا المقام بأن علماء المسلمين حين وأفتـوا يأن الـكافر العـادل يجب أن يفضـل عـلى المسلم

---

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 246-248.
و Howorth, Vol. I, p. 201.
و Quatremere, p. 309.
(٢) D'Ohsson, Tome III, pp. 250-254.
(٣) Ibid, pp. 254-255.

لمصلحة القوى تحت ضغط الخوف ولم يكن موقفهم هذا فريدا في بابه ، بل ان التاريخ يوضح لنا أن الناس دائما يميلون مع القوة على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ومراكزهم ، والا فكيف نفسر موقف البابا زخارياس zacharias حين أرسل اليه بيبين Pippin ابن شارل مارتل Charle Martel حاجب قصر الفرنجة وصاحب الأمر والنهى فى المملكة يستفتيه فيمن يجب أن يكون ملكا : أهو صاحب اللقب الذى لا قوة عنده أم صاحب القوة الذى لا يحوز لقبا ؟ ورد عليه بأن صاحب القوة يجب أن يحوز اللقب أيضا ويصبح ملكا . وبذلك شجعه على خلع آخر ملك من الفرع الميروفنجى Merovingians الذى أسسه كلودويج Cloduig ملك الفرنجة المتوفى سنة ٥١١م والقضاء على حق موروث بالقوة القاهرة سنة ٧٥١م (١) .

ولو أن هولاكو لم يكن مطمئنا الى أن بغداد قد اصبحت فى قبضة المغول نهائيا ، لما رفع معسكره من جوار قرية وقف فى يوم الجمعة ٣٠ من صفر سنة ٦٥٦هـ (٨ مارس سنة ١٢٥٨م) ليصل بعد نحو خمسة أسابيع (١١ ربيع الآخر = ١٧أبريل) قرب همذان، غير تارك فى بغداد سوى ثلاثة آلاف فارس مغولى على رأسهم الكانويان وقره بقا Cara Boca (٢) .

(و) اتمام فتح العراق : بعد فتح بغداد لم تبق أمام المغول أية مقاومة فى العراق ، وقد ذكر لنا المؤرخون أن أهل حلة من الشيعة أرسلوا الى هولاكو وهو يحاصر بغداد

---

(١) Thatchor & Schwill, A General History of Europe, Vol. I, p. 42.
(٢) D'Ohsson, Tome III, pp. 248, 256.
و Quatremere p. 309.

يقدمون خضوعهم ويلتمسون ارسال حاكم عليهم من قبله ويذكرون له أن الآحاديث التى تناقلوها عن الامام على والأئمة الاثنى عشرية تؤكد نجاحه فى القضاء على الخليفة العباسى • ويذكر المؤرخون أيضا أن هولاكو اجابهم الى ما طلبوا وأرسل اليهم بغاتيمور زوج أخته على رأس قوة مغولية حتى يتأكد من اخلاصهم ، وأنهم قابلوه بالترحاب وأقاموا على الفرات جسرا عبر عليه هو ومن معه الى بلدهم • وقد اقتنص بغاتيمور هذه الفرصة ليخضع جنوب العراق لسلطان المغول فسار الى واسط وحاصرها بقواته فى ١٧ صفر سنة ٦٥٦ هـ (٢٣ فبراير سنة ١٢٥٨م) • ولما قاومته فتحها بالقوة وقتل الكثيرين من أهلها ، وقد ذكروا أن عدد القتلى بلغ أربعين ألفا • وبعد ذلك استولى على تستر والبصرة وغيرها من البلاد • ثم رجع الى بغداد فى ١٢ ربيع الأول من نفس السنة ، بعد أن أتم فتح العراق العربى وانضم الى القواد الذين تركهم هولاكو فى بغداد (١) •

---

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 254-256.
و Howorth, Vol. I, p. 202.
و Quatremere, p. 311.

الفصل الثالث

موقف أهل بغداد من الفتح

رأينا فيما تقدم أن أهل بغداد كانوا طوائف مختلفة . منهم اهل السنة الشيعة والنصارى واليهود ، كما رأينا أن لكل طائفة ميولا خاصة بها ومركزا يختلف عما لسواها · وسنرى فيما يلى أن موقف كل طائفة من هذه الطوائف ازاء غارة المغول اختلف تبعا لميولها ومصالحها · أما أهل السنة الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من الأهلين فقد دافعوا دفاع المستميت خوفا على نفوذهم ، وأما من كان يجد فى الحالة الراهنة عبئا عليه فقد اقتنص هذه الفرصة ليحرر نفسه من القيود ويتخلص من هذا العبء · والآن سنتناول الكلام بشىء من الايجاز عن موقف كل من هذه الطبقات ·

١ ــ موقف أهل السنة

كانت هذه الطائفة هى صاحبة الأمر فى بغداد لأن مذهبها هو مذهب الخليفة العباسى صاحب الأمر والسلطان وكانت تعتبر سقوط بغداد سقوطا لها وضياعا لنفوذها ؛ لذلك كانت هى التى وقفت أمام المغيرين وهى التى لاقت من ظلمهم الشىء الكثير · وقد كان رأس هذه الطائفة الخليفة المستعصم وأتباعه الدفتردار الصغير وسليمان شاه · واذا

أردنا أن ندرس موقف هذه الطائفة وجب أن نتكلم عن موقف كل من هذه الشخصيات الثلاث لأن الجميع كانوا يسيرون وراءهم ويأتمرون بأمرهم ·

(أ) **الخليفة المستعصم :** اما الخليفة المستعصم فكان تقيا طيب القلب الا ان آفته كانت فى ضعف ارادته وانقياده لأتباعه وتردده ، وهو من هذه الوجهة كلويس السادس عشر والتبعة التى تقع عليه فى سقوط بغداد كالتبعة التى تقع على لويس السادس عشر فى قيام الثورة الفرنسية · فكما أن آباء لويس السادس عشر أورثوه فيما أورثوه له عوامل الثورة الفرنسية ، كذلك أورث الخلفاء السابقون عوامل ضعف الدولة العباسية وانهيارها للمستعصم · وكما أن لويس السادس عشر ارتكب بضعف ارادته وتردده وانقياده للملكة مارى أنطوانيت والأشراف أغلاطا جرت عليه الثورة من الشعب وفقدان ملكه وحياته ، كذلك المستعصم بانقياده للدفتردار الصغير وسليمان شاه وضعف ارادته جر على نفسه وعلى الاسلام الدمار · ولو أنه نفذ نواياه وجرى على خطة اختطها لكان من الجائز أن تتخذ الحوادث مجرى غير الذى سلكته · فقد كان من أول الأمر ــ وعندما وصل اليه خطاب هولاكو يعتب عليه فيه عدم مساعدته له ضد الاسماعيلية ويدعوه الى التسليم ــ يتفق مع وزيره ابن العلقمى فى ضرورة مسالمة المغول واستمالتهم بالمال ، ولكنه لم يلبث غير قليل حتى عدل عن رأيه هذا بسبب تردده وانقياده واتبع رأى الدفتردار الصغير وسليمان شاه الذى يقضى بمقاومة المغول، ولذلك نجده يرسل خطابه الثانى المملوء بعبارات التهديد الى هولاكو ، ثم يتابع سياسة العداء ويقدم بذلك الى هولاكو تكأة يعتمد عليها فى تبرير خطته التى ترمى الى القضاء على

الدولة العباسية آمام الخان الأعظم مانجو الذى أوصاه بعدم مهاجمة الخلافة العباسية الا اذا وقف الخليفة منه موقف العداء والحرب كما تقدم •

ولو أن الخليفة المستعصم كان قوى الارادة حازما لما ضره آن يأخذ برأى الدفتردار وسليمان شاه الذى كان يقضى بضرورة المقاومة ، لكنه وقد عرف بالطيبة والضعف والبخل قد آخطأ خطأ عظيما حين اتبع مشورتهما • وينجلى ذلك من مجرى الحوادث ، فقد أمر الوزير وهو لا يزال متحمسا لفكرة الدفتردار وسليمان شاه بجمع الجند استعدادا لملاقاة المغول، ولكنه بعد ذلك حين عاد الى حالته الطبيعية وأخبره الوزير بأنه قد جمع الجند وأنهم ينتظرون توزيع الاموال عليهم عاد فأهمل آمر التعبئة ولم يتكون الجيش اللازم لصد الأعداد (١) • اضف الى ذلك انه بميله الى البخل وضيق نظره كان يضيع الفرص اذا واتته ، وليس أدل على صحة ما نقول من أنه لم يحرك ساكنا حين أخذ هولاكو يمهد الأمر لغزو بغداد واستمال حسام الدين حاكم مدينة ديرتنك وما جاورها • وعلى الرغم من عمل حسام الدين هذا للتقرب من الخليفة وتكليفه ابن صلايا صاحب أربل بالتوسط بينهما ، فانه لم يطلب للأمر وأضاع هذه الفرصة الذهبية ــ فرصة كسب صاحب ديرتنك الذى كان فى مقدوره أن يقف فى وجه المغول ويحول دون مواصلتهم السير الى بلاده ولو الى حين (٢) •

---

(١) D'Ohsson, Tome III, p. 221.
و Quatremere, p. 249.
(٢) D'Ohsson, Tome III, pp. 222-224.
و Quatremere, pp. 255-257.

كذلك كان من أثر تردد الخليفة وضعف ارادته ضياع حياته ، لأنه حين استولى المغول على الأسوار الشرقيــة وأمر هولاكو باقامة جسرين على دجلة شمالى بغداد وجنوبها وبذلك ضيق على بغداد الخناق ، عرض الدفتردار عليه فكرة الفرار عن طريق قناة دجيل والفرات ولكنه لم يبت فى الأمر ، مما جعل الدفتردار يفكر فى الفرار وحده على ما ذكرنا سابقا . هذا الى أن تباطؤ الخليفة وبقاءه فى بغداد فى الوقت الذى كان فيه المغول يشددون فى حصـــارها كان معنـــاه ضرورة تسليمه لهم فى يوم من الأيام مادام لا يبدى نشـــاطا يستحق الذكر .

(ب) الدفتردار الصغير : كان الدفتردار الصغير رجلا انانيا يعمل لمصلحته ، وقد اتبع طرائق شاذة حتى نال الحظوة عنـــد الخليفة وأصبح أمره نافذا فى شئون الدولة ، فجمع الأوباش والعيارين حوله وأخذ يدبر المؤامرات لخلع الخليفة ويأتى بالأعمال المنكرة . ولكن موقفه ازاء الفتح لا غبـــار عليه . فقـــد سار من أول الأمر عـــلى رأس جيش الخليفـــة لانتظار هولاكو عـــلى حدود العراق الشرقية وصـــده عنـــد اللزوم ، وعسكر بين بعقوبا وباجسرا ، ولكنه رجـــع بهـــذه القوات قبل ملاقاة هولاكو عندما علم بأن بيجو نويان وزملاءه قد عبروا دجلة عند تكريت ويمموا شـــطر بغداد الغربية . ولاقى جماعة من المغول وعلى رأسها ســـنجاك وهزمهم عنـــد الأنبار ثم تبعهم حتى منطقة دجيل حيث دارت بينه وبين قوات بيجو نويان وزملائه معركة انتصر فيها أولا ولكنه اضطر الى الفرار والرجوع الى بغداد ، حين علم بأن المغول قد لجأوا الى الحيلة وأغرقوا معسكره ليلا (١) .

(١) D'Ohsson, Tome III, pp. 230-232.
Quatremere, p. 281.

وقد ظل الدفتردار الصغير ببغداد الشرقية حتى ضيق هولاكو عليها الخناق ففكر في الفرار ، وبعد أن فشل في اقناع الخليفة بالفرار معه دبر أمر الفرار وحده وسار عن طريق دجلة جنوبا ولكن المغول كانوا قد اتخذوا الحيطة فأحبطـوا عمله (١) • ولو آنه نجح في الفرار ، لكان من المحتمـل أن يجمع جيشا لمناوآة المغول في غير بغداد ، ولكن فشله قد جعل خضوع العراق آمرا محتوما بعد سقوط بغداد •

وقد تبع ذلك خروج الدفتردار مع سليمان شاه في أول يوم من صفر سنة ٦٥٦ هـ وذهابه الى هولاكو تنفيذا لأوامر الخليفة ثم قتله هو وابنه في اليوم الثاني على ما ذكرنا •

(ج) سليمان شاه : لا يختلف الدور الذى قام به سليمان شاه عن الدور الذى قام به الدفتردار الصغير ، فقـد كان سليمان شاه رجلا عسكريا أقنع الخليفـة بضرورة مقـاومة هولاكو ، وكان مما قاله له انه مستعد للدفاع عن البلاد ضد المغول ، وان « أعز شيء للرجل الشجاع أن يمـوت وسـط القتال » ، ولذلك عينه الخليفة قائدا للجيش ووكل اليه أمر الدفاع (٢) • وقد اشترك مع الدفتردار الصغير في الوقائع التي تقدمت الاشارة اليها كما قتل على يد هولاكو في يوم ٢ من صفر سنة ٦٥٦ هـ وقتل معه سبعمائة من أتباعه •

٢ ـ موقف الشيعة

أما الشيعة فكان موقفهم ازاء الفتح من أسوأ المواقف ، لم يراعوا معاملة العباسيين لهم بالحسنى طوال مدة خلافتهم

(١) Ibid, pp. 291-293.
و D'Ohsson, Tome III, p. 235.
(٢) D'Ohsson, Tome III, p. 220.
و Quatremere, p. 244.

ولم يراعوا أن العراق وطنهم يجب الدفاع عنه أمام غارة المغيرين • وقد حاول بعض المؤرخين من الشيعة أن يدافع عن موقفهم الشاذ ويجد لهم عذرا فذكر أنهم ثأروا لأنفسهم مما حل بهم من البلاء فى الفتنة التى وقعت ببغداد سنة ٦٥٥ هـ على أيدى أهل السنة ورجال الشرطة الذين هاجموا محلات الشيعة وارتكبوا كثيرا من الجرائم • ولكننى لا أجد فى هذا ما يبرر عملهم • وأرى فى الوقت نفسه أن أهل السنة وان كانوا قد بطشوا بهم بعض البطش فليس ذلك ببالغ معشار ما ارتكبه الشيعة فى أيام الدولة البويهية الشيعية ، فقد قال هلال الصابىء : « كانت طائفتهم (يقصد طائفة الشيعة) قد أسرفت بالتبسط والتسلط وركوب المنكرات واتيان المحظورات » (١) •

بدات نوايا الشيعة فى الظهور عندما راوا قوات المغول تطوق بغداد • فقد بذلوا كل ما فى استطاعتهم لمساعدتهم فى هجومهم كما ان المقيمين منهم فى حلة ارسلوا الى هولاكو وهو يحاصر بغداد وفدا يحمل رسالة يذكرون فيها انه لابد منتصر على الخليفة ، طبقا لحديث أثر عن الامام على والائمة الاثنى عشرية ويطلبون منه أن يعين حاكما عليهم ، وقد أجابهم الى ما طلبوا وأرسل اليهم بغاتيمور أخا أولجاى خاتون زوجته ليتبين حقيقة ميولهم ، فقابلوه بالترحاب وأقاموا له جسرا على نهر الفرات ، كما كافأهم على مسلكهم هذا فوضع بناء على طلبهم مقابر على والحسين تحت حراسة مائة جندى مغولى ، فى الوقت الذى قام فيه المغول بأعمال التدمير والنهب فى بغداد (٢) •

---

(١) هلال الصابىء ــ ذيل الذيل لتجارب الامم ، ص ٢٣٩ •

(٢) Quatremere, p. 311. و Coke, Baghdad, p. 149.
Howorth, vol. I, p. 202. و D'Ohsson, Tome III, p. 255.

وقد جاء فى كتاب الخميس ما يأتى : « وأما الوزير ابن العلقمى فلم يتم له ما أراد من أن التتار يبذلون السيف فى أهل السنة فجاء بخلاف ما أراد وبذلوا السيف فى أهل السنة والرافضة كلهم (١) » كما ذكر ابن شاكر الكتبى (٢) فى معرض كلامه على الوزير مؤيد الدين بن العلقمى أيضا « حكى أنه كان جالسا بالديوان فدخل عليه بعض التتار ممن ليس له وجاهة راكبا فرسه فسار الى أن وقف بفرسه على بساط الوزير وخاطبه بما أراد وبال الفرس على البساط وأصاب الرشاش ثياب الوزير وهو صابر لهذا الهوان يظهر قوة النفس وأنه بلغ مراده ، وقال له بعض أهل بغداد يا مولانا انت فعلت هذا جميعه حمية وحميت الشيعة وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلقا (كذا فى الأصل وصحتها خلق) لا يحصى وارتكبت الفواحش مع نسائهن ، فقال بعد ان قتل الدوادار (الدفتردار) ومن كان على رأيه لا مبالاة بذلك» .
ومعنى ذلك أن الشيعة قد حل بهم فى أثناء الاضطرابات ما حل بأهل السنة ، وهذا بعيد لا أصدقه خصوصا اذا علمنا أن ميدان فظائع المغول كان بغداد الشرقية التى لم يسكنها الشيعة ، كما نعلم أنه حين دخل المغول بغداد الغربية وتحول أهل السنة الى بغداد الشرقية ظل هؤلاء الشيعيون فى أماكنهم ولم يبرحوها . وليس من المعقول أن تكون العلاقة بين هولاكو والشيعة على ما ذكرنا فى أثناء الحصار ثم لا يحميهم من جنده وهو الذى أرسل مائة من جنوده لحماية قبر من يتشيعون له ، كما أنه هو الذى عين فخر الدين الدامغانى صاحب الديوان ببغداد ونظام الدين عبد المؤمن قاضيا لقضاتها وهما من الشيعة . وعلى كل حال، فانه اذا كان قد

---

(١) الخميس . ج ٢ ، ص ٤٢٠ .
(٢) فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

حل بالشيعة عنت ما ، فانه لابد أن يكون قليلا بالنسبة لما حل بأهل السنة ٠

(أ) موقف الوزير ابن العلقمى : ومما يوضح هذا الموقف الذى وقفته الشيعة ما فعله مؤيد الدين بن العلقمى وهو كما نعلم من أكبر الشخصيات البارزة فيهم ٠ فانه على الرغم من أنه كان وزير الخليفة المستعصم لم يسلم من وصمة الخيانة ولم ينزهه كثير من المؤرخين عما فعله غيره من الشيعة ٠ وسنحاول فيما يلى أن نفصل الكلام عن آراء المؤرخين فى موقف ابن العلقمى من الفتح المغولى لبغداد ثم ندلى برأينا بعد ذلك ٠

١ ـ المؤرخون الذين يتهمون ابن العلقمى بالخيانة وأقوالهم : تنقسم المراجع الأصلية التى تكلمت عن الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى الى قسمين أحدهما يحمل أصحابه وهم من الفرس والعرب على السواء على الوزير حملة شديدة ويتهمونه بالخيانة ولا يكادون يتركون شيئا فى سبيل الصاق هذه التهمة به ٠ وهؤلاء يدينون بعقائد المذهب السنى الذى يختلف عن المذهب الشيعى الذى يدين بعقائده الوزير ، وهم فى الوقت نفسه كثيرون ، وليس من عجب فى ذلك اذا علمنا أن العصر الذى تلا سقوط بغداد كان لا فيه كتاب الا وعنيه هذه العبارة : « لعن الله من لم يلعن ابن العلقمى » ٠ ومن بين هؤلاء المؤرخين ابن شاكر فى كتابه فوات الوفيات وأبو الفدا فى كتابه المختصر فى أخبار البشر والديار بكرى فى كتابه الخميس فى أحوال أنفس نفيس وابن خلدون فى كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر المشهور باسم تاريخ

ابن خلدون والسيوطى فى كتابه الخلفاء والمقريزى فى كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك والحافظ شمس الدين الذهبى فى كتابه دول الاسلام ، وهؤلاء كلهم من مؤرخى العرب(١) · ومنهاجى سراج صاحب كتاب طبقاتى ناصرى وميرخند ووصاف الحضرة الذين كتبوا فى حكم أحد المغول وهم من الفرس ·

ويتلخص رأى أصحاب هذا الفريق من المؤرخين فى رمى ابن العلقمى بالتهم الآتية :

أولا : أنه حث المغول على الاستيلاء على بغداد · وفى ذلك يقول المقريزى (٢): « انه استجر التتار حتى كان ما كان » ، ويقول أبو الفدا (٣): « انه أرسل الى التتر أخاه يستدعيهم » ، بينما يذكر ابن خلدون (٤) أن الوزير أوصى ابن الصلايا صاحب أربل وهذا أرسل كتابا الى هولاكو وهو فى طريقه الى قلعة ألموت يستحثه للمسير الى بغداد ويسهل عليه أمرها · أما ابن شاكر (٥) ، فقد أظهر الوزير بمظهر الماكر الغادر حيث يقول : « انه لما كان يكاتب التتار تحيل الى أن أخذ رجلا وحلق رأسه حلقا بليغا وكتب ما أراد عليه بالابر ونفض عليه الكحل وتركه عنده الى أن طلع شعره وغطى ما كتب فجهزه وقال اذا وصلت مرهم بحلق رأسك

---

(١) يمكننا أن نضيف الى هؤلاء القلقشندى فقد ذكر فى كتابه صبح الأعشى ج ٣ ، ص ٢٧٧ أن الوزارة ظلت فى الدولة العباسية حتى انقرضت بقتل التتار المستعصم سنة ٦٥٦ هـ ثم قال « وزيره يومئذ مؤيد الدين بن العلقمى وقتله هولاكو ملك التتار بعد قتل المستعصم لمالأته على المستعصم مع التتار » غير أن القلقشندى متأخر كما أنه يخالف جميع المؤرخين فى قوله ان هولاكو قتل ابن العلقمى ·

(٢) المقريزى ــ السلوك ، ج ١ ، ص ٤١٢ ·

(٣) أبو الفدا ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ ·

(٤) تاريخ ابن خلدون ج ٥ . ص ٥٤٢ ·

(٥) فوات الوفيات ج ١ ، ص ١٥٢ ·

ودعهم يقرون (هكذا) ما فيه » ولم يهمل الذهبى الصاق هذه التهمة بالوزير فذكر (١) : « أنه أخذ يكاتب التتار ويراسلونه والخليفة غافل » .

ثانيا : انه مهد لانتصار المغول بأن أقنع الخليفة بانقاص الجند ودعاه الى بذل المال المتوفر من ذلك فى استمالة المغول ، وقد قال الديار بكرى (٢) : « فان وزيره (يقصد وزير المستعصم) ابن العلقمى الرافضى كان كتب كتابا الى هولاكو ملك التتار فى الدشت (هكذا) أنك تحضر الى بغداد وانا أسلمها لك . وكان قد داخل قلب اللعين الكفر ، فكتب هولاكو أن عساكر بغداد كثيرة فان كنت صادقا فيما قلته وداخلا فى طاعتنا فرق عساكر بغداد ونحن نحضر . فلما وصل كتابه الى الوزير دخل الى المستعصم وقال ان جندك كثيرة وعليك كلفة كبيرة والعدو قد رجع من بلاد العجم والصواب انك تعطى دستور الخمسة عشر ألفا من عسكرك وتوفر معلومهم . فأجابه المستعصم لذلك ، فخرج الوزير لوقته ومحا اسم من ذكر من الديوان ثم نفاهم من بغداد ومنعهم من الاقامة بها ، ثم بعد شهر فعل مثل فعلته الأولى ومحا اسم عشرين ألفا من الديوان ، ثم كتب الى هولاكو بما فعل . وقال السيوطى (٣) عند كلامه على الخليفة المستعصم : «وكان أبوه المستنصر قد استكثر من الجند جدا وكان مع ذلك يصانع التتار ويهادنهم ويرضيهم ، فلما استخلف المستعصم كان خليا من الرأى والتدبير فأشار عليه

---

(١) دول الاسلام ج ٢ ، ص ١١٩ .

(٢) الخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٣) السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٧ .

الوزير بقطع آكثر الجند وأن مصانعة التتار واكرامهم يحصل به المقصود · ففعل ذلك » · ولم يخالفهم المقريزى(١) بل قال انه قطع أرزاق الجند ·

ثالثا : ولم يكتف أفراد هذا القسم الأول بالصاق التهمتين السابقتين وهما مراسلة التتار واستدعاؤهم لفتح بغداد ثم التمهيد لهم بانقاص جيش الخلافة ، بل آضافوا الى ذلك تهمة اشد ورموه فى الصميم حين ذكروا آنه عندما استجاب المغول دعوته وجاءوا الى العراق اخذ يساعدهم ضد الخلافة العباسية التى يتولى وزارتها بشتى الطرائق، فمن ذلك انه كان اذا جاء خبر من التتار كتمه عن الخليفة وكان يطالع بأخبار الخليفة التتار (٢) » · هذا الى آنه أرسل أتباعه ليلا فقطعوا دجلة وأغرقوا معسكر الدفتردار الصغير(٣) وبذلك مكنوا المغول من الانتصار فى منطقة دجيل بعد أن هزموا فى الأنبار · وأهم من ذلك آنه أقنع الخليفة بالخروج من بغداد ومقابلة هولاكو كما أخرج منها كثيرا من العلماء وكان بذلك سببا فى قتلهم وتسليم بغداد ، وفى ذلك يقول ابو الفدا(٤) : «وخرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمى الى هولاكو فتوثق منه لنفسه وعاد الى الخليفة المستعصم وقال ان هولاكو يبقيك فى الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك آبى بكر ، وحسن له الخروج الى هولاكو فخرج اليه المستعصم فى جمع من أكابر أصحابه فأنزل فى خيمة ، ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل فاجتمع

---

(١) المقريزى ـ السلوك ـ لمعرفة دول الملوك . ج ١ ، ص ٤١٣ ·
(٢) السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٧ ·
(٣) الدياربكرى ـ الخميس فى أحوال انفس نفيس ج ٢ ، ص ٤٢٠ ·
(٤) أبو الفدا ـ المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ، ص ٢٠٢ ·

هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان بينهم محيى الدين ابن الجوزى وأولاده ، وكذلك بقى يخرج الى التتر طائفة بعد طائفة ، فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم » • وذكر السيوطى(١) أيضا : «ولما دخلت سنة ٦٥٦هـ وصل التتار الى بغداد وهم مائتا ألف ويتقدمهم هولاكو ، فخرج اليهم عسكر الخليفة فهزم العسكر ودخلوا بغداد يوم عاشوراء ، فأشار الوزير ــ لعنه الله ــ على المستعصم بمصانعتهم وقال أخرج اليهم أنا فى تقرير الصلح ، فخرج وتوثق لنفسه منهم وورد الى الخليفة وقال ان الملك قد رغب فى أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبى بكر ويبقيك فى منصب الخلافة كما بقى صاحب الروم فى سلطنيته (كذا) ولا يريد الا أن تكون الطاعة له كما كان من أجدادك مع السلاطين السلجوقية وينصرف عنك بجيوشه فليجب مولانا الى هذا فان فيه حقن دماء المسلمين ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد ، والرأى أن تخرج اليه • فخرج اليه فى جمع من الأعيان فأنزل فى خيمة ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد فخرجوا من بغداد فضربت أعناقهم » • ولم يختلف ما ذكره الديار بكرى أو الذهبى (٢) فى ذلك عما تقدم •

هذا ولم يغفل هؤلاء المؤرخون عن ذكر بعض الأسباب القوية التى دفعت مؤيد الدين محمد بن العلقمى الى هوة الخيانة • ومن تلك الأسباب حنق الوزير على الخليفة المستعصم لتقديمه الدفتردار الصغير عليه وغل يده بعد ان كان متصرفا فى جميع الشئون • وقد أدلى ابن شاكر بهذا

---

(١) السيوطى ــ تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٦ •

(٢) الديار بكرى ــ الخميس ج ٢ ص ٤٢٠ ، والذهبى ــ دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ــ ١٢٣ •

السبب(١) ولم يكتف بذكره مجردا ، بل حاول أن يزيد فى اهميته وذكر أن المغول بعدما نالوا ما يريدون عاملوا الوزير معاملة سيئة وأن الناس ذكروا ذلك للوزير فقال لهم : « بعد أن قتل الدوادار ومن كان على رأيه لا مبالاة بذلك » كما أتى أيضا بشعر ونسبه الى الوزير محاولا أن يثبت أن الوزير أحس بضياع نفوذه وأنه غضب له ، وها هى الأبيات :

وزير له من بأسه وانتقامه
بطى رقاع حشوها النظم والنثر
كما تسجع الورقاء وهى حمامة
وليس لها نهى يطاع ولا أمر

وقد ذكر السيوطى (٢) ما يثبت أن الوزير كان يأمل رجوع نفوذه على أيدى المغول . حيث قال : « ان الوزير كاتب التتار وأطمعهم في البلاد وسهل عليهم ذلك وطلب أن يكون نائبهم فوعدوه بذلك » .

وهناك سبب آخر ذكره المؤرخون هو انتقامه لطائفته الشيعة لما نزل بها من أعمال الظلم والعنف على أثر فتنة قامت بينها وبين أهل السنة سنة ٦٥٥ هـ وتدخل ابن الخليفة أبو بكر والدوادار وأمروا الشرطة فنهبوا الكرخ محلة الشيعة وأساءوا الى الأهلين ، وقد ذكر هذا السبب أبو الفدا والديار بكرى . أما أبو الفدا فقال عند كلامه على سنة ٦٥٦هـ (٣) : « فى أول هذه السنة قصد هولاكو ملك التتر بغداد وملكها فى العشرين من المحرم وقتل الخليفة المستعصم بالله ، وسبب ذلك أن وزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمى

(١) فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .
(٢) السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٧ .
(٣) أبو الفدا ـ المختصر ، ج ٣ ص ٢٠٢ .

كان رافضيا وكان أهل الكرخ أيضا روافض ، فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جارى عادتهم ، فأمر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر ، فنهبوا الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش ؛ فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمى وكاتب التتر وأطعمهم فى ملك بغداد » . وقال الديار بكرى (١) : « وفى سنة خمس وخمسين وستمائة نارت فتنة مهولة ببغداد بين السنية والرافضة أدت الى نهب عظيم وخراب وقتل عدة من الرافضة فغضب لها وتنمر ابن العلقمى الوزير وجر التتار على العراق ليشتفى من السنية » .

وهناك سبب ثالث يضاف الى هذين السببين هو رغبة ابن العلقمى فى ازالة الخلافة العباسية واقامة خلافة علوية محلها . وقد ذكر الذهبى (٢) أن : « ابن العلقمى الرافضى جهد أن يزيل دولة بنى العباس ويقيم علويا » . كما ذكر الديار بكرى (٣) : « وكان قصد الوزير بمجىء هولاكو أشياء منها أنه كان رافضيا خبيثا وأراد أن ينقل الخلافة من بنى العباس الى العلويين » وقال السيوطى (٤) أيضا : « ركن المستعصم الى وزيره مؤيد الدين العلقمى الرافضى فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار وناصحهم فى المجىء الى العراق وأخذ بغداد وقطع الدولة العباسية ليقيم خليفة من آل على » .

واذا كنا قد ذكرنا أن ميرخند ووصاف الحضرة ومنهاجى سراج من ضمن أفراد هذا القسم الأول الذى يتهم الوزير

---

(١) الديار بكرى ـ الخميس ج ٢ ، صص ٤٢٠ .
(٢) الذهبى ـ دول الاسلام ج ٢ ، ص ١١٩ .
(٣) الديار بكرى ـ الخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ .
(٤) السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٦ .

ابن العلقمى بالخيانة ، فليس ذلك منا الا اعتمادا على ما ذكره بعض مؤرخي الفرنجة ، اذ ان سيد أمير على (١) يذكر أن ميرخند ووصاف الحضرة من ضمن المؤرخين الذين يرون أن الوزير مؤيد الدين بن العلقمى كان خائنـا كبيرا ، كما أن براون (٢) يذكر لنا أن منهاجى سراج صاحب كتاب طبقاتى ناصرى اتهم الوزير بالخيـانة ويصمه بأنه أنقص قوات الخليفة وأقنعه بالتسليم لهولاكو ويرجـع ذلك الى طمعـه ورغبته فى الانتقام لطائفته مما حل بها على أيدى ابن الخليفة الأكبر من العنت والارهاق ، ويستعمل أشنع الأوصـاف اذا ما تكلم عنه وينزل عليه أشد اللعنات . ولم ينس دوسون ان يذكر لنا شيئا يوضح رأى وصاف الحضرة فى الوزير ، ومن ذلك ما نقله عنه من قوله (٣) « أخطأ ابن العلقمى فى حسابه حين ظن انه سيحوز حكومة بغداد لأن ابن عمران هو الذى حاز هذا المركز وضم اليه ابن العلقمى لذلك أخذ هذا يعدل عن سـياسته التى تنطوى على الخيـانة بعد أن رفض طاعة الخليفة وأصبح تابعا لحاكم بعقوبا » . كذلك ذكر دوسون رأى ميرخند فى الوزير بقوله ان ما ذكره ميرخند لا يختلف الا قليلا عما ذكره الذهبى ، بعد أن بين هذا يرى أن الوزير كاتب التتار وجرهم الى بغداد بعد أن أنقص جند الخـلافة وأقنع الخليفة بعد ذلك بالتسليم (٤) . وعلى ذلك ، فان آراء وصاف الحضرة وميرخند ومنهاجى سراج والتهم التى يرمون بهـا الـوزير لا تخرج عما ذكرنا حين لخصنا آراء مؤرخى العرب .

---

(١) Sayed Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p. 396.
(٢) Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 464
(٣) D'Ohsson, Tome III, p. 252, Note I.
(٤) Ibid, p. 253, Note, I.

٢ ـ المؤرخون الذين يبرئون ابن العلقمي وأقوالهم :

أما القسم الثانى من المؤرخين فلا يتهم أفراده مؤيد الدين بن العلقمي بالخيانه ، بل يحاولون أن يظهروه بمظهر الوطنى الغيور ، ومنهم ابن طباطبا صاحب الفخرى فى الآداب السلطانية ورشيد الدين الذى ترجم كترمير Quatremere جزءا من كتابه جامع التواريخ وسماه Hist-des Mongols تاريخ المغول . وقد سلك هؤلاء المؤرخين طريقا يختلف كل الاختلاف عن الطريق الذى سلكه الأولون . فابن طباطبا يذكر بصريح العبارة ما يأتى عند كلامه على ابن العلقمي : «ونسبه الناس الى انه خامر، وليس ذلك بصحيح ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته فى هذه الدولة (يقصد دولة الخانات فارس) فان السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد الى الوزير (ابن العلقمى) واحسن اليه وحكمه فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق اليه» . ويروى ابن طباطبا بعد ذلك هذه الحكاية ، زاعما أنها تبرىء الوزير(١) : « حدثنى كمال الدين أحمد بن الضحاك وهو ابن أخت الوزير مؤيد الدين بن العلقمى قال : لما نزل السلطان هولاكو على بغداد أرسل يطلب أن يخرج الوزير اليه . قال : فبعث الخليفة فطلب الوزير فحضر عنده وأنا معه فقال له الخليفة : قد أنفذ السلطان يطلبك وينبغى أن تخرج اليه . فخرج الوزير من ذلك وقال : يا مولانا اذا خرجت فمن يدبر البلد ومن يتولى المهام؟ فقال له الخليفة لابد من أن تخرج . قال : فقال : السمع والطاعة . ثم مضى الى داره وتهيأ للخروج ثم خرج، فلما حضر بين يدى السلطان وسمع كلامه وقع بموقع الاستحسان وكان الذى تولى تربيته (كذا فى الأصل ولعلها

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

ترتيبه بمعنى ادخاله على السلطان للمثول بين يديه كما يفعل الأمناء في الوقت الحاضر) في الحضرة السلطانية الوزير السعيد نصير الدين محمد الطوسى ــ قدس الله روحه ــ فلما فتحت بغداد سلمت اليه والى على بهادر الشحنة فمكث الوزير شهورا ثم مرض ومات رحمه الله في جمادى الأولى سنة ست وخمسين وستمائة » .

أما رشيد الدين (١) فيتكلم عن الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي باعتباره رجلا مخلصا يريد للخلافة كل خير ولكنه يخالف غيره من اتباع الخليفة فيرى ضرورة مسالمة المغول واستمالة هولاكو بالمال ، ويذكر من أقواله : « ببذل المال يمكننا ان نتغلب على منافس كهذا » ولذلك دعا الخليفة المستعصم ــ بعد أن تسلم خطاب هولاكو الثاني الذى ارسله اليه من همذان يدعوه الى الاستعداد للحرب ــ الى تقديم الخيل العربية المطهمة الى أمراء هولاكو وارسال الرسل العقلاء لتسبه هذا الى التسليم بالخطبة له وصك العملة باسمه . وقد كان الدفتردار الصغير وسليمان شاه قائد جند الخليفة يريان غير رأيه في ضرورة مقاومة المغول بالقوة ، ولذلك ترى رشيد الدين يذكر في أكثر من موضع ، أن الدفتردار الصغير هو الذى اتهم الوزير بممالأة المغول، من ذلك ما ذكره أن الوزير ابن العلقمي أخبر الخليفة بما كان يدبره الدفتردار وأعوانه من المؤامرات والمكايد ، حتى ان الخليفة استدعى الدفتردار وسأله عن حقيقة تلك المؤامرات ثم أمره بالاقلاع عنها ، فقال له الدفتردار ان « الوزير رجل مضلل أقصته نزغات الشيطان عن الطريق المستقيم، وأدى به عقله المظلم الى مساعدة

---

(١) Quatremere, pp. 227-299, 237-239, 249, 303, 307, 313.

هولاكو والجيش المغولى • ولقد حاك المكائد ضدى حتى يحول الشكوك التى تحوم حوله • ولا شك أنه عدو الخليفة وأنه يتآمر لمصلحة هولاكو ، حتى انهما يتبادلان الجواسيس والأخبار بعضهما مع بعض » • ومن ذلك أيضا ما ذكره نفس المؤلف عند كلامه على الوقت الذى أعقب المراسلات بين هولاكو والخليفة فقد قال : « فى هذه الفترة كان الدفتردار عدو الوزير وأعوانه الذين كانوا من عامة الشعب ومن المشاغبين فى بغداد يقولون ، ان الوزير على اتفاق مع هولاكو خان وانه يرغب فى نصرة هذا الأمير وفى ضياع الخلافة ويعمل على تدبير مؤامرة ترمى الى تحقيق سياسته» • وعلى كل حال ، فان رشيد الدين لا يظهر أقل شك فى سيرة الوزير بل ويحاول أن يوهم القارىء بأنه رجل يعمل على انقاذ الخلافة من محنتها وأن الخليفة ظلمه حين قرب الدفتردار الصغير وجعل له الكلمة النافذة فى الوقت الذى شل فيه يد الوزير ابن العلقمى •

٣ ــ مجهود الفرنجة فى بحث موقف ابن العلقمى : الآن وقد انتهينا من سرد آراء أصحاب المراجع الأصلية من عربية وفارسية فى الحكم على الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى وجب علينا أن نذكر آراء مؤرخى الفرنجة المحدثين فى هذا الموضوع • ومن الغريب أن نجد هؤلاء المؤرخين الذين لم يدعوا موضوعا الا وكشفوا عن مجاهله حين يتكلمون فى هذا الموضوع لا يأتون بجديد ، بل يخرجون منه كما دخلوا فيه ، ثم لا يسعهم الا الاقرار بأن الباب مازال مفتوحا للبحث والتنقيب •

وقد يكون أسبرن Osborn صاحب كتاب الاسلام فى عهد خلفاء بغداد أقل مؤرخى الفرنجة اهتماما بهذا الموضوع؛ لانه اذا ما تكلم عنه ظهر لنا اقتناعه بخيانة الوزير ابن العلقمى فسرد ما قاله أصحاب القسم الأول فيـه من انه دعا المغـول للقضـاء عـلى الخلافة العباسية ، ومهد لهم بانقاص قوات الخلافة (١) ٠

ويأتى فى الصف الثانى السيد أمير على فى كتابه موجز تاريخ الأمم الاسلامية وسير وليام ميور فى كتابه الخـلافة قيامها وانحلالها وسقوطها ، فانهما اكتفيا بالقول بأن هناك مؤرخين يتهمون ابن العلقمى بالخيـانة وآخرين يعتبرونه وطنيا غيورا ولكنهما لم يبديا رأيا خاصـا أو يأخذا باحـد الرأيين ٠ قال السيد أمير على فى هذا الصدد (٢) : « ويقال انه ــ أى مؤيد الدين محمد بن العلقمى ــ دعا التتار للحضور الى بغداد ، وقد وصف مؤرخو العرب من أمثال ابن خلدون وأبو الفدا والمقريزى والسيوطى الوزير بأنه خائن ، وأيدهم فى ذلك ميرخند ووصاف ٠ أما رشيد الدين وحـده فيصفه بأنه خادم أمين كان يرغب كل الرغبة فى انقاذ البيت العباسى من السقوط المحقق ولكنه لم يكن له حول ازاء جنون الخليفة وتردده »٠ على حين يقول سير وليام ميور(٣) : «ومن العجيب أن الوزير كان شـيعيا ٠ لذلك نرى المـؤرخين السـنيين يحملون عليه بل ويتهمونه بالعمل ضد مواطنيه المنـكوبين باتصاله بالمغول ، بينما يتكلم عنه غيرهم باعتباره وطنيـا غيورا ٠ والحقيقة أننا لا نرى حاجة الى البحث فيما وراء

(١) Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, pp. ›94-395.

(٢) Sayed Ameer Ali. A Short History of the Saracens, p. 396

(٣) Muir, The Caliphate, its Rise, Decline & Fall, p. 587.

أعمال الخليفة الجنونية واضطراب أمور مملكته المتداعية اذا ما أردنا استقصاء أسباب هذا السقوط المريع » .

أما هورث وريتشارد كوك فقد سارا خطوة أبعد ممن ذكرنا فنراهما يميلان الى أحد هذين الرأيين دون أن يحكما على ابن العلقمي كشخصية مستقلة بل كأحد أفراد الشيعة . وفي ذلك يقول هورث(١) : «ويتهمه أغلبية مؤرخي المسلمين بالخيانة ، ولما كان من طائفة الرافضة فقد كان طبيعيا أن يفرح بالقضاء على نفوذ الأسرة العباسية واقامة نفوذ العلويين ، ومن المحتمل أن تكون الفقرة (لعن الله من لم يلعن ابن العلقمي) لها ما يحققها » . كما قال ريتشارد كوك (٢) : « وقد لطخ المؤرخون السنيون اسم الوزير . ويجب أن نقول هنا ان الحوادث مضافا اليها عدم اخلاص الشيعة الذين ينتسب اليهم تؤدى الى الشك في أنه كان على اتصال مشين بالمغول . وقد كان الشعور ضده على أشده بين أهل السنة ، حتى ان الكتب التي ظهرت بعد بسنين عدة وكانت تدرس في معاهد العلم الاسلامية كانت تحمل هذه العبارة « لعن الله من لا يلعن العلقمي » وبصرف النظر عن سلوك الوزير الشخصي فان مساعدة الشيعة الخونة والمسيحيين للمغول لا تدع الا مجالا ضيقا للشك » .

وقد تكون أبعد خطوة في بحث مسألة ابن العلقمي وابداء رأى فيها لدوسون وبراون . أما دوسون فانه بعد أن أدلى بآراء المؤرخين الذين يتهمون ابن العلقمي بالخيانة قال (٣) : « يتهم الوزير ابن العلقمي عادة بالخيانة . . .

---

(١) Howorth, History of the Mongols, Vol. I, p. 201.

(٢) Richard Coke, Baghdad the City of Peace, p. 152.

(٣) D'Ohsson, Histoire des Mongols, Tome III, pp. 219, 252-254.

والحقيقة أن سلوكه يساعد على تحقيق هذا الرأى » • وأما براون فهو الوحيد من بين مؤرخى الفرنجة الذين اهتموا بهذا الموضوع ، فقد خصص له صفحتين فى كتابه (١) وأتى برأى صاحب طبقاتى ناصرى ممن يتهمون الوزير بالخيانة ثم برأى ابن طباطبا الذى يدافع عنه ، وذكر أنه يأسف حين يرى أن ما أتى به ابن طباطبا يمكن استعماله ضده ، وأخيرا أدلى برأيه قائلا ، انه لا يستبعد أن يكون ابن العلقمى قد اغتر بوعود المغول فاشترك مع نصير الدين الطوسى ــ الذى كان شيعيا مثله ، والذى سبق أن خان الحشيشة وحرض هولاكو على القضاء على الخلافة العباسية ــ فى اقناع الخليفة بالتسليم للمغول وبذلك كان سببا فى سقوط بغداد وقتل الخليفة • ويرى براون أن موت الوزير بعد قتل الخليفة بثلاثة شهور يؤيد رأيه فى أن المغول استغلوه حتى حصلوا على ما يبتغون ثم نبذوه نبذ النواة • ولكنه فى آخر الأمر يقول : « ومع ذلك ، فالمسألة مشكوك فيها وكل الاحتمالات تجعل وضوحها الآن على درجة من التحقيق مستحيلا ، لذلك يجب على من لا يتبع ابن الطقطقى فى الدعاء للوزير بالرحمة ألا يؤيد على الأقل اللعنات التى صبها عليه مؤلف كتاب طبقاتى ناصرى ، الذى أظهر تعصبا لأهل السنة أشد مما أظهره ابن الطقطقى للشيعة » • ومن ذلك نرى أنه قد ترك هذه المسألة دون أن تحل حلا نهائيا •

٤ ــ تحليل أقوال المؤرخين فى موقف ابن العلقمى :

بقى علينا وقد استعرضنا آراء المؤرخين من أقدمين ومحدثين ومن عرب وفرس وفرنجة أن ندلى برأينا فى هذا الموضوع

---

(١) Browne, Literary History of Persia, Vol. II, pp. 464-465.

الدقيق . وسنتبع دون شك نصيحة براون فلن نغالى فى اتهام الوزير ولن نغالى فى تبرئته وانما سنحاول أن نتخذ لنا رأيا يؤيده الواقع وتسنده البراهين القوية . ونحب قبل أن ندلى برأينا أن نعلق على آراء الفريقين من أصحاب المراجع الأصلية كل بما يستحقه .

(أ) تحليل أقوال المؤرخين الذين يتهمون ابن العلقمى :

أما الفريق الأول الذى اتهم الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى بالخيانة فلا شك أنه بالغ كثيرا وحمل الحقائق أكثر مما يجب أن تحمل . يتضح ذلك اذا ما تناولنا اراءه بالتحليل ، فمثلا اهتمام أفراده بالقول بأن ابن العلقمى جر المغول الى بغداد ومبالغتهم فى التبعة التى تقع عليه من وراء ذلك ، أمر يدل على ضيق نظرهم وجهلهم بالشئون الخارجية فى العالم اذ ذاك ، ولو أن محيط معارفهم كان متسعا لعلموا ان المجلس الذى اختار الخان الأعظم مانجو قرر ارسال حملة بقيادة هولاكو للقضاء على الحشيشية واخضاع الخليفة العباسى (١) ، ولو كانوا بعيدى النظر لعلموا أن الوزير لو فرض وأنه استدعاهم ما كان ليؤثر فيهم لو لم تكن دعوته موافقة لمبادئهم . كما أنهم حين ذكروا أن الوزير مهد للمغول بانقاص جند الخليفة لم يشذوا عن هذه القاعدة . ونحن من جانبنا لا يمكننا أن نقبل ما ذكروه فيها على علاته ؛ لأننا نعلم أن الخليفة كان قد سلب كل السلطة من الوزير وأبعده عنه

---

(١) Browne, Literary History of Bersia. Vol. II, p. 452.
و Camb, Med. Hist. Vol. IV, p. 641.
و Howorth, Vol. I, p. 193.

وقرب الدفتردار وسليمان شاه (١) • وكيف يمكن للوزير في مثل تلك الظروف أن ينقص الجند ونحن نعلم في الوقت نفسه أن الدفتردار وسليمان شاه كان من رأيهما مقاومة المغول • ولو فرضنا أن الوزير كان قد مهد لهولاكو وانقص الجند قبل مجيئه بعدة سنين ، فلماذا لم يبادر الدفتردار وسليمان شاه بجمع الجند والاستعداد لملاقاة العدو بعد أن صار لهما الأمر والنهي • وقد ذكر أحد أفراد الفريق الأول كما سبق أن الوزير أرسل بعض أعوانه لقطع دجلة واغراق معسكر الخليفة عند دجيل ليلا ، ولا يمكننا أن نصدق هذا الخبر، لأن مثل هذا العمل يستدعي معرفة الوزير وتتبعه اخبار المعارك التي دارت بين جيش الخليفة والمغول أولا بأول • ولو علمنا أن الوزير في ذلك الوقت كان في بغداد بعيدا عن ساحة القتال وأن الحوادث كانت متلاحقة فانتصر جيش الخليفة على جيش سنجاك عند الأنبار في يوم ٩ المحرم سنة ٦٥٦هـ ثم تبعه وتلاقى مع جيوش المغول التي كانت تحت قيادة بيجو نويان عند دجيل في اليوم التالي وانتصر عليها في آخر النهار ثم أغرق معسكر جيش الخليفة الذي أدى الى هزيمته في المساء (٢) — اذا عرفنا ذلك صعب علينا أن نصدق أنه كان للوزير دخل في هذه المسألة ، ولو أنه فعل ذلك فهل من المعقول أن يظل تدبيره خافيا على الخليفة ؟ واذا كان الخليفة قد علم به فهل من المعقول أن يظل الوزير في بغداد دون أن يلحقه أذى مع أن أعداءه الدفتردار وسليمان شاه كانوا يتربصون به الدوائر ؟ أضف الى ذلك أن الخليفة أرسله

---

(١) D'Ohsson, Tome III, p. 214-2-5.
و Quatremere, p. 229.

(٢) Ibid, pp. 279-281.

عدة مرات فى مراسلات الى هولاكو، وهذه أمور لا تترك مجالا للشك فى أن الخليفة كان يزال يثق به ، وان كان قد أعطى السلطة لأعدائه الدفتردار وسليمان شاه تحت ضغط الخوف وأنه لم يصله شيء عن عمل الوزير على اغراق الجيش • ومع ذلك فنحن نعلم أن مهاجمة الجيوش المغولية لبغداد الغربية دبرت فجاة ولم يعلم بهـا أحد فى حاضرة الدولة العباسية بدليل ان جيوش الخلافة كانت على حدود العراق الشرقية ولم تتركها الا بعد أن علمت بذلك الهجوم • هذا وقد ذكر براون أن اغراق معسكر الخليفة قام بتدبيره المهندسون الصينيون الذين كانوا يرافقون الجيش المغولى (١) ، كما ذكر دوسون أن المغول هم الذين أغرقوا السهل الواقع خلف معسكر جيش الخليفة (٢) ، وهذا القول أقرب فى نظرى الى الحقيقة •

وليست هذه الأمثلة هى كل ما يدل على شطط أفراد الفريق الأول ، بل هناك مسألة أخرى لا تقل أهمية عما ذكرنا وهى مبالغة هؤلاء المؤرخين فى أهمية اقناع الوزير للخليفة بالخروج الى هولاكو ، كأنهم يعتقدون أنه لولا اقناع الوزير للخليفة وقوله ان هولاكو يريد أن يزوج ابنته من ابنه أبى بكر لما خرج ، وهذا خطأ محض • والواقع أن حصار المغول لبغداد كان قد بلغ أشده فى ذلك الوقت وأن مركز الخليفة كان قد أصبح حرجا خصوصا بعد أن قتل المغول الدفتردار وسليمان شاه وأتباعهما وبعد أن دب الرعب فى قلوب البغداديين ؛ فخرج بعضهم يعرض تسليم المدينة على هولاكو • ولو أن الخليفة لم يسارع الى الخروج وتقديم نفسه

(١) Browne. Literary History of Persia, Vol. II, p. 461.
(٢) D Ohsson, Tome III, p. 231.

الى هولاكو لاضطر فيما نرى الى التسليم بعد قليل أو لدكت عليه بغداد دكا ٠

(ب) تحليل أقوال المؤرخين الذين يدافعون عن ابن العلقمى : واذا كنا لم نوافق الفريق الأول على مبالغته، فأجدر بنا ألا نوافق الفريق الثاني على رأيه من أساسه ٠ وليس هذا من جانبنا تسرعا بل لأننا لو حاولنا أن نحلل ما قاله أفراد هذا الفريق لما ثبت لنا منها شيء ٠ فابن طباطبا حين يحاول أن ينفى عن ابن العلقمى تهمة المخامرة ويدلل على ذلك بحسن معاملة هولاكو ويقول « فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق اليه » يبرهن على غير ما يقصد كما قال براون ويثبت بذلك أنه نظرى يتناسى الناحية العملية فى الموضوع ٠ اذ المعقول أن هولاكو وقد خامر من أجله الوزير لابد أن يكافئه ويقربه ثم يشركه فى حكومة بغداد على أثر انتصاره كما أشرك غيره ممن خامر مثل ابن عمران ٠ وليس هذا هو كل ما نراه فى هذه المسألة المهمة بل ان ابن طباطبا حين يحاول مرة أخرى تبرئة ابن العلقمى فى هذه الحكاية الطويلة التى تقدمت الاشارة اليها لا يوفق التوفيق كله لأن : أولا ــ الذى يحكى عنه هذه الحكاية الطويلة هو ابن أخت الوزير، وثانيا ــ لأنه يقول فلما حضر (ابن العلقمى) بين يدى السلطان (هولاكو) وسمع كلامه وقع بموقع الاستحسان » ٠ وأى كلام يستحسنه هولاكو الا اذا كان فى مصلحته ٠ وأى رجل يرضى عنه الا اذا كان فى صفه أو على الأقل قد ارتاح اليه ٠ وثالثا ــ لأنه يقول ان الذى تولى ترتيبه فى الحضرة السلطانية الوزير السعيد نصير الدين محمد الطوسى ٠ وهو على ما نعلم الخائن الذى كان سببا فى تسليم ركن الدين خورشاه رئيس الحشيشية ، كما انه هو الذى حرض هولاكو

حين حذره الفلكي حسام الدين من غزو بغداد على عدم سماع كلامه وعلى السير في تنفيذ خطته حتى النهاية ، وأكد له أنه سينجح فيما يقدم عليه · رابعا — لأنه يقول في آخر الأمر ان بغداد لما فتحت سلمت الى الوزير والى علي بهادر ، وهل يعقل أن يسلمها هولاكو اليه دون أن يكون ذلك مكافأة له على عمل أتاه ؟ وأي عمل أعظم في نظر هولاكو من مساعدته على الوصول الى غرضه من دخول بغداد وازالة الخلافة العباسية منها ·

أما رشيد الدين فانه وان حاول أن يظهر الوزير كرجل مخلص لا يختلف عن غيره من أتباع الخليفة الذين عملوا على نصرته في محنته النهم الا باختلاف رأيه في ضرورة استمالة المغول ، فانه في سياق كلامه ذكر أمورا لا يسعنا أن ندعها تمر دون أن نأخذها عليه لأننا نرى أنها كفيلة بهدم رأيه :

أولا : ما ذكره من أن رسل هولاكو عندما جاءوا الى بغداد لأول مرة يحملون الرسالة الأولى التي يدعو هولاكو فيها الخليفة الى تجريد بغداد من الحصون وتقديم فروض الطاعة ، أهانهم أهل بغداد وبصقوا عليهم ومزقوا ثيابهم وأن الوزير هو الذي أرسل من خلصوهم منهم (١) ·

ثانيا : بعد أن ذكر رشيد الدين أن الدفتردار وسليمان شاه أقنعا الخليفة بضرورة استعمال القوة ضد المغول قال(٢) : « وقد كان من أثر ذلك أن طلب الخليفة من الوزير أن يعد الجند حتى يوزع عليهم الذهب والفضة وأن يسلم قيادتهم لسليمان شاه حتى يبر بوعده ، وقد أحس الوزير بعدم رغبة

(١) Quatremere, p. 237.
(٢) Ibid.

الخليفة فى صرف أمواله ولكنه أراد ألا يتعرض لغضب أعدائه فأمر بجمع الجند ولكنه طلب أن يكون جمعهم برفق وببطء حتى لا يحس العدو بحركتهم هذه ، وبعد أن أخبر الضابط الذى عهد اليه بجمع الجند الوزير بأن مهمته قد انتهت بعد خمسة أشهر وأن الجند ينتظرون الخليفة ليوزع عليهم الأموال ، لم يكن من الوزير الا أن أخبر الخليفة بذلك » فهو هنا يذكر أن الوزير عندما آمره الخليفة باعداد الجند لم تكن له رغبة فى اعداده ولولا خوفه من أعدائه لما نفذ هذا الأمر ، هذا الى أن المؤرخ رشيد الدين لا يخفى عنا أن الوزير حين بدأ فى التنفيذ أخذ يماطل ، محتجا بأن العدو عن قرب ويجب ألا يحس بحركتهم هذه ، وهذا يكفى فيما أرى لاظهار نواياه السيئة نحو الخلافة ولا أهمية لما ذكره قبل ذلك من أنه أحس بعدم رغبة الخليفة فى صرف أمواله لأنه لو كان يريد حقا جمع الجند لما فقد الوسائل لجمع المال اللازم لهم ٠

ثالثا : هذا الى أن رشيد الدين ذكر لنا أن الوزير خرج أكثر من مرة الى هولاكو أثناء تبادل المراسلات بينه وبين الخليفة ، ومع ذلك لم يذكر لنا أن هناك أحدا اعتدى عليه ، مع أن الدفتردار وسليمان شاه كان نصيبهما القتل عندما وقعا فى يد هولاكو (١) ٠

رابعا : أن رشيد الدين لم يضن علينا بما حدث فى آخر الأمر حين ضاقت الدنيا فى أعين الخليفة ، فانه ذكر أنه لما اشتدت به الحال على أثر قتل هولاكو للدفتردار وسليمان شاه استدعى وزيره وسأله عما يفعله فأجابه بقوله :

---

(١) Quatremere, p. 283, 295.

يظنون أن الأمر سهل وانما
هو السيف حدت للقاء مضاربه

كما يذكر لنا أيضا أن هولاكو بعد أن ذهب من بغداد الى قرية وقف فى ١٤ من صفر سنة ٦٥٦ هـ استدعى الخليفة اليه ، وأن الخليفة فى ذلك الوقت العصيب سأل وزيره عما يفعله فلم يكن منه الا آن أجاب بقوله « ان ذقننا طويلة » متهكما ومشيرا الى ما قاله الدفتردار عنه عند بدء الخطر المغولى (١) • فقد آشار الوزير على الخليفة بارسال هدية ولكن هذا لم يسمع له وسمع للدفتردار الذى نهاه عن سماع الوزير واصفا له بهذا الوصف الذى قصد به أنه ماكر خبيث •

٥ ــ الرأى الأخير فى ابن العلقمى : اننا لا يسعنا بعد كل هذا الا أن نقول ان الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى لا يمكن أن يكون بريئا من تهمة الخيانة للخلافة العباسية ، الا آنه فى الوقت نفسه لا يمكن أن يكون قد ارتكب كل الجرائم التى حاول المؤرخون السنيون أن يسندوا ارتكابها اليه • وكل ما فى الأمر أنه غضب لما حاق بطائفته من المظالم ولتقديم الدفتردار الصغير عليه ؛ ولكنه كان عاجزا كل العجز عن آخذ الثأر لنفسه وابعاد الأذى عن طائفته • فلما جاء المغول وأحاطوا ببغداد وجد فيهم من يأخذ بثأره وثأر طائفته ، كما رأى ببعد نظره آن النصر سيكون حليفهم لقوتهم وضعف الخلافة العباسية ، لذلك نراه لا يتردد فى اتخاذ سياسة تقربه من المغول وفى الوقت نفسه لا تثير شك

---

(١) Quatremere, pp. 299, 303.

الخليفة فيه ، ولذلك أيضا نراه يتظاهر بأن من رأيه استمالة المغول بالمال لا ملاقاتهم بالقوة ، حتى اذا جاءت رسل هولاكو الى بغداد تحمل رسالته الأولى وهاجمهم البغداديون عند عودتهم أرسل الوزير بعض أعوانه ليخلصوا هؤلاء الرسل من أيديهم ، ومما تجب ملاحظته أيضا أن الوزير تباطأ في جمع الجند عندما كلفه الخليفة بجمعهم تنفيذا لرأى الدفتردار وسليمان شاه • وما امتناع الوزير عن تقديم المشورة للخليفة في آخر أمره وعندما أصبح الموقف حرجا الا لأنه رأى أن الانتصار قد أصبح من نصيب المغول ، كما أراد أن ينتقم من الخليفة الذى أبعده وشل يده عن مباشرة أمور الدولة • وليس ببعيد أن يكون ابن العلقمى في مراسلاته العديدة بين الخليفة وهولاكو عمل على الحصول على ثقة هولاكو باخباره بما يدور في بغداد ، كما أن نصير الدين الطوسى الذى كان مقربا من هولاكو محترما عند المغول استعمل نفوذه في مساعدته للحصول على رضا هولاكو فمهد له الطريق كل التمهيد ، وان لنا من قول ابن طباطبا الشيعى لدليلا على صحة هذا القول الأخير •

٣ ـ موقف أهل الذمة

علمنا مما تقدم كيف كان النصارى واليهود في بغداد يتمتعون بالطمأنينة فى أحيائهم المنبثة في جميع الأنحاء ، ورأينا كيف كان رؤساؤهم ينعمون بالغنى والاحترام ، هذا الى أنهم كانوا جميعا يتمتعون بالحرية في أداء شعائر دينهم • وقد يدعونا ما كان لهم من مركز ممتاز في بغداد الى الاعتقاد بأنهم سيقفون جميعا صفا واحدا أمام أى خطر ينزل بالعباسيين ، ولكننا سنرى فيما يلى أن الواقع يكذب هذا الاعتقاد •

حقيقة أن اليهود وقفوا ازاء فتح المغول لبغداد موقفا يحسدون عليه ، فقد حاربوا حتى آخر لحظة مع اخوانهم المسلمين وقاسوا معهم ما قاسوا من المذابح التى أعقبت دخول بغداد (١) ، ولكن المسيحيين وقد كانوا يفوقونهم عددا كما كانوا أكثر منهم تقربا الى الخلفاء واتصالا بالحياة العامة فى بغداد لم يفعلوا مثل ما فعل اليهود ، بل سالموا المغول وتقربوا اليهم وتمكنوا من كسب عطف هولاكو بتأثير زوجته المسيحية دوكوز خاتون (٢) .

ولو أن فعل المسيحيين اقتصر على ذلك ، لكان من السهل ايجاد مبرر لهم سواء فى حبهم فى الحياة وتعلقهم بها أو فى خوفهم من المغول خصوصا بعد أن صبح نجاحهم أمرا متوقعا . ولكنهم وقد ضنوا بالحياة على بعض المسلمين عندما كان فى قدرتهم تقديم المساعدة لهم لن يجدوا من يحاول الدفاع عن موقفهم . فقد صرح هولاكو للبطريق النسطورى بجمع المسيحيين فى احدى الكنائس حتى يميزوا عن غيرهم فلا يتعرض لهم الجند المغولى عند نهب بغداد ، ففعل ، وحاول بعض المسلمين أن يأووا الى الكنيسة مع اخوانهم المسيحيين حتى ولو بتقديم كل ثرواتهم فلم يقبل البطريق النسطورى وتركهم تحت رحمة السيف المغولى (٣) .

وعلى كل حال، فان المسيحيين لم يشتركوا مع المسلمين فى الدفاع عن المدينة التى عاشوا فيها زمنا طويلا تحت ظل

(١) Richard Coke, Baghdad the City of Peace, p. 152.
(٢) D'Ohsson Tome III, p. 270.
(٣) D'Ohsson, Tome III, p. 241.
و Richard Coke, Baghdad the City of Peace, p. 149.

الخلفاء العباسيين ونجوا من العذاب الذى صبه المغول عـلى تلك المدينة وأهلها وكان موقفهم فى هذا الأمر يشبه تماما موقف الشـيعة • ولم يدافع عن بغـداد فى محنتهـا ويلاقى العذاب ألوانا الا آهل السنة واليهود •

خاتمة القول في زوال الخلافة العباسية من بغـــداد

سرت موجة الضعف فى الخــلافة العباســية منــذ أيام المعتصم وانتهى الأمر بوقوع الخلافة تحت سيطرة الأجانب من بويهيين وسلاجقة ٠ وهى وان تمكنت بعد ذلك من استعادة الســـلطة والتخلص من الأجانب والاســـتقلال بأمــورها (٥٥١ ــ ٦٥٦ هـ) ، فان ذلك لم يكن ســوى اســـتيقاظ فجائى تبعه الزوال ، كما يحدث حين يتوهج المصباح قبــل أن يخبو نوره ٠

ولا يمكننا أن ننسب زوال الخلافة العباسية من بغداد الى سبب واحد أو أن نبالغ كما بالغ مؤرخو العرب فى الدور الذى قام به مــؤيد الدين محمــــد بن العلقمى حتى كادوا ينسبون اليه وحده سبب زوال الخلافة العباسية ، بل يحق لنا أن نرجع هذا الزوال الى عدة أسباب مشتبكة بعضها ببعض، منها اختــلال الحالة الداخلية فى أملاك الخــلافة من جميع نواحيها الحربية والسياسية والطائفية والعمرانية فى عهد الاستقلال الأخير ، ومنها اشتداد ساعد المغول وتوســعهم فى الفتح حتى أصبحوا فى أواخر عهد المستعصم يطوقون أملاك الخلافة العباسية من جميع الجهات تقريبا ٠ ولا نكون مغالين اذا قلنا ان من هذه الأسباب نجاح الخــلافة العباســية فى

سياستها الخارجية فى ذلك العهد ، لأنه يحتمل أن يكون ذلك النجاح قد نظر اليه من ناحية الخلفاء بأكثر مما يستحق فظنوا أن الدول الاسلامية التى تحترمهم يمكنها أن تعين الخلافة اذا نزل بها مكروه أو حاق بها خطر من الأخطار ، على حين كانت هذه الدول قد بلغت درجة كبيرة من الضعف والانحلال حتى أصبح أكثرها خاضعا لسلطان المغول • ولا يبعد أن يكون الخليفة المستعصم قد ترسم خطا الخلفاء الذين سبقوه فى هذا المضمار ولا أدل على ذلك من عدم اهتمامه بدعوة هولاكو له الى التسليم وركوبه متن الشطط حتى قال له فى كتابه اليه كما سبق أن ذكرنا : «ان ملايين من الخيالة والرجالة على استعداد للحرب رهن اشارتى حتى اذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر » •

كان زوال الخلافة على أيدى المغول سنة ٦٥٦ هـ حدا فاصلا بين عهدين فى بغداد ، عهد تسلط على العالم الاسلامى فى السياسة والآداب والعلوم والفنون انقضى وعهد تقلص فى النفوذ السياسى والأدبى والفنى بدأ يظهر شبحه المخيف • فقد كانت بغداد قبل هذا الحادث المشئوم حين كان يقيم فيها الخليفة العباسى ــ اللهم الا اذا استثنينا هذه الفترة التى انتقلت فيها حاضرة الدولة الى سامرا (٢٢١ ــ ٢٧٩ هـ) ــ رأس العالم الاسلامى وقلب الاسلام النابض • وكانت وان فقدت قوتها المادية لما أصاب الخلافة من ضعف وانحلال لا تزال محل احترام جميع المسلمين ، كما ان نفوذها المعنوى كان لا يزال ينتشر فى الأرجاء الاسلامية ، وكان الأمراء والسلاطين المسلمون يلتمسون القوة لعروشهم والثبات فى نظر الجماهير باعتراف الخليفة العباسى بسلطانهم • هذا الى آن الخلفاء العباسيين كانوا يعملون على تشجيع العلماء وتقريب أهل

الأدب ويشيدون العمارات الفخمة ويجمعون الكنوز النفيسة التي أدهشت المغول حين استولوا على بغداد ، كما أدهشت كنوز فارس العرب عندما فتحوا تلك البلاد فى فجر الاسلام • وبعد أن انتشر النفوذ المغولى ذبلت بغداد وتخلت عن مركز الرئاسة السياسية وذلك لأن أبناء هولاكو حين أقاموا مملكة لأسرتهم في غرب آسيا تدخل تحت سيطرتها فارس والعراق العربى قسموها الى قسمين ، وجعلوا بغداد عاصمة لأحدهما وهو العراق العربى ولكنها لم تكن ذات نفوذ وكان يزورها أبناء هولاكو أحيانا كما كان بعضهم يقضى الشتاء فيها ، وكانت أصبهان عاصمة للقسم الثانى أعلى منها درجة وارفع مكانة (١) •

تلك هى حالة بغداد السياسية منذ زالت الخلافة منها على أيدى المغول • أما الحالة الأدبية فيها فقد انحطت تماما بعد ذلك الوقت : اذ أحرق المغول الكتب وقتلوا الأدباء وشتتوا من نجا منهم من الموت ، كما أنهم بعد أن استقر لهم الأمر فى بغداد لم يكن يهمهم ازدهار الأدب العربى وذلك يفسر لنا كيف تنحت بغداد عن مركز الصدارة الأدبية وخلفتها فى ذلك مدينة القاهرة التى أصبحت فى أيام المماليك مركزا للعلماء والأدباء ، والتى ساعدت على نقل آراء الشرق الى الغرب ، ثم كانت بذلك من بين العوامل فى ايقاظ النهضة فى أوروبا (٢) •

ولم يقتصر التغيير الذى حدث فى بغداد بعد زوال الخلافة العباسية منها على الناحية السياسية والأدبية بل

---

(١) Coke, Baghdad, p. 155.

(٢) Nicholson, Literary Hist. of the Arabs, p. 443.
و Camb. Med. History Vol, pp. 464-643.

تعدى ذلك الى الناحية الاجتماعية وحالة الطبقات ٠ فالشيعة الذين مالأوا المغول وتقربوا الى هولاكو ظلوا طوال حكم أحفاده ايلخانات فارس فى احسن حال ، وبلغ من ذلك أن بنى السلطان غازان محمود(١٢٩٦م) تكايا تعرف بدار السيادات لأحفاد على الفقراء ، كما أن اخاه السلطان أولجايتو اعتنق مذهبهم وحاول أن يفرضه على أفراد أسرته (١) ٠ وكان السنيون على العكس من ذلك فى أسوأ حال فى حكم المغول ٠ أما المسيحيون الذين ساعدوا هولاكو فقد لاقوا من ايلخانات فارس كثيرا من العسف وفقدوا ما كان لهم من الحقوق فى أيام الخلفاء العباسيين ، وكان ذلك أحسن جزاء لهم على خيانتهم ، وقد بلغ من سوء حالهم أن البطريق النسطورى اضطر الى نقل بطريرقيته من بغداد الى أربل؛ ليتفادى ما كان ينزل به من اضطهاد ، كما أن جميع المسيحيين فى بغداد فى ايام السلطان محمود غازان (١٢٩٦ ــ ١٣٠٥ م) حين قوى الشعور ضدهم اضطروا الى التزام منازلهم وصارت نساؤهم يذهبن الى الحوانيت للبيع والشراء بدلا منهم ؛ وذلك لأنهن كن يلبسن ثياب المسلمات فلا يمكن تمييزهن (٢) ٠

ولم يقتصر الأثر الذى أحدثه زوال الخلافة العباسية على تغيير الحال فى بغداد ، بل تعدى ذلك الى العالم الاسلامى كله ، ذلك لأن زوال الخلافة العباسية من بغداد كان معناه زوال آخر حكومة عربية لها شبه سيطرة على العالم الاسلامى وتحول النفوذ الى الدول الأعجمية ٠ فالمغول نشروا نفوذهم فى فارس والعراق العربى (١٢٥٧ ــ ١٣٣٥م) وقامت على أنقاض دولة الروم السلاجقة فى آسيا الصغرى عشر

---

(١) Coke, Baghdad the City of Peace, pp. 163, 165.

(٢) Coke, Baghdad the City of Peace, pp. 158, 164.

امارات تركية صغيرة (١) ، وتمكن المماليك بعد صد تيار المغول وهزيمتهم فى عين جالوت من تركيز سلطتهم فى مصر والشام، كما قامت فى شمال أفريقية أسرات حاكمة من البربر على أنقاض دولة الموحدين مثل الأسرة المرينية أو أسرة بنى مرين التى حكمت فى مراكش مدة طويلة (٥٩١ — ٨٧٥هـ = ١١٩٥ — ١٤٧٠ م) والأسرة الحفصية التى حكمت فى تونس أكثر من ثلاثة قرون (٦٢٦ — ٩٨١ هـ = ١٢٢٨ — ١٥٧٤ م) والأسرة الزيانية أو أسرة بنى زيان التى حكمت فى الجزائر منذ سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) حتى فتحها العثمانيون سنة ٩٦٢ هـ (١٥٥٤ م) (٢) ٠

واذا كانت قد ظهرت فى العالم الاسلامى بعد زوال الخلافة العباسية من بغداد دويلات عربية ، فقد كانت هذه الدويلات ضعيفة عاجزة ، كما أنها لم تتمكن من الاحتفاظ بسلطتها زمنا طويلا بل انتهى أمرها بالزوال على ايدى الأعاجم أو بالخضوع لهم ، مثال ذلك امارة بنى نصر فى غرناطة التى قامت فى اسبانيا سنة ٦٢٩هـ (١٢٣٢م) على أنقاض دولة الموحدين وامارة بنى رسول التى قامت فى بلاد اليمن وحكومات أشراف مكة والمدينة التى دانت بالطاعة لسلاطين المماليك فى مصر ثم لسلاطين العثمانيين وظلت على ذلك حتى القرن التاسع عشر (٣) ٠

---

(١) هذه الامارات هى كراسى Karasi وصاروخان Sarukhan وايدين Aydin ومنتشا Mantasha وتكا Takka وحميد Hamid وقرمان Karaman وكرميان Karmiyan وقوزال احمدلى Kizil Ahmadly وعثمان Osman

(٢) Lane-Poole, Muh. Dyns, pp. 49-57, 80, 184-194, 246, 259.
Cam Med. Hist. Vol. IV, p. 643; Encyc. Islam ; Arts. Hafsids Zayanids.

ملاحظه . أسس امارة بنى رسول عمر بن رسول الذى كان حاكما لمكة من قبل بنى أيوب سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩م ٠

(٣) Lane-Poole, Muh. Dyns., pp. 27, 99-103.
Enc. Islam, Arts. Mekka, Medina, San'a Zabid

هذا فيما يتعلق بحالة بغداد وحالة العالم الاسلامى بعد زوال الخلافة العباسية على ايدى المغول • اما الخلافة نفسها فلم يكن فى زوالها هذه المرة نهاية العهد بها ، بل انها انتقلت الى مصر حين رأى الظاهر بيبرس(٦٥٨ ــ ٦٧٦هـ = ١٢٦٠ ــ ١٢٧٧ م) أحد السلاطين المماليك فى مصر ان وجودها يشد من أزره ويكسب حكمه صبغة شرعية هو فى آشد الحاجة اليها لاستناده على القوة وحدها • وقد اتبع السلاطين المماليك الذين جاءوا بعده هذه الطريقة، واستمرت الخلافة فى القاهرة نحو قرنين ونصف قرن(٦٦٠ ــ ٩٤٩هـ= ١٢٦٢ ــ ١٥٤٣م)، وكان أفرادها شبه أسرى يعتمدون على كرم المماليك وعطفهم ولا يتدخلون فى شئون الحكم ، بل يقضون أوقاتهم فى زيارة الأمراء وحضور الولائم، كما أنهم كانوا يحضرون تقليد السلطان الجديد ، وبالجملة فقد كانت حالتهم لا تختلف كثيرا عن حالة مشايخ الطرق الصوفية فى أيامنا هذه (١) •

---

(١) Enc. Islam. art. Khalifa.

مصـــادر الكتـــاب

(أ) المصادر العربية :

١ ــ ابن الأثير (٦٣٠ هـ ــ ١٢٣٨ م) ــ علـى أحمـد بن
آبى الكرم ، الكامل فى التـاريخ ١٢ جزءا (المطبعـة
الأزهرية سنة ١٣٠٢ هـ)

٢ ــ البندارى (من علماء القرن السابع) ــ الفتح بن على
زبدة النصرة ونخبة العصرة (القاهرة سنة ١٣١٨ هـ)

٣ ــ ابن جبير (٦١٤ هـ ــ ١٢١٧م) ·
رحلة ابن جبير (القاهرة سنة ١٩٠٨ م)

٤ ــ حسن ابراهيم حسن (الدكتور)
الفاطميون فى مصر (المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٢م)

٥ ــ حسن ابراهيم حسن (الدكتور)
تاريخ الاسلام السياسى (القاهرة سنة ١٩٣٥م)

٦ ــ ابن خلدون (٨٠٨ هـ ــ ١٤٠٤/١٤٠٥م) ·
العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ أجزاء
(بولاق سنة ١٢٨٤ هـ)

٧ ـ ابن خلكان (٦٨١ هـ ـ ١٢٨١م)
وفيات الأعيان جزءان . (بولاق سنة ١٢٧٥ هـ)

٨ ـ الديار بكرى (٩٦٦ هـ ـ ١٥٥٨ / ١٥٥٩م)
الخميس فى أحوال أنفس نفيس جزءان
(القاهرة سنة ١٨٢٣)

٩ ـ الذهبى (٧٤٨هـ ـ ١٣٤٧ / ١٣٤٨م) ـ شمس الدين محمد بن أحمد ـ كتاب دول الاسلام جزءان (مطبعة دائرة المعارف النظامية ـ حيدر أباد سنة ١٣٣٧هـ) .

١٠ ـ السيوطى (٩١١ هـ ـ ١٥٠٥م) ـ عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين .
تاريخ الخلفاء (القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ)

١١ ـ ابن شاكر الكتبى (٧٦٤ هـ ـ ١٣٦٣م)
فوات الوفيات جزءان (بولاق سنة ١٢٩٩م)

١٢ ـ أبو شجاع (٤٨٨ هـ ـ ١٠٩٥م) ـ محمد بن الحسين بن عبد الله الوزير ظهير الدين أبو شجاع الروذراورى
ذيل كتاب تجارب الأمم (القاهرة سنة ١٩١٤م)

١٣ ـ الصولى (٣٣٠هـ ـ ٩٤١/٩٤٢م) ـ أبو بكر محمد ابن يحيى
كتاب الأوراق الجزء الثالث (القاهرة سنة ١٩٣٥م)

١٤ ـ ابن طباطبا (انتهى من وضع كتابه سنة ٧٠١ هـ)
الفخرى فى الآداب السلطانية (القاهرة سنة ١٩٢٧م)

١٥ ـ ابن العبرى (٦٨٤ هـ ـ ١٢٨٦ م) ـ جريجورى
أبو الفرج بن هرون الملطى
تاريخ مختصر الدول (المطبعة الكاثوليكية للآباء
اليسوعيين ، بيروت سنة ١٨٩٠ م) .

١٦ ـ أبو الفدا (٧٣٢ هـ ـ ١٣٣١م)
المختصر فى اخبار البشر ٤ آجزاء (المطبعة الحسينية
بالقاهرة سنة ١٢٨٦ هـ)

١٧ ـ القلقشندى (٨٢١ هـ ـ ١٤١٨م) ـ أبو العباس
آحمد ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ١٤ جزءا
(القاهرة سنة ١٩١٣ ـ ١٩١٧ م)

١٨ ـ المسعودى (٣٤٦هـ ـ ٩٥٦م)
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جزءان
(بولاق سنة ١٣٠٣ هـ و ١٨٨٥ م)

١٩ ـ مسكويه (٤٢١ هـ ـ ١٠٣١ م)
تجارب الأمم (القاهرة سنة ١٩١٤ م)

٢٠ ـ المقريزى (٨٥٤ هـ ـ ١٤٤١ م)
السلوك فى معرفة دول الملوك الجزء الأول فى مجلدين
(نشره الدكتور زيادة) .

٢١ ـ النسوى (من علماء القرن السابع) ـ شهاب الدين
محمد بن آحمد ، سيرة جلال الدين منكبرتي (باريس
سنة ١٨٠١ م تصحيح هوداس)

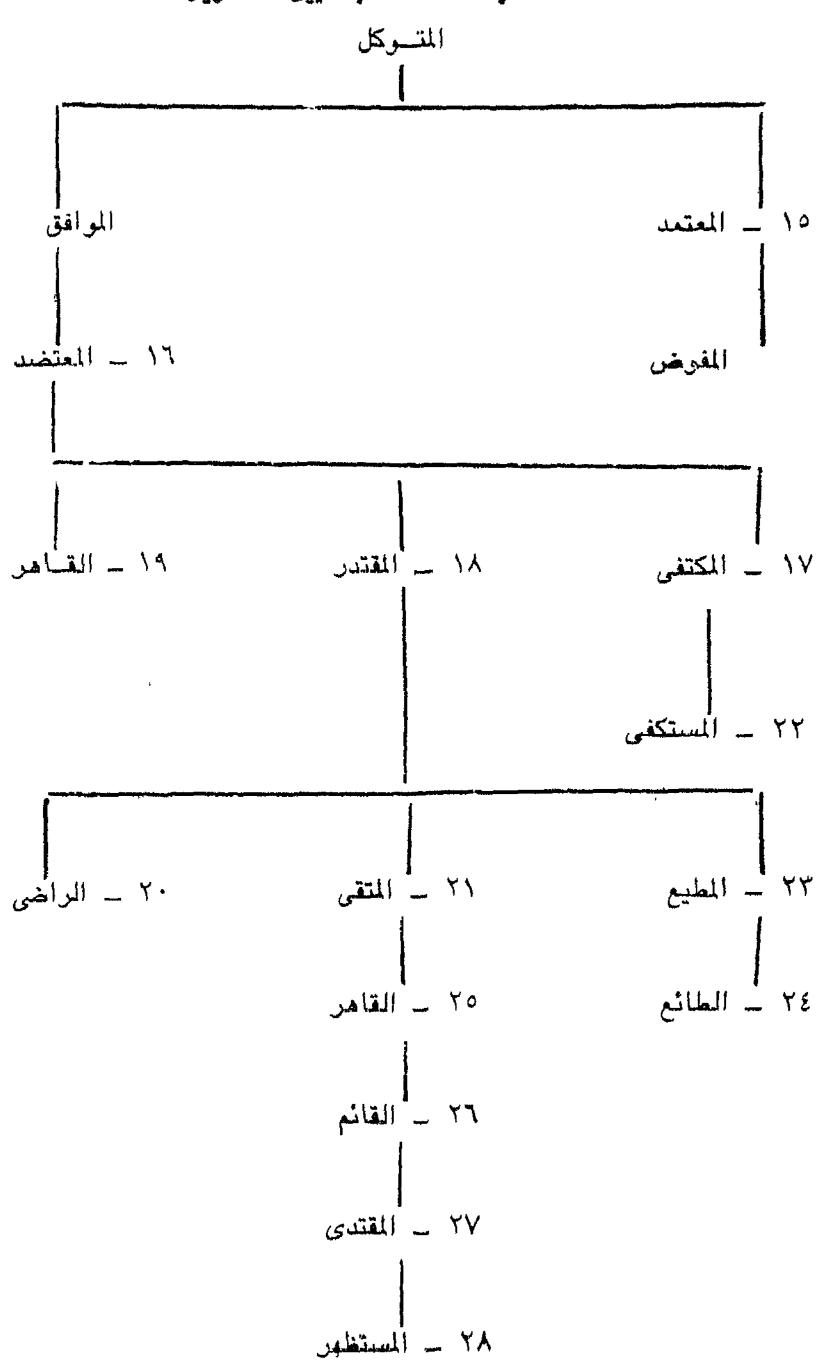
٢٢ ـ هلال الصابىء (٤٤٨ هـ ـ ١٠٥٦ م) ـ أبو الحسن
ابن المحسن بن أبى اسحاق ابراهيم
الجزء الثامن من تاريخ الوزراء
(القاهرة سنة ١٩١٤ م)

٢٣ ـ ياقوت (٦٢٦ هـ ـ ١٢٢٩م) ـ شهاب الدين
أبو عبد الله الحموى الرومى
معجم البلدان ١٢ جزءا (القاهرة سنة ١٩٠٦ م) .

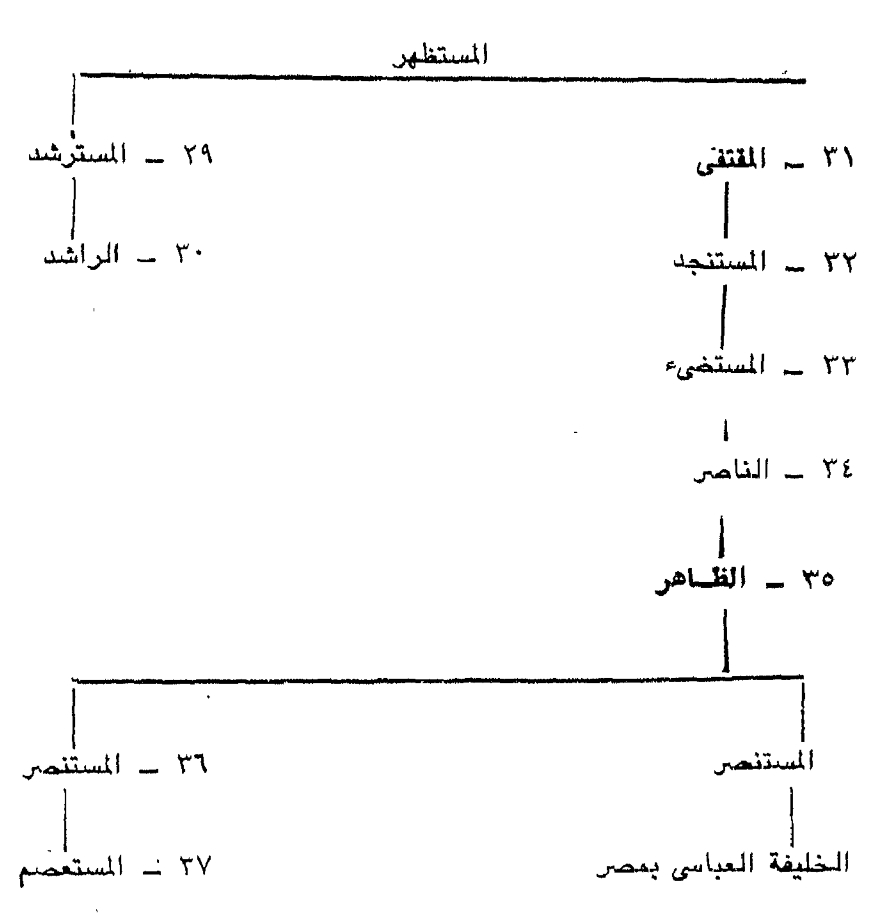
(ب) المصادر الافرنجية :

1. Arnold (T. W.), The Caliphate (Oxford, 1924).
2. Asher (trans), Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, vols 1-11. (London & Berlin 1840, 1841).
3. Browne, Literary History of Persia, vols., I (London 1909). II (London 1906).
4. Browne, Account of a Rare Manuscript History of the Seljuks. (Hertford, 1906).
5. Coke (Richard), Baghdad the City of Peace. (London 1927).
6. Gilman. The Saracens from the Earliest Times to the Fall of Baghdad. (London, 1895).
7. Harold Bowen. Life and Times of Aly Ibn Iea « The Good Vizier ». (Cambridge, 1926).
8. Howorth, History of the Mongols, I-IV. (London 1927).
9. Khuda Bukhsh, Contributions to the History of the Isamic Civilisation. (Calcoutta, 1905).
10. Lane-Poole (Stanley), The Muhammadan Dynasties, Chronological and Goniological Tables with Historical introduction. (Westminster, 1893) and (Paris, 1925).
11. Muir (William), The Caliphate, its rise, Decline & Fall. (Edinburgh, 1924).
12. Nicholson, Literary History of the Arabs (London 1914).
13. Noelaeke, Sketches from Eastern History.
14. D'Ohsson, Histoire des Mongols Depuis Tchinguiz Khan Jusqu'a Timour Bey ou Tamerlan, Tomes I-IV (Amsterdam 1852).
15. Osborn, Islam under the Caliphs of Baghded London, 1876).
16. Quatremère (trad), Histoire des Mongoles.
17. Sayed Ameer Aly, A Short History of the Saracens (London 1916).
18. G. Le Strange, Baghdad during the Abbasid Caliphete. (Oxford 1900).
19. Cambridge Medieval History, vol. IV.
20. Encyclopedia of Islam.
21. Encyclopedia Brittanica.

سلسله نسب الخلفاء العباسيين المتأخرين



(تابع) سلسلة النسب



جـــــدول

يبين مدة حكم الخلفاء العباسيين المتأخرين

(٢٥٦ ـ ٦٥٦ هـ / ٨٧٠ ـ ١٢٥٨ م)

الاسم	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى
المعتمد	٢٥٦	٨٧٠
المعتضد	٢٧٩	٨٩٢
المكتفى	٢٨٩	٩٠٢
المقتدر	٢٩٥	٩٠٨
القـاهر	٣٢٠	٩٣٢
الراضى	٣٢٢	٩٣٤
المتقى	٣٢٩	٩٤٠
المستكفى	٣٣٣	٩٤٤
المطيع	٣٣٤	٩٤٦
الطائع	٣٦٣	٩٧٤
القادر	٣٨١	٩٩١
القائم	٤٢٢	١٠٣١
المقتدى	٤٦٧	١٠٧٥
المستظهر	٤٨٧	١٠٩٤
المسترشـد	٥١٢	١١١٨
الراشد	٥٢٩	١١٣٥
المقتفى	٥٣٠	١١٣٦
المستنجـد	٥٥٥	١١٦٠
المستضىء	٥٦٦	١١٧٠
الناصر	٥٧٥	١١٨٠
الظاهر	٦٢٢	١٢٢٥
المستنصر	٦٢٣	١٢٢٦
المستعصم	٦٤٠ ـ ٦٥٦	١٢٤٢ ـ ١٢٥٨



اقرا فى هذه السلسلة

برتراند رسل
احلام الاعلام وقصص اخرى

ى· رادو نكاياوم جاروتامسكى
الالكترونيات والحياة الحديثة

آلدس هكسلى
نقطة مقابل نقطة

ت· و· فريمان
الجغرافيا فى مائة عام

رايموند وليامز
الثقافة والمجتمع

ر· ج· فوربس و ا· ج· ديكستر هويز
تاريخ العلم والتكنولوجيا
٢ ج

ليستر ديل راى
الأرض الغامضة

والتر آلن
الرواية الانجليزية

لويس فارجاس
المرشد الى فن المسرح

فرانسوا دوماس
آلهة مصر

د· قدرى حفنى واخرون
الانسان المصرى على الشاشة

اولج فولكف
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة

هاشم النحاس
الهوية القومية فى السينما

ديفيد وليام ماكدوال
مجموعات النقود · صيانتها تصنيفها ـ عرضها

عزيز الشوان
الموسيقى تعبير نغمى ومنطق

محسن جاسم الموسوى
عصر الرواية

ديلان توماس
مجموعة مقالات نقدية

جون لويس
الانسان ذلك الكائن الفريد

جول ويست
الرواية الحديثة · الانجليزية والفرنسية

د· عبد المعطى شعراوى
المسرح المصرى المعاصر
اصله وبدايته

انور المعداوى
على محمود طه الشاعر والانسان

بيل شول وادنيت
القوة النفسية للأهرام

د· صفاء خلوصى
فن الترجمة

رالف ئى ماتلو
تولستوى

فكتور برومبير
ستندال

فيكتور هوجو
رسائل واحاديث من المنفى

فيرنر هيزنبرج
الجزء والكل « محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية »

سدنى هوك
التراث الغامض · ماركس والماركسيون

ف· ع· ادينكوف
فن الادب الروائى عند تولستوى

هادى نعمان الهيتى
ادب الأطفال « فلسفته ، فنونه وسائطه »

د· نعمة رحيم العزاوى
احمد حسن الزيات كاتبا وناقدا

د· فاضل احمد الطائى
اعلام العرب فى الكيمياء

جلال العشرى
فكرة المسرح

هنرى باربوس
الجحيم

السيد عليوة
صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العامة

جاكوب برونوفسكى
التطور الحضارى للانسان

د· روجر ستروجان
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟

كاتى ثير
تربية الدواجن

ا· سبنسر
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة

د· ناعوم بيتروفيتش
النحل والطب

جوزيف داهموس
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى

د· لينوار تشامبرزرايت
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر

د· جون شندلر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة

بيير البير
الصحافة

د· غبريال وهبة
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى

د· رمسيس عوض
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها

د· محمد نعمان جلال
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير

فرانكلين ل· باومر
الفكر الأوروبى الحديث ٤ ج

شوكت الربيعى
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى

د· محى الدين احمد حسين
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار

ج· دادلى اندرو
نظريات الفيلم الكبرى

جوزيف كونراد
مختارات من الأدب القصصى

د· جوهان دورشنر
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد

طائفة من العلماء الأمريكيين
مبادرة الدفاع الاستراتيجى حرب الفضاء

د· السيد عليوة
ادارة الصراعات الدولية

د· مصطفى عنانى
الميكروكمبيوتر

مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء والمحدثين
مختارات من الأدب اليابانى
« الشعر ـ الدراما ـ الحكاية ـ القصة القصيرة »

جابرييل باير
تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة

انطوني دي كرسبني وكينيث مينوج
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما

زانيلسكي ف· س
الزمن وقياسه (من جزء من البليون جزء من الثانية وحتى مليارات السنين)

مهندس ابراهيم القرضاوي
اجهزة تكييف الهواء

بيتر رداي
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي

جوزيف داهموس
سبعة مؤرخين في العصور الوسطى

س· م· بورا
التجربة اليونانية

د· عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة في مصر الاسلامية

رونالد د· سمبسون ونورمان د· اندرسون
العلم والطلاب والمدارس

د· أنور عبد الملك
الشارع المصري والفكر

ولت وتيمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية

فرد · س· هيس
تبسيط الكيمياء

جون لويس بوركهارت
العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد على

آلان كاسبيار
التذوق السينمائي

سامي عبد المعطي
التخطيط السياحي في مصر بين النظرية والتطبيق

فريد هويل وشاندرا ويكراما سينج
البذور الكونية

حسين حلمي المهندس
دراما الشاشة (بين النظرية والتطبيق) للسينما والتليفزيون ٢ جـ

روي روبرتسون
الهيروين والايدز واثرهما في المجتمع

دور كاس ماكلينتوك
صور افريقية · نظرة على حيوانات افريقيا

هاشم النحاس
نجيب محفوظ على الشاشة

د· محمود سري طه
الكومبيوتر في مجالات الحياة

بيتر لوري
المخدرات حقائق نفسية

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
وظائف الاعضاء في الألف الياء

ويليام بينز
الهندسة الوراثية للجميع

ديفيد الدرتون
تربية اسماك الزينة

احمد محمد الشنواني
كتب غيرت الفكر الانساني

جون · ر· بورر وميلتون جولدينجر
الفلسفة وقضايا العصر ٣ جـ

ارنولد توينبي
الفكر التاريخي عند الاغريق

د· صالح رضا
ملامح وقضايا في الفن التشكيلي المعاصر

م· هـ كنج وآخرون
التغذية في البلدان النامية

جورج جاموف
بداية بلا نهاية

د· السيد طه السيد أبو سديرة
الحرف والصناعات في مصر الاسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي

جاليليو جاليليه
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ٢ جـ

اريك موريس والان هو
الارهاب

سيرل الدريد
اخناتون

ارثر كيستلر
القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم

ب· كوملان
الأساطير الاغريقية والرومانية

د· توماس ا· هاريس
التوافق النفسي ـ تحليل المعاملات الانسانية

لجنة الترجمة ،
المجلس الأعلى للثقافة
الدليل البيليوجرافي
روائع الآداب العالمية جـ ١

روي آرمز
لغة الصورة في السينما المعاصرة

ناجاي متشيو
الثورة الاصلاحية في اليابان

بول هاريسون
العالم الثالث غدا

ميكائيل ألبي وجيمس لفلوك
الانقراض الكبير

آدامز فيليب
دليل تنظيم المتاحف

فيكتور مورجان
تاريخ النقود

محمد كمال اسماعيل
التحليل والتوزيع الأوركسترالي

أبو القاسم الفردوسي
الشاهنامة ٢ جـ

بيرتون بورتر
الحياة الكريمة ٢ جـ

جاك كرابس جونيور ،
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر

محمد فؤاد كوبريلي
قيام الدولة العثمانية

توني بار
التمثيل للسينما والتليفزيون

تاجور ، شين بن بنج وآخرون
مختارات من الآداب الآسيوية

ناصر خسرو علوي
سفرنامة

نادين جورديمر وجريس اوجوت وآخرون
سقوط المطر وقصص أخرى

احمد محمد الشنواني
كتب غيرت الفكر الانساني ٧ جـ

جان لويس بوري وآخرون
في النقد السينمائي الفرنسي

العثمانيون في أوربا
بول كولز

موريس بير برابر
صناع الخلود

زيجمونت هبز
جماليات فن الاخراج

جوناثان ريلى سميث
الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية

الفريد ج. بتلر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر ٢ ج

ريتشارد شاخت
رواد الفلسفة الحديثة

ترانيم زرادشت
من كتاب الأفستا المقدس

الحاج يونس المصرى
رحلات فارتيما

هربرت شيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بيتر نيكوللز
السينما الخيالية

ادوارد ميرى
عن النقد السينمائى الأمريكى

نفتالى لويس
مصر الرومانية

ستيفن أوزمنت
التاريخ من شتى جوانبه ٣ج

مونى براح وآخرون
السينما العربية من الخليج الى المحيط

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر ٢ ج

جابر محمد الجزار
ماستريخت

ابرار كريم الله
من هم التتار

ج. س. فريزر
الكاتب الحديث وعالمه

سوريال عبد الملك
حديث النهر
من روائع الآداب الهندية

لوريتو تود
مدخل الى علم اللغة

اسحق عظيموف
الشموس المتفجرة
اسرار السوبر نوفا

مارجريت روز
ما بعد الحداثة

د. بيارد دودج
الأزهر فى ألف عام

ستيفن رانسيمان
الحملات الصليبية

هـ. ج. ولز
معالم تاريخ الانسانية
٤ ج

جوستاف جرونيباوم
حضارة الاسلام

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
رحلة بيرتون الى مصر والحجاز
٣ ج

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجهول

ارنولد جزل وآخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة
٢ ج

بادى اونيمود
افريقيا - الطريق الآخر

د. محمد زينهم
فن الزجاج

برنسلاو مالينوفسكى
السحر والعلم والدين

آدم متز
الحضارة الاسلامية

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر

عبد الرحمن عبد الله الشيخ
يوميات رحلة فاسكو داجاما

ايفرى شاتزمان
كوننا المتمدد

سونداري
الفلسفة الجوهرية

مارتن فان كريفلد
حرب المستقبل

فرانسيس ج. برجين
الاعلام التطبيقى

عبده مباشر
البحرية المصرية من محمد على للسادات

ج. كارفيل
تبسيط المفاهيم الهندسية

توماس ليبهارت
فن المايم والبانتوميم

ادوارد دوبونو
التفكير المتجدد

ويليام هـ. ماثيوز
ما هى الجيولوجيا

كريستيان ساليه
السيناريو فى السينما الفرنسية

بول وارن
خفايا نظام النجم الأمريكى

جورج ستاينر
بين تولستوى ودوستويفسكى
٢ ج

يانكو لافرين
الرومانتيكية والواقعية

محمود سامى عطا الله
الفيلم التسجيلى

جوزيف بنس
رحلة جوزيف بنس

ستانلى جيه سولومون
انواع الفيلم الأمريكى

هارى ب. ناش
الحمر والبيض والسود

جوزيف م. بوجز
فن الفرجة على الأفلام

كريستيان ديروش نوبلكور
المرأة الفرعونية

جوزيف نيدهام
موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين

ليوناردو دافنشى
نظرية التصوير

ت. ج. هـ. جيمز
كنوز الفراعنة

رودولف فون هابسبورج
رحلة الأمير رودولف الى الشرق
٣ ج

مالكوم برادبرى
الرواية اليوم

وليم ماريسدن
رحلة ماركو بولو ٣ ج

هنرى بيرين
تاريخ أوربا فى العصور الوسطى

ديفيد شنيدر
نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر

اسحق عظيموف
العلم وآفاق المستقبل

رونالد دافيد لانج
الحكمة والجنون والحماقة

كارل بوبر
بحثا عن عالم أفضل

نورمان كلارك
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا

السيد نصر الدين السيد
اطلالات على الزمن الآتى

ممدوح عطية
البرنامج النووى الاسرائيلى والأمن القومى العربى

د. ليوبوسكاليا
الحب

ايفور ايفانس
مجمل تاريخ الأدب الانجليزى

هيربرت ريد
التربية عن طريق الفن

وليام بينر
معجم التكنولوجيا الحيوية

الفين توفلر
تحول السلطة ٣ ج

يوسف شرارة
مشكلات القرن الحادى والعشرين والعلاقات الدولية

رولاند جاكسون
الكيمياء فى خدمة الانسان

ت. ج. جيمز
الحياة أيام الفراعنة

جرج كاشمان
لماذا تنشب الحروب ٢ ج

حسام الدين زكريا
انطون بروكنر

ازرا ف. فوجل
المعجزة اليابانية

ونفرد هولمز
كانت ملكة على مصر

جيمس هنرى برستد
تاريخ مصر

بول دافيز
الدقائق الثلاث الأخيرة

جوزيف ومارى فيلدمان
دينامية الفيلم

ج. كونتنو
الحضارة الفينيقية

ارنست كاسيرر
فى المعرفة التاريخية

كنت أ. كتشن
رمسيس الثانى

جان بول سارتر وآخرون
مختارات من المسرح العالمى

روزالند وجاك يانسن
الطفل المصرى القديم

نيكولاس ماير
شرلوك هولمز

ميخيل دى ليبس
الفئران

جوسيبى دى لونا
موسولينى

الويز جرايتر
موتسارت

على عبد الرءوف البمبى
مختارات من الشعر الاسبانى

روبرت سكولز وآخرون
آفاق أدب الخيال العلمى

ب. س. ديفيز
المفهوم الحديث للمكان والزمان

س. هوارد
أشهر الرحلات الى غرب افريقيا

و. بارتولد
تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

فلاديمير تيماتيانو
تاريخ أوروبا الشرقية

جابرييل جارسيا ماركيز
الجنرال فى المتاهة

هنرى برجسون
الضحك

مصطفى محمود سليمان
الزلازل

م. و. ثرنج
ضمير المهندس

أ. ر. جرنى
الحيثيون

ستينو موسكاتى
الحضارات السامية

ألبرت حورانى
تاريخ الشعوب العربية

محمود قاسم
الأدب العربى المكتوب بالفرنسية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٤٤١/١٩٩٨

ISBN — 977 — 01 — 6014 — 8



فى أواخر القرن الثانى عشر، توحدت قبائل المغول البربرية على يد تيموجين، أحد زعماء قبائلها، الذى أسمى نفسه باسم جانكيزخان. وانطلقت تلك القبائل من مواطنها الصحراوية المجدبة فى وسط آسيا لتعيث فى الأرض فساداً، شرقاً فى الصين، وجنوباً فى الهند، وشمالاً فى روسيا. وكان من أولى ضحاياها الممالك الإسلامية الشرقية فى فارس والعراق والشام. وقد عامل المغول الشعوب المفتوحة بقسوة ووحشية باتت مضرباً للمثل على مدار التاريخ، وكان استخفافهم بالحياة الإنسانية لا حدود له، فلم يتورعوا عن قتل الأسرى والتنكيل بأهل المدن المفتوحة، حتى لمن حصلوا منهم على عهود بالأمان، ولم يقيموا وزناً ولا احتراماً للتراث الثقافىّ والحضارى لتلك الأمم، فكان الخراب والدمار يسيران فى ركابهم أينما حلُّوا. وقد تضافر مع العبقرية الحربية والاستراتيجية لجانكيزخان وغيره من قادة المغول، ما كان العالم الإسلامى يعانيه من ضعف ووهن بسبب التمزق والفُرْقة. ولم تستطع الجيوش وقف تقدم المغول الذين اجتاحوا إيران، ثم العراق وبعدها الشام، ولم يعد أمامهم سوى مصر لكى يبسطوا سلطانهم على العالم الإسلامي، ولولا بسالة جيش مصر بقيادة السلطان سيف الدين قطز الذى ألحق بالمغول أول هزيمة كبرى لهم فى عين جالوت، لربما تغير تاريخ العالم ولربما انقطعت مسيرة الحضارة الإنسانية. وهذا الكتاب يعرض لشطر من تلك الصفحة الدموية فى تاريخ الحضارة الإسلامية التى وصفها المؤرخون المعاصرون بأنها من أشد المحن والنكبات التي ألَّمت بالإسلام.

٥٥٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب